منطق تحليل الخطاب التعريفيّ

بين أفعال الكلام والنقد الجديد

د. أديب سيف



منطق تحليل الخطاب التعريفيّ

د. أديب سيف

أستاذ في الجامعة اللبنانيّة

منطق تحليل الخطاب التعريفيّ

بين أفعال الكلام والنقد الجديد

دار الفارابي

الكتاب: منطق تحليل الخطاب التعريفيّ

المؤلف: د. أديب سيف

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 – الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني 2015

ISBN:978-614-432-162-1

هذا العمل هو جزء من أعمال المختبر البحثي LILAS – مركز علوم اللغة والتواصل

وقد حظي بدعم من الجامعة اللبنانية، في إطار اللجنة العلميّة للمعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعية.

إهداء

إلى الدكتور غسّان مراد
مدير مركز علوم اللغة والتواصل
ومُنسِّق المختبر البحثي LILAS
أُشاركُه جزءاً من مسؤوليّته
وأردُّ مرآةً من تقديره ومحبّته...

مقدّمة

إنّ معالجة التعريف من زاوية تحليل الخطاب لَهي معالجةٌ قيميّة أكثر منها كمّيّة. فهذه المرحلة الأولى من العمل التي استندتُ فيها إلى فان دايك وأرسطو في المنطق التحليليّ، أودَت بي إلى تحليل نصوصٍ خمسة. على أنّ مرحلةً ثانية تلي تلك، كفيلةٌ بأن أعالج فيها عشرة نصوص، إذ إنّ تحليل الخطاب سيشمل في تلك المرحلة اللاحقة منهاجَي أوستن وسيرل في أفعال الكلام. وإذا كانت المرحلة الأولى قد تناولت مقدّماتِ مقالاتٍ طبّيّة، فالمرحلة الثانية سوف تتناول فيها مقالاتٍ اجتماعيّة-اقتصاديّة، وصولاً إلى مرحلةٍ أخيرة من تحليل مغالطات الخطاب التعريفيّ من منظار النقد الجديد، حيث يُتناوَل أيٌّ من نوع المقالات، في نقاطٍ تحليليّةٍ تُقارِب العشرين، وذلك في تدريجٍ تصاعديٍّ تضعيفيّ ومتوازن في آنٍ واحد بين الفصول الثلاثة.

إنّ هذه المرحلة التي هي، أدبيّاً، معالَجةٌ تطبيقيّة للنصّ، هي، من وجهة نظر الحاسوبيّين، معالجةٌ نظريّة بالنسبة إلى ما يمكن أن تؤول إليه في عمليّة الحوسبة، أي في المعالجة الآليّة للخطاب. وهذا ما قد يستكمله الدكتور غسان مراد، منسّق فريق LILAS، في مراحل متقدّمة.

إنّ عمل الدكتور مراد يتّسم بالدقّة، إذ هو ينطلق من التعريف في ذاته، أسسه، وأنواعه، والطرائق التي يتجلّى بها. وبما أنّنا نحن الاثنين، ضمن الفريق المشترك، قد اتّفقنا على تحليل التعريفات من خلال مدوّنة مشتركة، كان العمل الثنائيّ يتشكّل كالآتي: طرائق التعريف (من الاستقراء إلى النظريّة) ← معالجة منطق التعريف وإشكاليّاته (من تحليل الخطاب في المقدّمات، فالخواتيم=معالجة تطبيقيّة نصّياً) ← معالجة آليّة للتعريف (من النظريّة التعريفيّة + المعالجة التطبيقيّة النصّيّة، إلى المعالجة التطبيقيّة آليّاً واستخراج محصّلات ضمن برمجيّات يرتئيها الدكتور مراد).

إنّ الخطوة التحليليّة التطبيقيّة نصّياً، ولكي تتداخل مع الخطوة التطبيقيّة آليّاً وتسهّل أمرها، جعلتني أعمل كما سأُبرز أدناه- بعد أن حاولتُ قدر الإمكان تصحيح أخطاء لغويّة في النصّ، أو إضافة همزات أو شدّات أو تنوينات، لأنّ للّغة دوراً مهمّاً جدّاً في توصيل التعريف، من دون المسّ بمعلومةٍ علميّة أو دينيّة، إذ إنّ تحليل الخطاب عملٌ ينطلق من داخل النصّ، ولا علاقة للمحلِّل بالتأكّد من صوابيّة المعلومات أو تعديلها، بل إنّ المحتوى عنده يكون المحتوى الوارد في ذاته، على أنّ ما تبقّى هو على ذمّة الكاتب أو الناشر.

أدخلتُ النصّ الأصيل في النصّ التحليليّ فكانا متلازمين، كلٌّ بخطٍّ مميَّز: الأوّل مستقيم كما أُثبت أساساً في المواقع الالكترونيّة، والثاني مائل (Italic) لأنّ هذا الأخير معتمَد في ميدان برامج الكتب

الالكترونيّة، ولأنّ علينا أن نميّزه في صلب التداخل بين النصّ الفوقانيّ والنصّ التحتانيّ.

على أنّ إطلاقي صفة «أصيل» على النصّ ينبغي أن أوضّحه: النصّ الأصيل ذو اتّجاهين: الأوّل أن يكون النصّ الذي ينبغي تحليله؛ والثاني أن يكون النصّ المحلَّل؛ يقيناً منّا أنّ النصّ الأصيل هو ما يعكس النصّ المكتوب، لأنّه هو المضمر، النصّ-تحت النصّ، غير أنّه هو منطقه، هو الذي أنتجه بالشكل الذي بدا عليه. لذلك ارتأيت أن أسمّي النصّ-الأصل ذاك المكتوب، والنصّ-الأصيل ذاك الذي حلّل المكتوب.

عمليّة التكامل الشكليّ بين نوعَي التطبيق النصّيّ والحاسوبيّ جعلتني أضع النصّ المحلَّل بين إشارتَي تكامل (Intégrale)، إذ انّني اعتبرت أنّ النصّ-الأصل هو في الواقع نصٌّ مشتقّ (La dérivée)، مشتقّ من الفكر المنطقيّ الذي أنتجَه، ما يحوّل المنتِج إلى أصيل، وفي الرياضيّات ذاك يتّخذ الإشارة «∫».

هكذا بتنا أمـــام تجزيء النصّ بحسب منطق الخطاب (Segmentation du texte)، لا بل تشريحه: قد يبدو الخطاب أصعب مُشرَّحاً/ مشروحاً، لكنّ المقصود الأرض الأعمق، بيولوجيا النصّ، هو «تحليل» في النهاية: كشف للأسرار، ولكن مع ذلك «تحليل»، والتحليل أصعب من النصّ، وإن فتحَ مفاتيحه.

كسروان ـ غزير، أيّار 2011

د. أديب سيف

الفصل الأوّل

مقدّمات الخطاب الطبّيّ: منطق التعريف بين العوالم الحاليّة والعوالم الممكنة

تمهيد

إنّ عملي تحديداً في هذه المرحلة، ولكي لا يبقى عند حدود كشف مواقع التعريف فقط، كان عرضاً لمقدّمة نصوصٍ طبّيّة منها ما عُلم كاتبوها، ومنها ما لم نتوصّل إلى غير مواقعها الالكترونيّة؛ إذ إنّ الهدف لم يكن اختيار الكاتب، بل اختيار النصّ الملائم لنظريّات أرسطو وفان دايك، أو للافت من عناصر تحليل الخطاب بعامّة، كالتركيب نفسه الذي هو ذو أهمّيّة بارزة في توصيل التعريف. كما أنّه كان يهمّنا الإشكاليّات التعريفيّة، أكثر ممّا كان همّنا أن نكون أمام عالِمٍ معروفٍ وموثوق بمعلوماته وكتاباته: لم يكن اختيارنا عائداً إلى محتوى الخطاب، بل إلى قيمة الخطاب.

إنّ الإشكاليّة، برأيي، هي التي تخلق النظريّة، وتُصوّب، وبالتالي تطرح البدائل، وهذا من شأنه أن ينفع إلى حدٍّ كبيرٍ عمليّة المعالجة الآليّة (Traitement automatique)، لأنّ البرامج الحاسوبيّة ليست نافعة إلّا لتُتيح التصويب أو التسريع أو التسهيل، كما في برامج النحو على سبيل المثال.

في ذلك كلّه لم أعالج التعريف بأسلوبٍ معهود، ولا تناولتُ نصوصاً لا تتناول إشكاليّة. علماً أنّ المقدّمات هي الجزء الذي قد يُسقطه المتلقّي، في حين أنّ المتلقّي النبيه قد يستكمل جسم الموضوع من عناصر إشكاليّة في المقدّمة. قد يظنّ بعضهم أنّ المقدّمة تُهمل لقِصَرها، لكنّنا سنثبت أنّها هي الكفيلة بإظهار تماسك الكاتب ومدى فهمه واستيعابه للموضوع الذي يعالجه في مقالة علميّة طبّيّة.

أوّلاً: الاستنساخ وزراعة الأعضاء [التغيير الأدنى للتعريف بين تزامن البرهان والتفسير، وأغلوطتي البترة والخاتمة]

(http://www.ktaby.com/book-onebook-3327.html)

يحلم [إنّ لفظة «يحلم» لا تدلّ هنا على تجريد مستقبليّ، بل على تعريف، إذ إنّ هذا الفعل مقترن بعالم ممكن *(Possible world)*[1] كما يوضح فان دايك *(Van Dijk)*. وإذا كان يعتبر أنّ من المؤشّرات النحويّة المنتظَرة للبدء بقسم نصّيّ عالماً ممكناً يقدّم فعلاً مثل «حلم» *(Dream)*[2]، فهذا هو النصّ الأمثل ليس لبدء قسم فحسب، بل لبدء نصٍّ بكامله، وما قبلَه سوى الفراغ، وكأنّ هناك بدايةً ضمنيّة للتعريف،

(1) Teun A. Van Dijk: Discourse and Context (A sociocognitive approach), New York,Cambridge University Press, 2008, p.180

(2) Teun A. Van Dijk: Analyzing discourse (Text and Talk), Episodes as units of discourse analysis, Ed. Deborah Tannen, University of Amsterdam, Georgetown University Press, p.181

تعريفاً ذهنياً، استهلالاً قبل البداية. أو أنّ في المقدّمة عينها مقدّمة، ما يحتّم علينا استدراك أنّ لهذه المقدّمة عينها خاتمة.[الأطبّاء العاملون في حقل زراعة الأعضاء بالحصول على كمّيّة غير محدودة من النسيج والأعضاء الملائمة لمرضاهم بدون وجوب البحث عن متبرّع لتلك النسج أو الأعضاء. [كان على النصّ بالتالي أن يبدأ بعلامة حذف، إذ يبدو أنّ الكاتب هو الحالم الأكبر، ولزّمَ الأطبّاءَ فعل الحلم، فأسقطَ ذهنَه على عملهم. فالسياق الداخليّ بكلماته الأساسيّة التابعة من مُشاكِل الحقائق «عاملون+الأعضاء+الملائمة» يجعل الأمر موثّقاً، وبالتالي حيّاً. هذه الموثّقات، مقترنةً بكلمات أخرى متشاكلة ذات مدلول معارض «غير محدودة+بدون وجوب»، تجعل العالم الواقعيّ غير ممكن؛ وبارتباط الواقع- وهو أقصى العالم الحقيقيّ *(Real world)* - بالمتخيَّل- وهو أقصى العالم الخياليّ- نصل إلى معدَّل للعالم: العالم الممكن.[ويمكن لذلك الحلم أن يتحقّق [ما يؤكّد كلامنا، هو مركَّب الملفوظ التالي «ويمكن لذلك الحلم أن يتحقّق». هذه «الواو» التي تُظنّ مهمَلة، هي في الواقع شديدة الأهمّيّة، إذ نجدها تربط الحلم السابق بالواقع الحاليّ، ما يجعل المتلقّي ينسجم وسياقَ التعبير، فيما لو لم ينسجم بسياق المحتوى. غير أنّ اسم الإشارة «ذلك» يستبعد تحصيل الحلم فعلياً، ما يؤكّد من جهة أنّ الكاتب ذو موضوعيّة، فيستمرّ القارئ بالقراءة.[إذا تمكّنّا من الإفادة [لأنّ أداة الربط الاستنتاجية «إذا» تستكمل سبيل العالم الممكن، بما أنّها شرطيّة

غير جازمة: ليس مَن يجزم أنّ هذا الحلم سيتحقّق، ولكنّه، مع ذلك، ممكن التحقّق بشروط. ليس هذا هو المهمّ الأساس، بل موقع «إذا» الذي جاء ضمن مركّب تراجعيّ هو السبب، بعد النتيجة، وكان للتركيب الطبيعيّ أن يكون «إذا...». تركيباً، لا مشكلة في مستوى التعبير، ولكنْ وظيفياً، ثمّة تلاعبٌ دلاليّ باقتناص مَيل القارئ صوب تصديق هذا العالم الممكن، إذاً تحويله إلى عالم واقعيّ [من تقنيّات نقل النواة وتخطّي العقبات التي تقف عثرة في طريق الاستنساخ. [لاحظ كيف أنّ هذا الكاتب يقتنص الميل، من خلال ما أسماه أرسطو أغلوطة النبرة[1]، وهذا كلّه خلطةٌ تأثيرية: تقنيّات +نقل + العقبات + تقف + طريق=تواتر حرف القاف، وهو حرفٌ انفجاريّ أصلاً، وبتكريره ينفجر هذا العالم الممكن ليصير عالماً واقعياً بامتياز. ذاك مفيد على المستوى الصوتيّ، وعلى القارئ أن يتنبّه لأهميّة قصديّته في الكلام الشفويّ، وكأنّ هذه المقالة قيلت أساساً في محاضرة علمية. وظيفتها جماليّة كخطوة أولى، لكنّها إقناعية، بمعنى أنّها تُقنع المتلقّي بدون أن يشعر بأنّه مُساق إلى تصديق هذا العالم. الأغلوطة هنا لم تأتِ بمعنى عدم ملاءمتها للسياق الداخليّ، بل بمعنى أنّها تأثيريّة في المتلقّي، إذاً ليس في علاقة النصّ-النصّ، بل في علاقة الكاتب-المتلقّي، على

---

(1) فاتن بن سالم: القياس المغالطيّ في خطاب البخلاء، فصول (مجلّة النقد الأدبيّ)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، شتاء/ ربيع 2010، عدد 77، ملفّ العدد «تحليل الخطاب: رهانات وآفاق»، ص 238.

أنّ علاقة الكاتب-النصّ هي علاقة قصديّة تنشأ من الدالّ لتدعيم المدلول ضمن التركيب التابعيّ بكامله، فالتعريف يخرج من سياقه الداخليّ المؤثّر في مستوى التعبير للتأثير في مستوى المحتوى أي السياق الخارجيّ، ما جعل محتوى التعريف مضمراً من خلال ربطه بالحلم، والحضّ على صوابيّته من خلال ضخّ وظيفة النبرة فيه.[إذا جرّدنا بيضة بقرة من نواتها ودمجناها مع خليّة بشريّة فإنّ جنيناً يمكن أن ينمو ويتطوّر ضمن أنبوب الاختبار، [من العامّ إلى الخاصّ (البيضة)، بقي التوازي التركيبيّ نفسُه (إذا...). ولكنّ الكاتب لم يحتج هنا إلى تأخير الربط الشرطيّ، إذ إنّ الشاهد الواقعيّ يجعل التصديق من خلال المحتوى عينه، بدون ضرورة الالتفاف اللغويّ. لكنّ المشكلة باتت مزدوجة في الاحتمال، فكان السبب محتملاً (إذا) والنتيجة محتملة (يمكن)، ما جعل العالم الممكن مزدوجاً، مردّه إلى عدم التصديق. لا ننكر أنّ ثمّة تعريفاً هنا، هو «الجنين»، نوعه المتميّز (الجنين=...). لكنّه مضمر، وفي الوقت عينه، نظراً إلى ميله أكثر صوب العالم اللامصادَق عليه، محاصَر بضمير الجمع المتكلّم الذي يخفّف من حدّة اللامصداقيّة، صوب التصديق: الأنا المتجمّعة في النحن تجعل المتلقّي داخلاً في التعريف، فيُسقَط عليه ما لم يقُلْه، ويصبح هو قائله، وبالتالي يُلْزَم عليه تصديقه. هكذا جُعلت الجملة الإنشائيّة التي لا تحتمل الصدق والكذب، تحتمل الصدق، بإجماع الرأي، لكأنّ التعريف بات نوعاً من التصويت، أكثريّةً، وليس حقيقة، وهو ما يخالف

نظام الدقّة العلميّة التي ينبغي أن تكون مطلقة.] ولكنّه لن يكون قادراً على الحياة، إلّا أنّ خلاياه ستكون مصدراً لعدد كبير من النسج [هذا ما يفسّر الخريطة التركيبيّة في ما تلا، بخاصّة في أداتَي الربط المتلاحقتين واللتين لهما الوظيفة الدلاليّة نفسها: التعارض. إلّا أنّ تلاحقهما المباشر يؤكّد أنّ الكاتب في دوّامة لا يُدرك سبيلاً لحلّها، ما يجعل التعريف، متى دخل في دقّة العالم الواقعيّ، يخرج على سيطرته. «لكنّ» تقلب ما قبلها، فتحوّل الإيجابيّ «ينمو ويتطوّر» إلى سلبيّ، ومن ثمّ «إلّا أنّ» تقلب السلبيّ إلى إيجابيّ، فتنتهي النتيجة بالإيجابية، كما بدأ السبب. إذاً هذان النموّ والتطوّر مُدرَكان بالفعل.] يمكن أن تعمّ فوائدها الطبّيّة مجالي طبّ الأعصاب وزراعة خلايا العضلات القلبيّة في الدرجة الأولى. [ومَن اعتقد أنّ فعل «يتطوّر» هو مجرّد إضافة إلى «ينمو»، فعليه أن يلاحق دائريّة السبب-نتيجة، فيلحظ أنّه يتواءم مع نتيجة الفعل «تعمّ»، إذاً التماسك بالرابط والدلالة=التعميم. لكنّ ازدواجية «يمكن» تجعل هذا التماسك جميعَه لا أهمّيّة له من حيث العالم الواقعيّ: ما فتئنا في العالم الممكن. بيد أنّ في هذا العالم الممكن تماسكاً، وتعميماً، إنْ بالضمير الجمع أو بالمدلول المعمِّم. باختصار، لا يمكن أن ننكر فيه القيمة الابتكاريّة. هذا «الحلم» ليس حلماً مطلقاً، بل إنّه ممكن التنفيذ. إذاً ثمّة شروط لتحقيق الحلم، ولكنّه ليس حلماً-حلماً، بل هو حلم-ممكن. من هنا، فهو من قبل أن يكون قيمة ابتكاريّة، كان قيمة: في الدرجة الأولى.]

وهنا تجدر الإشارة إلى ضرورة تنمية العضو بالكامل لأنّ تلك النسج ستستنسخ من خلايا المريض نفسه من أجل التغلّب على مشكلة الرفض المناعيّ للجسم الغريب. [متى أخفق الكاتب في تعريفه هذه التقنيّة الاستنساخيّة ضمن العالم الحقيقيّ، شرع إلى التفسير؛ فتداخُل التفسير بالإقناع، يجعل من الرؤية اللاموضوعيّة تماماً رؤيةً موضوعيّة تماماً، ما دام التفسير مبنيّاً، كنمط، على الحقائق. واللافت في الأمر أنّ بعد أداتَي التعارض المتلاحقتين، وهما من النمط البرهانيّ ذي الوظيفة الإقناعيّة، كانت أداتان للتفسير، متلاحقتان أيضاً، هما «لأنّ» و«من أجل». واللافت الأدقّ أنّ الأداة الأولى لفظٌ واحد، فيما الثانية لفظتان. هذا كلّه يستأهل القول بالتوازي النمطيّ، لفظاً عدديّاً (لكن/ لأنّ؛ إلّا أنّ/ من أجل)، وتوقيتاً زمنيّاً (بين المتعارضين ≈ بين التفسيرين). هذا ما يجعل التعريف العامّ يأتي بالمناصفة بين الذاتيّة والموضوعيّة، بين نوعين من المتلقّي، المتخصّص وغير المتخصّص، أي بين العالم الممكن والعالم الواقعيّ، خصوصاً أنّ «الممكن» لم يعد في قاموس التفسير، لا بل بات بالمقلب الآخر المعكوس، «المؤكّد»: السين في تسويف حاصل لا محالة (ستستنسخ)، وهي تكرّرت في النبرة أيضاً، فكانت الدخيلة تبدو من أصل الكلمة، فانصهرت معها، إذ في سياقها سُبقت بسين (نسج) وثُلّثت بسين، مع التوكيد (نفسه=سين أيضاً).] أمّا الفائدة الأعمّ فهي في التوقّف عن البحث المضني عن المتبرّعين بالأعضاء. [الكاتب يعلم تماماً عناصر كلٍّ من النمطين، ولكنّ همّنا،

كمتلقّين، في مقالة علمية طبيّة، أن نصل إلى محتوىً دقيق، وليس إلى تعبير صحيح. وهذا ما لم نصل إليه مع هذا الكاتب، خصوصاً أنّ القيمة عينها تبدّلت: في الدرجة الأولى= زراعة خلايا العضلات القلبيّة؛ الفائدة الأعمّ= التوقّف عن البحث المضني عن المتبرّعين بالأعضاء. ما من مشكلة أن تكون ثمّة قيمتان مهمّتان، لكن أن تكونا اختلافيتّين إلى هذه الدرجة، وهما في الموقع الأوّل للاهتمام (في الدرجة الأولى =الفائدة الأعمّ)، وبعد «أمّا» كأداة تعارض بُنِيَت على اختلافين بالمحتوى، ومعادلين قيميّين، فهذا ضاربٌ للمنطق. هنا بدأت تتزعزع عناصرُ التعريف، عالمُه، عرضه، إثباته، هدفه: بأغلوطة الاشتراك، وذلك بأن نستعمل الكلمة في معانٍ مختلفة[1]، وخصوصاً لناحية الهدف كقيمة مرتجاة لمّا تكن قد بلُغت بعد؛ وأغلوطة الاشتباه، في اللفظ والتركيب، وذلك عند عدم التمكّن من تحديد مواطن الإحالة فيهما أو كيفيّات تعالق الألفاظ داخل القول[2]، حيث إنّ «أمّا» لم تُستعمل في وظيفتها المعهودة، بعد أن نجح الكاتب كلّ النجاح في استخدام ثنائيّة الروابط كما أسلفنا، ولكنّ موقع النجاح، كقيمة مرتجاة من مقالة علمية طبيّة، أي في الموضع الأهمّ للحسم، فشلَ في استخدام الرابط، أو في وضعه بين موقعين متعارضين ظاهرياً ومتآلفين ضمنياً، فالتبست القيمة. وهكذا لم يعد العالم ممكناً أو غير ممكن، حقيقياً أو مترقّباً، لا بل إنّه لم يعد عالماً أصلاً! [

(1) الموضع نفسه.

(2) الموضع نفسه.

وهذه التقنيّة ما زالت تحتاج إلى جهد وتطوير بالرغم من تمكّننا من إذلال العديد من العثرات. [في الـ-مقدّمة مقدّمة وخاتمة. أتت مقدّمة الـ-مقدّمة مخالفة لخاتمتها. ولئن بدا التماسك داخل التماسك ظاهرياً، بفعل التدرّج داخل المقدّمة نفسها، كانت أغلوطة المقدّمة والخاتمة: وهذه التقنية ما زالت تحتاج إلى جهد وتطوير بالرغم من تمكّنا من إذلال العديد من العثرات/ إذا أمكننا.. تخطّي العقبات التي تقف عثرة في طريق الاستنساخ. فكيف ذُلّلت العثرات في المقدّمة، ثمّ بدا ذلك غير ممكن في الخاتمة، خصوصاً أنّ اللفظة أتت نفسها معجمياً (العثرات=العقبات التي تقف عثرة)؟ من هذه الأغلوطة في مقدّمة المقدّمة/ خاتمة المقدّمة، وهي التي عليها على الأقلّ أن تكون متماسكة بالمحتوى حتّى يأمن المتلقّي لثقته بالكاتب، نفهم أنّ الإشكالية في الطرح لا بدّ من أن تتفاقم في صلب الموضوع، بما أنّها هي نفسها متفرّعة إلى ضدّين، ولا سبيل إلى البناء الجدليّ بين إشكاليّة وضدّها، أي بين وجهتَي نظر، بل إلى تعارضٍ داخل الإشكاليّة الواحدة. لذلك انسجمت أدوات التعارض مع هذه الخريطة، لكنّها بيّنت الخريطة، كانت ملائمة للخريطة، لكنّ الخريطة هي أصلاً غير ملائمة في ذاتها، كمقالة علمية. لقد لاءم التعريف البنية الذهنية للمؤلّف، ولكنّ البنية الذهنيّة للمؤلّف غير ملائمة في ذاتها. فنحكم أنّه بالنظر إلى هذه المقدّمة، ندع ما تبقّى من النصّ وشأنه. نُسقطه. لا داعي لأن نكمل.]

ثمّة تغيير *(Change)*. لكنّة تغيير تعارضيّ في زمنٍ حاضر واحد. معلومٌ عند فان دايك أنّ التغيير، وإن كان في عالم حاليّ *(Actual world)*، يجب أن يكون في زمنين متعاقبين، في سياق تنظيم زمنيّ للعوالم *(Temporal ordering of worlds)*[1]. غير أنّ الحالة الممكنة، والحالة المستعصية، بما فيهما من تعارض مطلق، جعلت الحدث بكامله غير ممكن، على الأقلّ نصّياً، أي بالطريقة المكتوب بها. علينا الآن أن نستعلم، من وسائل معلومات أخرى، ما إذا تحقق هذا الاختراع الطبيّ أم لا. لأنّ النصّ ألغى الحدث، وإن بهذا التغيير البسيط في البنية السطحية، الذي انعكس كسراً للعالم الممكن بكامله من خلال كسر العالم الحاليّ للأطبّاء المتعذّر عليهم/ الممكن إتمامهم للعمل=المتعذّر منطقياً. هذا النوع من التغيير البسيط اعتبره فان دايك تغييراً أدنى *(Minimal change)*[2]، متى اختلفت أوصاف الحالة *(State descriptions)* بين العالمين فقط بجُمَيلة ذرّيّة وحيدة *(One atomic proposition)*، مثل ~ ق (سلب القضية) بدلاً من ق *(~p instead of p)*، أو ق بدلاً من ~ ق *(p instead of~ p)*، شرط الإبقاء على الأشياء الأخرى متعادلة *(Equal)*. لكن كيف يبقى ثابتاً،

---

(1) Teun A. Van Dijk: Text and Context (Explorations in the semantics and pragmatics of discourse), Ed. R. H. Robins-G.N. Leech, University of London-University of Lancaster, University of Amsterdam, Longman Linguistics Library, 1977, p.168.

(2) Ibid.

حتّى ما هو ثابت، في عالمٍ واحد تشظّى إلى عالمين وهو عالم واحد، وفي زمنٍ واحد كان التغيير الضدّيّ هذا؟

من منظور فان دايك، في كلّ الأحوال، لا ينبغي الإنكار أنّ هناك حدثاً قد حلّ. غير أنّ المشكلة هي في الزمن الفاصل بين المتضادّين في العالم الواحد، إذ هو واحد أيضاً، فيما كان يجب أن يكون تعاقبياً ز أ+ ١. لذلك، لو اعتبرنا أنّ الكاتب يتكلّم على الصعوبة غير الممكنة في عالم الاستنساخ الممكن، ثمّ على الصعوبة المذلّلة في العالم عينه (ع أ)، ولكن في زمنٍ أوّل <ع أ،ز أ> (<wi, ti>) جاء زمنٌ لاحق <ع أ، ز أ+ ١> (<Wi, t i+1>) خفّف من مصاعبها، فإنّنا، من هذا المنطلق، ومن هذا المنطلق فقط، نغفر للكاتب هذا التضارب غير المسموح به علمياً. من خلال هذا التعيين، نتفهّم أنّ كلّ علمٍ ينشط أصحابُه ليذلّلوا عقباته، ولكنْ كان على الكاتب ذكر الزمن المتقدّم ليَصحّ التقدّمُ الإيجابيّ. وإذ ذاك صحّ أن نقول إنّ حدثاً ما قد ظهر أو أخذ مكانه، أو أنّ شيئاً ما قد حدث *An event has occurred or taken place,or)* *(something has happened*[1].

---

(1) Ibid., p.169.

ثانياً: ما هي فوائد الثوم؟ [الحلقات السردية غير المقولبة لثنائيتي العالم -الحالات والعالم -الزمن، بين نقلات الخطية الزمنية، ونقلات خلايا شجرة التعريف الدلالية]

http://www.souqaldoha.com/vb/t8213.html

الثوم نبات عشبيّ موطنه الأصليّ في بلاد البحر الأبيض المتوسّط ومنها انتشر إلى بقيّة البلاد. ويعتبر الثوم من أقدم النباتات التي عرفت في مصر حيث وجد منقوشاً على جدران معابد الفراعنة. ويزرع على فترتين من العام... الأولى من منتصف شهر أيلول/ سبتمبر إلى أواخر تـشرين الأول/ أكتوبر، والثانية من تشرين الأول/ أكتوبر وحتّى نهاية تـشرين الثاني/ نوفمبر [في مقدّمة الكاتب، كانت قضية الثوم هي قضية التعريف. وقد كان تعريفه علمياً فعلاً، وموضوعياً.]

وتقول قصص مصريّة باللغة الهيروغليفيّة إنّ الثوم كان يعطى للعمّال الذين يبنون الأهرام لتقويتهم والمحافظة على صحّتهم، وكان الرياضيّون الإغريقيون في اليونان القديمة يأكلون ثوماً نيئاً قبل الاشتراك في المسابقات ويتناوله الجنود الرومان قبل خوض المعارك الحربيّة، [في كلّ الأحوال، إنّ ما بدا-أو هو -زعزعة لاستقرار التعريف، هو -أو بدا- تنظيم لمُكمّلاته. ففان دايك يقول إنّه عموماً، في حلَقات العالم *(World episodes)* (الإخبار عن مشهدية للثوم) كما حلقات الخطاب

(Discourse episodes) (أهميّة الثوم)، لنتقيّدْ بتحديد الحلقات لهذه الجُميلاتَ أو الأفعال *(Propositions or actions)* المهمّة، المثيرة للاهتمام *(Important,Interesting)*، أو الأحداث الطارئة *(Incidents)*، وعليه، غير المقْولَبَة أو الطبيعية *Non stereotypical) (or normal*، مايعني أنّ الجُميلات الكُبْرى الأعلى مستوىً *Higher) (level macropropositions*، على وجه الخصوص، كالسرديّة أو التداوليّة، هي تلك التي تغطّي الحلقات في نصٍّ ما، وهذا ما يجلو أكثر فأكثر تنظيم الخطاب *(Organization of the discourse)*[1].

في نصّنا، كان السرد-الإخبار هو الطاغي، ونقول «السرد/ الإخبار»، لأنّ الوظيفة الإخباريّة لم تتشكّل بالكامل من متتاليات سرديّة ذات مراحل خمس، ولكنّها، مع ذلك، لا تُغفل السرد بمراحل ضمنيّة: فعندما «يتناول الجنود الرومان الثوم قبل خوض المعارك»، وعندما «يُستخدم للوقاية من الغرغرينا»، فإنّما يدعُنا الكاتب نتصورّ التعريف عن طريق المشهد الآتي: الجنود يتناولون الثوم-بدأت المعركة-عظُمت الحرب-الثقة بالنفس-الانتصار. إذاً، داخل التعريف، هناك عنصر الثقة المغيّب/ الحاضر-الحاليّ. أو نتصورّ: الصحّة جيّدة-مرض الغرغرينا-ماذا نفعل؟-تناول الثوم-الشفاء. وهنا يتماثل عنصر التساؤلات الضمنيّة، والإجماع التجاوبيّ، ما يضفي على التعريف

---

(1) Teun A. Van Dijk: Analyzing discourse (Text and Talk), Episodes as units of discourse analysis, p.192.

أهميّة نفسيّة لدى المتلقّي. وهذا كلّه يتمثّل في مراحل تبدأ من الوضع الأوّل، فعنصر التأزيم، فالتفاعلات، فمُطلق الحلّ، فالحلّ. وتلك جميعها تصبّ في خانة المتاليه/ المتاليات، وتشكّل جزءاً متكاملاً منظّماً لما أسميناه مقدّمة.]

وأوصى أبوقراط أبو الطبّ القديم بتناول الثوم للحماية من العدوى وتلوّث الجروح واضطرابات الهضم.

وقد ورد ذكر الثوم في الكتب السماويّة، وفي القرآن الكريم ورد ذكره مرّة واحدة حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ ... وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [يقول أرسطو إن كان الشبيه ممكناً، فالذي يشبهه أيضاً ممكن[1]. لقد كان الشبيه بالجناس (فوم/ ثوم؛ (وباءوا=وباء=تصويت رابط بين السبب والنتيجة =دلالة استنتاجية ضمنيّة)، وإذا كان التعريف القرآنيّ الشبيه شكلياً، قد ضخّ للأصيل (الثوم) مزايا «الطعام الإلهي»: الثوم لا يحتاج إلى وسيط، بل هو من الخالق مباشرةً. هذه القوّة ضاعفت أهميّة التعريف، وأهميّة الانتباه لدى متلقّيين: القارئ الناقد، والقارئ المريض.] ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ... وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ ...﴾ (البقرة61) [غير أنّ أرسطو نفسه يقول، بالحرف، فإنّه إن

(1) أرسطوطاليس: الخطابة (الترجمة العربيّة القديمة)، تح عبد الرحمن بدوي، الكويت، بيروت، وكالة المطبوعات، دار القلم، 1979، ص 133.

كان الضدّ ممكناً أن يكون، فليُظَنّ الضدّ الآخر أيضاً ممكناً، ويعطي مثالاً عن المرض: كما أنّه إن كان يمكن أنْ يصحّ الإنسانُ، فقد يمكن أن يسقم أيضاً[1]. وبالفعل إنّ الشاهد الذي أورده الكاتب قد انقلب على تعريفه، إذ إنّ طلب الثوم هو الذي سبّب الضرر (باءوا=وباء). أ وقد فسّر مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم أنّ «الفوم» هو الثوم. أما يؤكّد تحليلنا للتشبيه التعبيريّ. أ

وفي العصور الوسطى كان الثوم يستخدم للوقاية من الطاعون، أالتعريف لم يأتِ لذاته ولا في ذاته. بل لذاتِ تعريف ضمنيّ آخر هو المرض (الطاعون مرض خطير يُداوى بالثوم، وهكذا...). وقد بدت مسيرة الثوم تعاكسيّة عند الكاتب، إذ صار مرتبطاً وجودهُ بوجود المرض. لكأنّه لولا وجود المرض، لما كان من ضرورة لوجود الثوم، أو لوجوده أصلاً. الثوم ليس بكائن، بل بمتهيّئ لأن يكون من قبل، كما عند أرسطو[2]. وإن كان الذي من أجل هذا يكون قد كان، فهذا أيضاً كائن[3]. الثوم من أجل المرض كان بالنسبة إلى الكاتب، ما يعني أنّ الكائن-الموضوع بات هو المرض! جميلٌ هذا الأسلوب، لكنّهُ لا يخدم الكاتب في انحراف موضوعه عن أساسه. وربّما كانت الفائدة في أمر واحد: الوظيفة الكلاميّة الإخباريّة دقيقة، إذ بُنِيت على

---

(1) الموضع نفسه.

(2) المصدر نفسه، ص 137.

(3) الموضع نفسه.

شواهد. المقدّمة ذات شواهد. من جهة لم يكن من برهنة، غير أنّ لوظيفة الإفهام الكلاميّة وظيفةً إقناعية ضمنيّة: أنتم أيضاً تناولوا الثوم بغضّ النظر عن السبب والتوقيت.] ويرتديه الناس مثل القلائد لطرد الشياطين ومصّاصي الدماء، وفي الحرب العالميّة الأولى كان يستخدم للوقاية من الغرغرينا [ما لبث الكاتب أن جعل الجدليّة بين الصحّة والمرض مختلفة: فالشفاء بالثوم ممكن، ليس لأنّ المرض حاضر، ولكن لأنّ الإنسان يمكن أن يصاب بالمرض (الغرغرينا)، وتيك هي أهميّة «الوقاية» التي تشير إلى الاحتمال، خصوصاً أنّها لم تمرّ على غفلة، لا بل بقصديّة واضحة إذ تكرّرت مرّتين متتاليتين مباشرةً قبل ذكر نوعَي المرض (الطاعون+الغرغرينا): فلو لم يكن يُحتمل أن يمرض الإنسان، لما احتُمل أن يتناول الثوم قبل أن يمرض. إذاً بقي التعريف في حدود الاحتمال، ولم يُشر الكاتب إلى قضيّة نموذجيّة لمَن أُصيب فعلاً بمرض، فثبت من خلاله الشفاء بالثوم. والوقاية هي الحماية، وذلك كلّه من قَبيل «قبْل» الفعل (قبل الاشتراك...).

بالعالم الممكن بدأت تتزعزع مفاهيم الكاتب أمام المتلقّي، ولو لا هذا المسار النقديّ، لما كان لدى القارئ سوى الانقياد للمعلومات. باتت هذه الأخيرة لافتة، لكنّها ممكنة. نريد الثوم بعد العلّة! لنؤكّد فعاليّته.

وقبل استكمال المعلومات، أمكن أن نفهم أنّ للثوم فوائد شتّى

يتدئ أن يكون ليس بكائن ولا متوقّع أن يكون[1]. العالم الممكن مُثبَّت منذ البداية.

من منطلق فان دايك، ثمّة تفصيلاتٌ نوعيّة خصّت العالم الممكن، الذي يتحوّل إلى عوالم ممكنة. أوّلاً يقول فان دايك في المُركّب المكمّل «ب» *(B)* إنّه إذا كان تابعاً لمركّب «أ» *(Dependent on A)*، ولم يكن بالصدفة ظاهراً إلى جانبه *(Not accidentally co-occurring)*، فإنّ على «ب» أن يكون مرتبطاً بـ«أ» في العديد من العوالم الممكنة. بشكلٍ أخصّ، فإنّنا نُلحق كلّ قيمة لـ بيتا *(β)*، في ظلّ تلك العوالم التي حدّدتها ألفا *(α)*، ليس إلّا. زد على ذلك قيداً آخر وهو أنّ الأسباب والتّبعات منظّمة زمنياً بشكلٍ خطّي *(Linearly ordered in time)*. هكذا، إذا كانت ألفا صحيحة في الوضع <ع١، ز١> *(Situation >wi, ti>)*، وبيتا كذلك في الوضع <ع١،ز2> *(wi, tj)*، فإنّ الحقيقة المتعيّنة بيبتا ليس من الممكن أن تكون تِبعةً للحقيقة المتعيّنة بألفا، فيما لو سبق ز2 ز١. الملفوظات السببيّة بالتالي ينبغي أن تُؤوّل في مجرىً من الأحداث *(Courses of events)*، أو مجرىً من الأفعال *(Courses of action)*، تتطوّر في عالم ممكن معيّن[2]. هنا في خاتمة المقدّمة وردت السببيّة (الماذا؟) في عبارة «للوقاية»، وبالفعل أنّ زمن الوقاية ز١ من الطبيعيّ

(1) الموضع نفسه.

(2) Teun A. Van Dijk: Text and Context (Explorations in the semantics and pragmatics of discourse), p.69.

أن يسبق زمن الطاعون ز2. إلّا أنّ الملفوظ اللاحق جعل الزمن نفسه ز1 هو زمن الوقاية، غير أنّه تمّ تغيير ز2 للغرغرينا. من هنا فإنّ ثمّة عنصراً متكرّراً ألفا، وعنصرين مختلفين، لكنّهما يمثّلان بيتا. إلّا أنّ بيتا هذه كانت في عالمين مختلفين، غير أنّهما ممكنان: هما حقيقيّان لأنّ مصطلحَي «العصور الوسطى والحرب العالميّة الثانية» يمثّلان قيمتين صحيحتين تاريخياً إذ لا يمكن لأيٍّ، متعلّماً أو غير متعلّم، أن ينكرهما، وأمّا بخصوص ربط ألفا ببيتا، أي الثوم بطرد الشياطين والطاعون والغرغرينا، فحقيقةٌ ممكنة، إذ هي تبقى على ذمّة الكاتب، وعلى ذمّة المتلقّي الذي عليه أن يعود إلى مصادر أصيلة للتأكّد من الخبر. يضيف فان دايك إلى ذلك أنّه ليس صائباً فقط في العالم الحاليّ أن تكون التبعة (الشفاء) لاحقةً السبب (تناول الثوم)- يعطي مثالاً آخرَ شبيهاً-، وإنّما أيضاً أنّه بالنظر إلى الحقائق المعطاة بما هي عليه، فإنّ هذا الأمر لمّا يكن ليتحقّق بطريقة أخرى *(This could not have been otherwise)*[1].

من هنا فإنّ الشفاء من المرض لم يكن بغير الثوم ممكناً. ما يعني أنّ الشفاء، على الأقلّ في تلك الحالة، كان محتوماً. من جهة أخرى، ثمّة وضعٌ ينشأ حيث ما من تناول للثوم، ومع ذلك لا يكون من مرض، بسبب حقائق أخرى، كمثل جهاز المناعة المتفاوت عند بعض الناس، والذي يمكن أن يدفع الأمراض خارج الجسم. هذا يعني أنّ التبعة *(q)* لا تلحق السبب *(p)* أينما كان في الشجرة *(Tree)*، ولكن على الأقلّ عند

---

(1) Ibid., p.70.

عقدة *(Node)* في شجرة فرعية *(Subtree)* من شجرة الاحتمالات التي أسماها فان دايك الشجرة الدلالية *(Semantic tree)*[1]. بتنا الآن أمام حقيقة ممكنة وضرورية، وهاتان الميزتان ضروريتان لتعريف علمي: ممكنة، لأنّ الثوم شرط ممكن لتجنّب المرض، ما دام تجنّب المرض في <ع١،ز١+٢> (الوسطى+العالمية)، أقلّه في شجيرة، مسبوقاً بتناول الثوم في <ع١،ز١>. ننبّه إلى أنّ ذلك هو ضربٌ من ضروب اللزوم النسبي" *(Relative necessity)*. وتصير علاقة الأصل (الثوم) بالتابع (الشفاء) هي الضرورية، وليست الأصل منفرداً أو التابع منفرداً *(It is the Relation to p which is necessary, not q itself)*[2].

من هنا فإنّ موضوع التعريف، منذ البداية، يتبيّن أنّه ليس الثوم، بل هو علاقته بالشفاء، ولذلك كان لا بأس باختيار العنوان العام "فوائد الثوم"، إذ ينقسم إلى الثوم/ السبب+الفائدة/ النتيجة. في زمننا الحاضر إذاً ينفع هذا التعريف، إذ إنّه بكلّ بساطة ما زال نافعاً. فهو زمن المتراكمات المرضية، الطاعون والغرغرينا والنفسية الشيطانية المتزايدة. وبما أنّنا مع أرسطو توصّلنا إلى عالم ممكن كلّي" الشفاء لجميع الأمراض، كان تناول الثوم، كما يشرح الكاتب، ممكناً على هذا الصعيد، بل أكثر، حتّى من قبل استكمال جسم الموضوع. ربّما هذا التحليل كان ليقنعنا أكثر بغاية الكاتب، لأنّه، من خلال صفّ تعريفه

---

(1) Ibid., p.70-71.

(2) Ibid., p.71.

على هذه الشاكلة التفصيلية والمتدرّجة زمنياً بالتعاقب ز1(طاعون)، ز2 (إسلام)، ز3 (حرب عالمية)... - ضمنياً الزمن المعاصر...-، أقنعنا من قبل أن نكمل. ولعلّ الاقتناع الداخليّ أعظم بأشواط من الإقناع الخارجيّ. من هنا أيضاً في أيّ عالم ممكن، وفي أيّ زمن ممكن، بما أنّ الشفاء بالثوم ممكن، فهو إذاً ضروريّ. يعقّب فان دايك قائلاً: يكون الشرط أساسياً *(A condition is necessary)* متى كانت التبعة *q* في أيّ مكان من الشجرة مسبوقة بـ *p*[1]، وهذا ما لمسناه حين رأينا في كلّ حالة مرضية الشفاءَ مسبوقاً بالثوم، سياقياً أو ضمنياً. لقد تحوّل الثوم من تعريف إلى حدث؛ بفعل ما سمّاه فان دايك «التغيير». فإنّ واحداً من المفاهيم المتورّطة في تحديد مفهوم الحدث *(Event)*، هو التغيير. هذا التغيير يمكن النظر إليه كعلاقة بين العوالم الممكنة أو حالات المسائل *(States of affairs)*. بشكلٍ أخصّ، التغيير يعني اختلافاً *(Difference)* بين العالم-الحالات *(World-States)* أو الأوضاع *(Situations)*، وتالياً يتطلّب تسلسلاً زمنياً للعوالم *(Temporal ordering of worlds)*. لأهدافنا، علينا تقسيم الزمن وحدات *(Units)* في ظلّ المتتالية الخطّيّة للزمن *(Linear sequence of time)*. كلٌّ من هذه الوحدات يتمّ ربطه بطقمٍ من العوالم الممكنة *(Set of possible worlds)*، أو بعالم ممكن حاليّ *(Actual possible world)*، وبطقم من العوالم الممكنة

---

(1) Ibid..

التعاقبيّة البديلة *(Set of alternative possible worlds)*. ثنائيّة العالم -الزمن الممكنة *(Possible world-time pair)* يمكن تمثيلها بأوصاف الحالات، حيث وصف الحالة هو طقم من الجُميلات *(Set of propositions)*. الاختلافات بين الأوضاع يصبح تمثيلها كاختلافات بين أوصاف الحالات. والتغيير يتجلّى في عالم ممكن، أي بين وضعين <ع أ، ز أ+ ١>، *(<wi, t> and <wi, ti+1>)*، متى كانت أوصافهما مختلفة *(Their descriptions are different)*[1]. هذا يمكّننا من فهم كلّ قيمة لعنصرٍ كان يُحتمل تجنّبه في المكمّل. وعظُمت قيمة الثوم عموماً، إذ ارتفعت إلى عين الحدث، وبظلّ التسلسل الزمنيّ التعاقبيّ المتين (فراعنة، إغريقيّون، رومان، إسلام، عصور وسطى، حرب عالميّة ثانية). من خلال هذا التسلسل، نتحوّل إلى تنبيهين اثنين: الأوّل هو ضمنيةٌ استكمال مجموعة السلسلة (عصرنا الحديث)، ما يوصلنا إلى عالمنا الحاليّ، وهو عالم المتكلّم، وعالم القارئ الذي يقرأ ليصل إلى أمراض تعنيه، ويتوقّع ذلك في صلب الموضوع، ما يجعل العالم الحاليّ في صلب الموضوع، في حالة توقّعها، وقبل قراءتها فعليّاً، عالماً ممكناً من خلاله يستمرّ القارئ بالقراءة، حتّى يتعادل العالم الممكن - العالم الحاليّ؛ والثاني هو العودة إلى التسلسل الزمنيّ التاريخيّ، لنرى ما إذا كانت مجموعة الأزمنة المتعاقبة في النصّ = مجموعة الأزمنة المتعاقبة في التاريخ، وبخاصيّة الفراعنة والإغريق والرومان. ثنائيّة

(1) Ibid., p.168.

العالم-الزمن مثّلت بأوصاف الحالات المرضية، ضمن الحدث العامّ للمكمّل (طرد الشياطين، يرتديه الناس =/ المحافظة والتقوية للفراعنة =/ يبنون الأهرام). هذا يدلّ أنّ ضمن مجموعة التعريفات في العوالم المتسلسلة في الزمن، تعريفات متضمَّنة، إذ تَرِد إلينا معلومات، إلى جانب ارتباطها بتعريف الثوم كأساس، في جُميلات يمكن تجزيئها إلى ضمن-عوالم: الفراعنة بنوا الأهرام؛ الإغريق رياضيّون... ومن هنا، أمكن استقراء تعريفات ضمنيّة من مثل «الأهرام، أو الفراعنة، أو الإغريق...». من هنا أيضاً أحالنا الكاتب إلى عوالم ممكنة أخرى للبحث والاستقصاء، في تساؤلات: مَن هم الفراعنة؟ ما هي الأهرام؟ كيف كان يتمّ طرد الشياطين...؟ وهي أسئلة «مَن؟ ماذا؟ كيف؟ لماذا؟».

الكاتب، على أيّ حال، كان في تعريفه تداخُلُ تعريفات: الطاعون، الغرغرينا.. كان ينبغي، علمياً، أن تُلحق بين قوسين، أو في الحاشية. يبدو أنّه متخصّص يتوجّه إلى متخصّص. لاحِظ كيف أنّ مستوى التعبير سهلٌ جدّاً عنده، وهذا ليعطي إحساساً لدى المتلقّي بأنّه سهل الإيصال، إلّا أنّ مستوى المحتوى، وإن ظُنّ سهلاً، فبالحقيقة يحتاج إلى أمرين: التدقيق بصحّة المعلومة غير المحقّقة في الحاشية، وذلك من ضرورات التعريف؛ وشرح عنصرٍ مختصّ للقارئ العاديّ، إذ إنّ افتراض عالمٍ ممكن هو أيضاً افتراض عالم ممكن للمتلقّي المثقّف أو الأدنى ثقافة، المتخصّص والعابر. مهما

يكن من أمر، عرف الكاتب كيف يستخدم «خير هذا وشرّ ذا»، فأتت مقالته متوازنة معدّلة: تعبير / محتوى ؛ إطناب بمعلومات حول الثوم/ إيجاز بإيراد القيمة داخل الملفوظ، وهذا الإيجاز أن يضع الاسمَ بدل الكلمة [الكلام] عند أرسطو[1]. هل هذا الأمر مدعاةٌ تغيير لاتّجاه التعريف، في لغة فان دايك؟ يعلّق هذا الأخير على غْريمز *(Grimes)* حين يعتقد اعتباره بأنّ تغيير المرجع *(Change of referent)* لا يدعو لزوماً إلى تغيير في الاتّجاه *(Change of orientation)*، في حين أنّ هويّة المرجعيّات *(Identity of referents)* يمكنها على أيّ حال أن تترافق وتغييرات في الاتّجاه، المنظور، أو التماسك *(Perspective or coherence)*[2]. التماسك، وإن بدا في فضاء السياق على مستوى التسلسل الزمانيّ، إلّا أنّ ذلك كان فجائيّاً، غير مسوّغ لأنّه غير منطقيّ من حيث ارتباط المرجع بالآخر. هذا يزعزع استقرار التعريف، وإن حاول الكاتب تدعيمه، إذ بات الدعمُ رمياً للمعلومات، ولكنْ الواحدة قبل الأخرى لإيهامنا بالتنظيم، حين يقول فان دايك إنّ الخلايا *(Cells)* ضمن فضاء سياقيّ أكثر تعقيداً *(A more complex context space)* مدعوّة إلى أن تتشارك لُبّاً مرجعيّاً واحداً *(Same referential core)*[3].

صحيح أنّ المرجعيّة واحدة، هي الثوم، ومتعيّنة بضمير الغائب المفرد

---

(1) أرسطوطاليس: الخطابة، ص 200.

(2) Teun A. Van Dijk: Relevance in text and context (Discussion of Joseph E. Grimes' Preprint «Context structure patterns»), Universiteit van Amsterdam, p.422.

(3) Ibid., p.421.

المذكّر ضمن الوظيفة الكلامية المرجعية، غير أنّ هذه المرجعية، في سياق واحد وقصير هو المقدّمة، باتت مرجعيّات، ما دعا إلى إشكالية: فالخلايا عند غريمز تتحدّد بأجزاء من نصٍّ ما(*Segments of a text*) حيث المرجعيات الرئيسة متّسقة(*Major referents are uniform*)[1]. التعريف العامّ الأصل، ضمن هذه التعريفات الجزئية الخاصّة، بات نواةً فيما هذه الأخيرة خلايا. ولكنْ هل هي متجانسة؟ بغضّ النظر عن التسلسل الزمنيّ للمرجعيّات عبر العصور، ما عدنا نعلم، أساساً، ما إذا كنّا أمام خلية واحدة، أو خليتّين، أو أكثر، ضمن الجزء التعريفيّ الواحد، إذ برزت ثنائية، ثمّ تعالقت وكأنّنا في نصٍّ متعالق يجعلنا نقفز من معلومة إلى أخرى بسرعة لكأنّنا أمام نقرة لشبكة عنكبوتية: ثوم/ عصور وسطى، ثوم/ حرب عالمية ثانية، ثوم/ يونان... ثوم/ يونان/ يونانيّون... حين أعطى فان دايك أمثلة بدائية من الحياة حول هذا الموضوع، تساءل، هل من الممكن، على الرغم من هوية المرجع، أن تكون قد بقيَت لدينا حدسياً الخليةُ عينها، بعد استعمال «في العصر...»؟ –فان دايك،هو، استخدم «في اليوم التالي *(The next day)*»[2]– إذا كان، يومٌ واحدٌ فارقاً زمنياً عنده، زاعماً أنّ النقلة الزمنية ليست بهذه البساطة كافية(*Simple shift of time is not sufficient*)[3] لأنّها تلعب دوراً في الجمل المتلاحقة، فمشكلتنا مع

---

(1) Ibid.

(2) Ibid., p.422.

(3) Ibid.

هذا الكاتب أكبر، إذ تغيّرت الأزمنة عصوراً، وبالتالي تغيّرت المفاهيم، وربّما، إذ ذاك، ما يقْنعنا به كتعريفات مدعّمة مؤازرة، يكون قد سقط أصلاً. هذه المشكلة إنْ هي سوى البرنامج النّصّي" *(Script)*، الذي جعله غريمز تمثيلاً لسانياً *(Linguistic representation)*، فيما جعله فان دايك تمثيلاً إدراكياً *(Cognitive representation)* لمتالية أفعال نموذجية مقولبة *(Stereotypical sequence of actions)*[1]. التعريف، لم يكن تدعيمهُ فحسب بالمدعّمات التعريفية الفرعيّة، بل بتحويل التعريف إلى حركة (الرومان، الإغريق، الحرب... الأفعال). هذه الحركة تشدّ المتلقّي، وخصوصاً المرسل إليه. البرامج النصيّة هذه هي تنظيماتُ معرفتنا للعالم *(Organizations of our knowledge of the world)*، وهي ضرورية لفهم الحلقات الطبيعية *(Natural episodes)* وقصصنا الخاصّة بها. فأيٌّ من الأحداث التي تنطلق من البرامج النصّية *(Events departing from the script)* يقدّم فضاءً سياقياً جديداً *(New context space)*[2]. هنا، في نصّنا، بات كلُّ تعريفٍ جزئيّ مرتبطاً بفضائه الزمكانيّ. وبات تداخل السياقات الفرعية هو ما يشكّل الفضاء السياقيّ الحاليّ، أي، بكلام آخر، تأتي قناعتنا، بنظر الكاتب، من تاريخ التعريف، وليس من التعريف عينه. وما علّق عليه فان دايك حول ما ذكره غريمز هنا يفيدنا، من جهة

(1) Ibid.

(2) Ibid., p,422-423.

أخرى، في تقدير الكاتب الذي جعل التعريف، منذ البداية، غير نابع من الحاضر؛ إذ حينها، لا تعود الأحداث الموصوفة في الخطاب هي أحداث البرنامج النصّي *(Events of the script)*، لأنّها تكون حينذاك من أساسها معروفة لجهة المتكلّم والسامع ضمن الثقافة نفسها *(The speaker and the hearer of the same culture)*[1]. في تعريفه إذاً، الكاتب يعمل على تثقيف المتلقّي، وعلى شدّة إلى ما لا يضطرّ إلى التغافل عنه، لأنّه يحياه بالأساس.]

---

(1) Ibid., p.423.

ثالثاً: الداء السكّري [أوصاف الحدث ومجرياته في اصطلاحات التعريف الصيغي، بين المفاهيم الحقيقية والجُميلات الممكنة]

د. يونس قبلان – أستاذ أمراض الغدد والداء السكّري والتغذية كلّيّة الطبّ البشريّ – جامعة دمشق – سوريا.

http://ejabh.m5zn.com/arabic_article_2103.html

إنّ تعبير الداء السكّري يصف اضطراباً استقلابياً متعدّد الأسباب، يتميّز بارتفاع سكّر الدم على الريق فوق 126/ ملغ دل، [يظهر التعريف من خلال كلمة «تعبير +يصف+يتميّز» من جانب أوّل، وكلمة «يؤدّي» من جانب ثانٍ. وفي خاتمة المقدّمة نجد ما يتماسك مع الجدولين، بعبارتَي «أعراضه الوصفية»، و«في أشكاله الحادّة يتظاهر». هناك بالتالي عالمان: عالم حاليّ، وعالم ممكن. الأوّل وصفيّ، والثاني احتماليّ. هذا لناحية مستوى المحتوى. لناحية مستوى التعبير، العالم الحاليّ المتزامن يبرز من خلال أسلوب التأكيد «إنّ+ضمير المنفصل هو+هي»، فيما العالم الممكن يبرز من خلال «قد» التي تفيد التقليل قبل الفعل المضارع. أمّا قناة الربط بين العالم الحاليّ والعالم الممكن، فبالعبارة الآتية: قد لا يكون عرضياً=يمكن أن يكون عرضياً.] مع اضطراب في استقلاب ماءات الكربون، الدسم والبروتين [لقد اتّفق الكاتب مع فان دايك القائل إنّ الأحداث *(Events)*، تماماً كالأشياء والخصائص

والعلاقات *(Objects, Properties, Relations)*، بالإمكان أن تتحدّد وفقاً للتغيير أو لأوصاف الحدث *(Event descriptions)*، ويمكنها أن تتمثّل بأسماء اصطلاحية *(Conventional names)*[1]. لقد حوّل الكاتب الشيء (داء السكّري)، مجموع خصائص الداء (اضطراب، ارتفاع...)، إلى حدث، فعظّم المسألة بذلك، وجعل المتلقّي متنبّهاً أكثر. فقد التزم بالتغيير الزمانيّ <زآزآآ+> (مرحلة آنيّة، مرحلة متقدّمة)، كما بأوصاف الحدث حرفياً من خلال ألفاظ تعرّف بهذا الوصف من الحقل المعجميّ عينه، والاسم الاصطلاحيّ، بالاستناد إلى استكمال هذا التعريف. وبما أنّ الأحداث تُنجز الأشياء أو تؤثّر فيها *(Events accomplish or affect objects)*، فيمكن تمثيلها بالمحمولات ذات المواقع المتناهية *(As n-place predicates)*[2]. في مثلنا هذا، يمكن لنوع الحدث أن يتمثّل بالفعل «يتظاهر»، لأنّه المرحلة الأخيرة للمراحل المتدرّجة، وهو الفعل-المفتاح الذي قد لا يوليه المتلقّي أهميّة، نظراً إلى قيم أهمّ لناحية التبعات الاصطلاحية (الاحمضاض، التناضح...)؟

هذا الاضطراب ينجم عن خلل في إفراز الأنسولين أو عن خلل في عمله أو عن كليهما، وهو مرض مزمن يؤدّي لاضطراب وقصور في وظائف الأجهزة والأعضاء المختلفة في الجسم، وأعراضه

(1) Teun A. Van Dijk: Text and Context (Explorations in the semantics and pragmatics of discourse), p.169.

(2) Ibid.

الوصفية هي البوال والسهاف، اضطراب الرؤيا،نقص الوزن، وفي أشكاله الحادّة قد يتظاهر بالاحمضاض الخلوني السكري أو بسبات فرط التناضح، وقد يكون لا عرضياً. ألا يظننّ أحد أنّ الكاتبَ لم يلتزم بحيثيّات المقالة العلميّة حين أدخلناه في العالم الممكن. فهذا العالم الممكن كان جملة من العوالم الموضوعيّة المستشرَفة، ولكنِ المتخيَّلة لا الخياليّة، بمعنى المتوقَّعة، لجهة الواقع الممكن، وليس الخيال اللاممكن، بخاصيّة باستخدامه روابطَ لا تتعدّى العطف، ليجعل العوالم منبسطة في عالمٍ واحدٍ أكبر. فان دايك يعبّر عن ذلك بقوله: مفاهيم الحقيقة *(Fact concepts)* يمكن أن تتعيّن بمفهوم الجُملة الممكنة *(Possible proposition)*[1].

بكلمة، هذا التعريف يشكّل بنية متماسكة، يمكن تخطيطها بصيغة فان دايك لتأويل الجمل الصيغيّة *(To interpret modal sentences)*: بعلم الدلالة الصيغيّ *(Modal semantics)*، نحتاج الآتي: طقماً من العوالم الممكنة *(Set of Possible worlds W)*، العالم الحاليّ الذي هو عنصر محدَّد من العوالم الممكنة *(A specific element of W, the actual world w0)*، علاقة إتاحة متعيّنة على أساس عدد من العوالم الممكنة *(Relation of accessibility defined over numbers of W, R)*، الفِكَر حول الزمان *(Temporal notions T)*، وزمن الآن *(t0 indicates now)* <ع م، ع ح، عل، ز، زآ> *(<W, w0, R,>)*

(1) Ibid., p.36.

$(<T, t0)$[1]. العوالم الممكنة متعيّنة بالمضارع الاستمراريّ بعد التقليل «قد»، أو في مدلوله بذاته «يؤدّي»، أو في سياق عناصره «في أشكاله الحادّة يتظاهر»؛ العالم الحاليّ، الذي هو أحد عناصر العوالم الممكنة، مصوغٌ بالفعل المضارع الحاضر كحقيقة عامة صالحة لأيّة نقطة من الزمن تُعتبر نقطة انطلاق؛ علاقة التوافر التي عنى بها فان دايك التقابل بين العوالم، متعيّنة من جهة بتطوّر المرض، مقابل حاضره، مقابل مستقبله، ومن جهة ثانية بكلّ حرف تخيير أو عطف «أو/ و» فاصل بين الجمل؛ الزمن واضح كما أسلفنا. وهو متعيّن بالنسبة إلى زمن صفر، هو هنا ليس زمن الحاضر، بقدر ما هو زمن بدء حدوث المرض، وقد يغفله القارئ لولا البحث عن هذا العنصر في الصيغة المتكاملة للعالم الممكن للتعريف (ينجم+مقابلة=كلاهما...).

القارئ العالِم، أو الذي أُتيح له الوقت للبحث عن المعلومة، بإمكانه الغوص في المصطلح العلميّ، فيذوب فيه. ولكنّ القارئ أو السامع الفوريّ، لا يمكن أن نغفر له عدم التنبّه لفعل «التظاهر»، لأنّه، بدونه، يكون لمّا يفقهْ شيئاً، إذ أغفل الفعل، ولم يعرف المعلومات المنطوية تحت المصطلحات العلميّة المتخصّصة. التظاهر أهمّ من سياق المصطلح المختصّ، لأنّ المصطلح نفسه يمكن ألّا يظهر. إذاً الأهميّة هي للتنبّه من عوارض المصطلح في جدليّة ظهوره/ غيابها.

العالم الحاليّ متحوّل، وهذا واقعيّ لجهة مفهوم فان دايك: فعندما

---

(1) Ibid., p.31.

نتفكرّ في عالمنا الحاليّ، فإنّما نحن لا نمتلك مُجرّدَ تصورّ ثابت عن هذا العالم *(Mere static conception of this world)*: الأشياء تسير قُدماً، الأحداث تحصل، الأفعال تُنجز *(Actions are performed)*، وبدلاً من القول إنّ هناك أوضاعاً ممكنة أو حالاتٍ من المسائل *(Instead of possible situations or states of affairs)*، بإمكاننا أيضاً أن نعتبر العوالم الممكنة كمجرى للأحداث *(Possible worlds as courses of events)*[1]. هذا ما أراده الكاتب، ليس زعزعة الحقيقة بتفريعاتها، بل التنبيه لسيرورتها، على أنّ فان دايك لا يغفل، بالتوازي، مسار الزمن، وهو ما أتمّه الكاتب (مزمن، أشكاله الحادّة=زمن متقدّم للمرض). فالعالم الممكن هو أيضاً أيّةُ حالةٍ من المسائل التي ليست القضيّة *(Any state of affairs which is not the case)*، وإنّما تلك التي أمكنَ أن تكون القضيّة *(Which might have been the case)*[2].

الأفعال المرضيّة المتزامنة للمرض هي ما يمثّله الجدول الأوّل، وهو دور العالم الحاليّ. غير أنّ التظاهر، والاستباق الزمنيّ، والإمكانيّة التعبيريّة، كلّها تمثّل حقائقَ مختلفة عن الحاضر، إلّا أنّها ليست بعيدة من احتمال حدوثها، إذ ليست خياليّة بمعنى أنّها تستخدم قيماً من عالمٍ وهميّ. هذا ما عبرّ عنه فان دايك بخصوص الإمكان حين قال

---

(1) Ibid., p.30.

(2) Ibid., p.29.

إنّه بإمكاننا أن نتخيّل وضعاً حيث الحقائق تكون مختلفة عن الحقائق الواقعية والحالية *(Real or actual facts)*، ولكنْ تكون منسجمة مع مسلَّماتِ العالم الحاليّ، قوانينه ومبادئه *(Compatible with the postulates، laws، principles of the actual world)*[1].»

(1) Ibid.

رابعاً: وهكذا يلتهب البلعوم /من احتمالات التعريف إلى مؤكّداته الزمانيّة، ومن تنوّع الاستفهامات والمماثلات العمليّة والعوالم التجريبيّة الممكنة إلى خصائص التعريف وإنتاجه/

د.عبدالمطلب بن أحمد السح
استشاريّ طبّ الأطفال وحديثي الولادة في مستشفى الحمادي
عضو الجمعيّة الوراثيّة الأمريكيّة والجمعيّة الأوروبيّة للوراثة البشريّة.
عضو الجمعيّة العالميّة لأبحاث الضعف البصريّ.
http://www.arabjomed.com/index.php?option=com_content&view=article&id=65:2010-06-01-02-13-39&catid=55:medical-news-jordan&Itemid=68

ربّما كانت عبارة التهاب البلعوم أو مرادفاتها /العبارة+ المرادف= تعريف مبدئيّ ناجح/ من أكثر المفردات تداولاً بين الناس، ويمكن القول إنّه لا يوجد أحد لم يتعرّض لذلك في حياته مرّة أو مرّات. قد يكون الأمر إفراديّاً، ولكن عادة ما تصادفه وقد ألمّ بكلّ أفراد العائلة، أو ربّما تجاوز ذلك ليكتسح الحيّ وأكثر. /يفشل التعريف المبدئيّ بالممكن فيما بعد (من أكثر+يمكن القول+أو مرّات+عادةً+ قد يكون إفراديّاً+وأكثر =احتمال الأهميّة+احتمال التعريف+زمن ممكن+ احتمال الحدوث+احتمال عدديّ+مكان ممكن)/ «التهاب البلعوم» هو ذلك المرض الذي يحرم الإنسان وبخاصّة الأطفال لذّة

الطعام والشراب بل وقد يحرمهم لذّة النوم أيضاً، وقد صدق من شبّهه بكائن يحرك أرجله وأذرعه الخشنة داخل الحلق جيئة وذهاباً مؤلماً إيّاه مع كلّ محاولة لابتلاع أيّ شيء حتّى الهواء. [انتقل التعريف إلى برهان بالمماثلة، حيث الوظيفة الجمالية للتشبيه هي وظيفة إفهامية وإقناعية في آن. إفهاميّة لأنّها تمثيلية تبسيطيّة، وإقناعيّة لأنّ الهدف من الإفهام هو تصوير قساوة المرض، وتالياً هو إقناعنا البراغماتيّ بالتخوّف، أي بالوقاية والتنبة.] أمّا الأطفال فملاذهم البكاء حين يشتدّ الخطب. [سوف نعتبر أنّ مقدّمة هذا النصّ تنتهي عند حدّ البدء بالأسئلة المتسلسلة، التي كلٌّ منها شكّل عنواناً لفقرة (ماهي الجراثيم والفيروسات التي تحدثه ؟- لماذا يكثر هذا الالتهاب عند الأطفال ؟ - ماهي أعراضه ؟ وماذا عن مضاعفاته ؟ - خلال بعض المواسم تزداد حالات التهاب البلعوم لدى الأطفال، فهل من تفسير علميّ لذلك ؟ - وكيف تتمّ المعالجة ؟ - هل من نصائح ؟).]

إنّ التهاب البلعوم على الرغم من بساطة علاجه وسهولته- والحمد لله - [إدخال «الله» في موقعٍ أوّل، ساعد على التأكّد من تسهيل صعوبة المرض، خصوصاً بعد اعتراف الكاتب ببساطته وسهولته علاجياً-أي بساطة المرض وسهولته في حدّ ذاته-، وهو نفسه قد صوّره منذ لحظات على أنّه إخافة! إذاً شرعَ الكاتب يضرب تعريفه بتعريفه المتقدّم.] إلّا أنّ في إهماله قد تحدث - لا قدّر الله - مشاكل كثيرة، [إنّ إدخال الله في موقعٍ ثانٍ هو من باب إدخال الرضا

الإلهيّ أو العجائب الإلهية، ولذلك هذا وإن كان يتّخذ بعداً إيمانياً، إلّا أنّه يضرب التعريف من أساسه، ويجعل الصلاة عند المتلقّي أهمّ من العلاج. طبعاً إنّ الإيمان بالصلاة هو أهمّ من الدواء الأرضيّ، ولكنّه يكسر غاية الكاتب من موضوع كلامه، وها هو بذلك لا يكتفي بكسر تعريف بتعريف، لا بل يكسر ذاته بذاته، ويُبعد المتلقّي عمّا كان ينوي جذْبَه به.[ولذلك لا نظلمه إن كشفنا أسراره، فما هـــو شاغل الناس هذا؟ [نحن هنا لسنا بصدد دراسة محتوى الفقرات المُجيبة، ولا التعمّق بمستوى المحتوى للسؤال، ولكن التمهيد الذي شكّله السؤال الأوّل الأكثر عموميةً، وهو حول الماهية، وضمن المقدّمة (فما هو شاغل الناس هذا؟). هذا السؤال طبيعيّ، والفقرة التي ألحقناها أدناه كان يمكن أن تكون ضمن صلب الموضوع، ولكنْ بما أنّ كلّ فقرة استهُلّت بسؤال، فلو جرى ذلك لكانت الإجابة التعميمية ضمن صلب الموضوع، أي ضمن أسئلة متخصّصة تفصيلية، ما كان سيكسر طبيعة التفصيل في جسم الموضوع. لذلك أتت الإجابة التعريفية في المقدّمة، وألهمت مراحلَ متقدّمة من الأسئلة التعريفية، ولكن التخصّصية فيما بعد.[

هو التهاب في الحلق يحدث بسبب فيروس أو بسبب جرثوم أو بسياق مرض جهازيّ أو بأسباب أخرى، ويعتبر الأطفال الشريحة الأكثر تعرّضاً للإصابة به، وكثيراً ما يؤدّي لحدوث مضاعفات لديهم. هو غير شائع دون السنة من العمر، وأكثر حـالاته بأعمار (4-7)

سنوات، وبالطبع [هنا بدأ الكاتب يعوّض عن احتمالات التعريف بمؤكّداته الزمانيّة=دون السنة+أكثر +تحديد العمر +بالطبع +كلّ +باقي] يستمرّ حدوثه خلال كلّ سنوات الطفولة وبقية مراحل العمر. [المهمّ أنّ التعريف أتى بعد سؤال. السؤال يحمل تعريفاً يشدّ إليه، يحضّر لمضمونه، ويجعل المتلقّي مشاركاً لعالم الكاتب؛ بكلام آخر، يضع السؤالُ المتلقّي أمام تجربته، من دون وعيه، أو قُل في لاوعيه. قبل قراءة الإجابة العلميّة، يكون القارئ قد استبق ولو للحظاتٍ تجاربَه أو معرفته بهذا الشأن. فتكون قراءة التعريف توازياً بين المكتوب النصّيّ (العالم الحاليّ عند الكاتب)، والوعي الذهنيّ (العالم الممكن عند المتلقّي). وبعد مسار القراءة يتحصّل الآتي بالتدرّج: إمّا يلتقي العالم الحاليّ بالعالم الممكن، فيصير العالم الممكن حالياً ويتّفقان؛ وإمّا ينزاح العالم الممكن عن العالم الحاليّ، فتُطرح تساؤلات أخرى، بلا سؤال داخل النصّ، وحينئذٍ يعتبر المتلقّي أنّ عالم الكاتب هو الممكن لأنّه لا يؤيّده.

لذلك نتو إلى الأسئلة، كي يُشعِر الكاتبُ القارئَ أنّه مسيطر على وضع المعلومة، وأنّ ما يشكّ فيه، للتوّ يُنسيه إيّاه، في عصفٍ ذهنيّ للمتواليات التساؤليّة، حيث يُغرقه في تساؤلات جديدة، ليفْقده تركيزه على السؤال الأصيل الذي ابتدأ منه، في كلّ مرّة يُعتبر السؤال بداية بالنسبة إلى ما يليه.

لكنّ فان دايك يخفّف من حدّة وصف هكذا عمل باللاتنظيم،

إذ عنده أنّنا أيضاً نُحيل إلى الأشياء والأحداث في عوالم ممكنة أخرى *(We also refer to objects and events in other possible worlds)*، كالمرتجاة *(Wished)* (هل من نصائح=همّ العلاج)، المستقبلية *(Future)* (كيف تمّ معالجته)، كما نرى في الاستفهامات *(Questions)*[1].

حتّى الآن، لم نعالج أيّاً من المحتوى الاستفهاميّ، ولا الردود. إلّا أنّ ما همّنا هو التوالي التساؤليّ، والتوالي التفصيليّ بعد سؤال تعميميّ في المقدّمة تمهيداً لتعريف التهاب البلعوم (هو...).

التغيير في السؤال *(The change in question)* بإمكانه أن يؤثّر في خصائص متنوّعة لعوالم ممكنة *(Various properties of possible worlds)*، كتولّد أو اختفاء عنصرٍ منفرد خاصّ *(The coming into existence or disappearance of a particular individual object)*، اكتساب أو اختفاء خاصّيّة لعنصر ما *(Acquisition or disappearance of some property of an object)*، أو إنشاء أو تدمير ثمّة علاقة بين العناصر *(Establishment or destruction of some relation between objects)*[2]. من هنا، كلماتٌ أساسيّة في التعريف العامّ كان عليها أن تدخل، حين التفصيل، شذرات في هذا

(1) Teun A. Van Dijk: Relevance in text and context (Discussion of Joseph E. Grimes' Preprint «Context structure patterns»), p.419.

(2) Teun A. Van Dijk: Text and Context (Explorations in the semantics and pragmatics of discourse), p.169..

العنوان ومايليه، وهكذا. لم نعد نسمع في أيّ عنوان بالجهاز والسياق والجرثومة... لذلك نظنّ أنّ المتلقّي قد حوّل العالم الحاليّ للباحث إلى عالم ممكن. وهذا مايتواءم مع مرافقه التغيير في السؤال لما أسماه فان دايك بالعوالم الممكنة.

على أيّ حال، نحن علمنا منذ إشارات المقدّمة، أنّ القارئ سيشارك في التساؤلات، وسيوجّه عالم النصّ إلى عالمه الممكن؛ وهذا ما استدركه الكاتب حين طرح سؤالاً بعد اعتقادنا بإنهاء سلسلة التساؤلات مع «المعالجة»، فيطلب «النصائح»، وكأنّ هذا السؤال، مجرّداً من الإحالة إلى الشخص الذي عليه تولّي النصيحة، يمكن أن يكون المشاركَ في القراءة. فهل الكاتب يدلي بنصائحه؟ أو يطلب نصائح ممكنة؟ في الحالين، لا يُختم الموضوع، ويتأكّد العالم الممكن. ثمّ عندما تسمع، ضمن السؤال الواحد، اتّجاهين كالأعراض والمضاعفات، فإنّما تكون الإجابة، بلا شكّ، لمصلحة أحد المسارين، ويكون التغيير في المحتوى تابعاً لطبيعة التساؤل المتفرّع. وعلى القارئ أن يستمرّ في القراءة ليرى العلاقة، داخل الإجابة، بين التفريعين. ولكنْ بالطبع، لن يقع في سوى شِباك بناء العلاقة بينهما، أو تدميرها، أقلّه على مستوى البنية السطحية.

خامساً: اضطرابات التصبّغ أمن التعريف المرافق والكلمات- المفاتيح المجهولة المصدر أو المنصهرة إنتاجاً للتعريف، إلى العوامل الإدراكية للتأويل التعريفيّ الأمثل أ

د. سعيد قبلان-د. باسل غويش
كلّيّة الطبّ - جامعة دمشق

http://www.ktaby.com/book-onebook-3712.html

يتأثّر تصبّغ الجلد أعنوان النصّ «اضطرابات التصبّغ». مايعني أنّ على المقدّمة أن تعكس ذلك- أو كان على المقدّمة أن تعكس ذلك. نقول «كان على...»، إذ إنّ العنوان الأكبر، الذي كان عليه أن يبُرز تعريفاً ما، لم يكن دقيقاً لا في التعريف، ولا في طيّات المقدّمة.

أوّلاً، لم يضع الكاتب في عنوانه مايساعد على إفهام المقصد من قضيته، فأثار لدى المتلقّي سؤالاً (أيّ تصبّغ هذا؟ تصبّغ ماذا؟)، من هنا كان ينقص التعريفَ نعتٌ أو مضاف إليه. النعت أو المضاف إليه يزيدان من دقّة التعريف وتوضيح مساره. ثانياً، في المقدّمة، طبعاً ثمّة كلمات أساسية تتعلّق مباشرةً بموضوع الكلام منها: تصبّغ، الجلد، الجلديّ؛ وتالياً هي متعلّقة مباشرةً بالتعريف-العنوان؛ وتالياً أيضاً، كان عليها أن تدخل ضمن هذا العنوان-التعريف، وفعلاً أنّ الركن الأساس الذي كان عليه أن يؤازر العنوان ليعكس القضيّة المطروحة في المقدّمة

هو «الجلد»، وهو إمّا مضاف إليه في مقدّمة المقدّمة (تصبّغ الجلد)، وإمّا نعت في خاتمتها (التصبّغ الجلديّ).[الطبيعيّ بكمّيّة الميلانين وبدرجة التوعية وبوجود الكاروتين وبسماكة الطبقة المتقرنة.]ثالثاً، إذا كنّا نرى في العنوان كلمة–مفتاحاً (اضطرابات)، فإنّنا لم نعثر عليها في المقدّمة، ولكنّنا عثرنا على كلمات–مفاتيح مثل «ميلانين...»، وهي جميعاً مصطلحات علمية كان يمكن توفيرها لمرحلة جسم الموضوع، والاكتفاء بتعريف مبسّط في المرحلة الأولى التمهيدية، وإلّا لَما كانت نافعة، ما دامت غير مفهومة لدى المتلقّي – أيّ متلقٍّ – أي مجهولة، وبالتالي تمثّل «x» في علم الجبر، إذاً هي مجهولٌ «*inconnu*»، ينبغي البحث عنها في مراجع مختصّة، أو في جسم الموضوع – اللهمّ إذا كان متماسكاً مع المقدّمة – وهذا ما يجب أن يكون عليه.[

تتأثّر كمّيّة الميلانين المنتجة بالعوامل الوراثيّة، وكمّيّة الأشعة فوق البنفسجيّة المتلقّاة وطول موجتها، وكمّيّة الـMSH المفرز وتأثير الكيماويّات المحرّضة للخلايا الميلانيّة مثل الفوروكومارينات. سوف نتحدّث عن بعض حالات فرط التصبّغ الجلديّ.]ماذا نستنتج؟ أنّ العنوان فاقدٌ ركناً من المقدّمة، وأنّ المقدّمة فاقدة ركناً من العنوان. غير أنّه يمكن اللعب على التناصّ بين العنوان والمقدّمة، وهو تناصٌّ غريب لأنّه ضمن النصّ نفسه، إلّا أنّه يولّد تعريفاً مرافقاً، هو تعريف «الاضطرابات»؛ فما دامت هذه اللفظة لم تُذكر في المقدّمة، كان علينا التأكّد ممّا يوازيها: سوف نتحدّث عن بعض

حـالات فرط التصبّغ الجلديّ=حديثنا عـن العنوان «اضطرابـات التصبّغ»... التصبّغ×= التصبّغ الجلديّ... الاضطرابات=حالات فـرط... وبعد، نلجأ، لفهم المصطلحات المختصّة، إلى النصّ المتعالق، أي إلى العناوين الفرعيّة–التي نظنّ أنّها تأخذ في كلّ مرّة عنواناً مجهولاً–لدى القارئ–لتجعله محلولاً– وهكذا ينبغي أن يكون. نطلب من المتلقّي أن يطلع على ذلك.

يزعم فان دايك أنّه عـلى الرغم من أنّ على القارئ، بالمبدأ، أن يتتبّع بما لا ريب فيه المعنى/المعاني الـواضحـة المقصودة للنصّ *(The obviously intended meaning(s) of the text)*، والإشارات ذات الصلة المعبّرة عن تشكّله ذي الصلة القائم عليها *The relevance signals expressing underlying relevance) (configuration*– أي متى النصّ نفسه، كما في عناوينه... يدلي بموضوعه الخاصّ به *(Mentions its own theme)*، إلّا أنّه يبقى العديد من العوامل الإدراكيّة *(Cognitive factors)* التي سوف تتقاطع تفاعليّاً مع التأويل الأمثل *(Ideal interpretation)*، كمثل: معرفة العالم كالحقائق التاريخيّة *Knowledge of the world،historical) (facts*، معرفة السياق كالمتكلّم والغرض من التفاعـل *Knowledge) (of the context, speaker, purpose of interaction*، الهدف والفائدة من سيرورة الاستماع/ القراءة *Goal, interests of the hearing) (reading process*، والآراء بما فيهـا من مـواقف ومعايير وقيـم

(Opinions، attitudes، norms، values)[1]. إنّ كلام فان دايك هذا، يخفّف من حدّة حُكمنا على الكاتب؛ إذ لا يجعل التعريف-القضية مرتبطاً بالعنوان/ العناوين. فمن ناحية معرفة العالم، حاول الكاتب أن يعطينا، على قصر هذه المقدّمة، معرفة «موسوعية» بمعنى الشمول حول الموضوع. ولئن كان على المتلقّي أن يستكمل في صلب العناوين الفرعيّة، أو أن يبحث عن المعلومة واحدة تلو الأخرى، إلّا أنّه لا يمكن إنكار أنّ هذا المتلقّي لم يكن ليبحث من اللاشيء، وهذا اللا-لاشيء، كوّنه الكاتب. معرفة السياق بارزة من خلال فهم اختصاص المتكلّم من دون العودة إلى البحث عن اختصاصه، إذ إنّ الكلمات-المفاتيح، بتركّزها في الخطاب العلميّ-الطبّيّ-الجلديّ، تعكس اختصاصه، بدون أن نُغفل أنّ الغاية من التواصل تتركّز في «الاضطراب»، كما أنّ الهدف من سيرورة القراءة هو السيرورة نفسها، بما أنّ المتلقّي مُجبر على استكمال العناوين الفرعيّة الصادرة من هذه الكلمات-المفاتيح التي تحتاج التفصيل، ويتوقّع المتلقّي أن يستكملها الكاتب. الآراء مرتبطة عنده بمعيار معروف من تكراره: هي «الاضطرابات/ الفرط»، وهو «الميلانين» المتكرّر ثلاث مرّات والذي لا يمكن الانحراف عنه في هذه القضية. والقيمة متعيّنة بالتعريف من خلال لفظة «كميّة» المتكرّرة أربع مرّات، وقد عادلّها «درجة، وجود...».[

---

(1) Teun A. Van Dijk: Relevance in text and context (Discussion of Joseph E. Grimes' Preprint «Context structure patterns»), p.429.

خلاصة

نستخلص بالملاحظة أنّ مقدّمة الخطاب الطبّيّ أثرْناها لنُثبت أنّ هؤلاء الكتّاب لا يدركون طرح إشكاليّة التعريف، أو أنّهم يطرحونها بأسلوبٍ يطرح إشكاليّة، بدلاً من أن يطرحوها محتوىً ذا إشكاليّة. وهذا، إن كان سليماً من باب أساليب التعريف، إلّا أنّ الوضع يتغيّر داخل الخطاب. فالتعريف الصائب يمكن أن تَثبت صوابيّته في الموقع الذي ورد فيه، وليس في السياق. هنا أفرّق بين الموقع والسياق: الموقع اجتزائيّ. السياق تكامليّ.

وإنّ تهرّب المواقع الألكترونيّة من الكشف عن هويّة الكاتب، والإبقاء على هويّة الموقع، أو حتّى إيراد النصّ عينه في مواقع متكرّرة، جميع ذلك يجعل النصّ غير ثابت. من هنا، تحليل الخطاب هو المسؤول عن إبراز الصواب، أو التصويب، ومنذ المقدّمة، ما يدعونا، ليس إلى دراسة تعريفٍ فحسب، بل إلى إلغائه ما دام يمكن استبداله، لا بل إلى إسقاط نصٍّ تعريفيٍّ بأكمله.

ونشير إلى أنّ الشكّ ليس بالموقع، ولا بالنصّ، ولا بالمحتوى وحده، ولا بالشكل وحده- لأنّ الباحث الطبّيّ ليست من مسؤوليّاته

صوابيّةُ المستويات اللغويّة. غير أنّ المحتوى، حتّى بالأمانة العلميّة، قد يكون غير صائب، ونحن لا نكاد نجد حواشيَ، أو إحالاتٍ، أي، بكلمة، مصادر مرجعيّة. كما أنّ عرض الخطاب قد يكون غير صائب، في تدرّجه الموقعيّ أو الزمانيّ. هذا العرض، تُدرَك أهمّيّته متى تَحوّل شفاههً، فالعرض الشفاهيّ، حين يكون مكتوباً، فإنّه بأسس الخطاب الناجح يكون.

الفصل الثاني

منطق التعريف في خواتيم الخطاب
الأونطولوجيّ بين حزن الملفوظ وسعادته

تمهيد

في مقدّمات المقالات العلميّة، أصحابُها هم من يطرحون القضية، ولكنّهم لا يقصدون التشويش الذي ينتاب ذاك الخطاب، إلّا لأنّهم ليسوا بطبيعتهم أدباء، وأحياناً «هم لا يدرون ماذا يكتبون!» بمعنى الكيفيّة وليس المحتوى؛ فالمحتوى يصل بالشكل الخطأ إلينا كمُتلقّين، لأنّ توصيله كان عن طريق الخطأ. أما خواتيم المقالات الأونطولوجية- نعتبر أنّ هذه التسمية تخلّص المرسِل من مصطلح «السياسيّة»، وتخفّف من حدّة الشحن الاصطفافيّ بمجرَّد استبدال هذه اللفظة بتلك- فعن قصدٍ تجيء مغالطاتُها لأنّ كتّابها يشوّهون ويشوّشون بسبب أو بحسب معتقداتهم وأيديولوجيّاتهم وانتماءاتهم. في الحالين كلتيهما، مغالطات. والمغالطات تتسرّب من المقدّمة إلى جسم الموضوع، كما من وريد العنق إلى جسم الكائن، وصولاً إلى أخمص القدمين/ خاتمة النص. هذا يعني أنّ جسم الكائن على صورة جسم الموضوع، لأنّ القدمين تحتويان، كما الدماغ، على مفاصل، هنا مرئيّة وهناك غير مرئيّة.

ما أهمّيّة العنوان بعد ذلك، ما دُمنا ننسب الخاتمةَ إلى عنوان النصّ الذي تُحال إليه، مع أنّنا لا نأبه به كهويّة؟ العنوان نوع من سدّ الفراغ قبل الاستنتاج الختاميّ: حينذاك، قد يُعدَّل العنوان، ولكنْ بما أنّه مشروع الكاتب، فربّما اكتفينا بانتقادِ وضعه ووضعيّته.

ولا نميّز ساعتئذٍ بين علميّ وأونطولوجيّ، لأنّهما يشتركان في المغالطات، ويكفي إيرادُ ذلك من وجهة نظر النقد الجديد بعد حين، مع التمثيل بشواهد، فلا يعود انتماءُ النصّ-المقالة إلى تخصيص بل إلى مغالطات.

في هذا المجال، كانت النصوص اختياريّة، إذاً فالتحليلات غير إلصاقيّة وغير إسقاطيّة. وإذا تَبيّن للقارئ أنّ الحقبة الزمنيّة لنصوص المدوَّنة منضبطة، فذلك لم يكن مقصوداً من لَدُننا، لا بل إنّ التماسك الاختياريّ، حين جاورَ التماسك الزمنيّ، بلغَ بنا إلى تماسكٍ مُثبَتٍ أكثرَ ثباتاً.

وإنّ نظرية التماسك الختاميّ التي شرّعنا أبوابها، هي التي كفلَت تحديد قسم الخاتمة من الجسم، لتماسكِ أساليب محتواها بما يناسبها من أفعال الكلام. ونظراً إلى انسجام هذا التماسك مع التماسك الزمنيّ، أمكنَنا إطلاق ما يمكن تسميتُه «بينَصِّيَّة التماسك».

أهمُّ مقاصدنا في هذا الجزء من الدراسة هو قصديّةُ التعريف، لأنّ قصديّة التعريف ≠ التعريف.

فللملفوظة التضمينيّة أو التداوليّة دلالاتٌ ثانية وثالثة، في حين أنّ الحاسوب يهتمّ بإنتاج البدائيّ من الملفوظة، أو أقلّه، بإنتاج التعريف الأحاديّ. الحاسوب لا يعرّف النيّات. قد يصل إلى قرائن سياقيّة ويحلّل من خلالها. ولكن ما من قرائن على الدوام. وساعتئذٍ يمكن لهذه الدراسة أن تبدأ بعمل الحَوسبة، ولكنّها لا يمكن أن تنتهي به، لأنّ المرحلة الأولى رقميّة، فيما الثانية إنسانيّة.

في الواقع، جيّدٌ أن يرصدَ الحاسوبُ ملفوظةَ التعريف، في مهمّةٍ تسهيليّة للعمل البشريّ، ولكن أيكون قد نقل التعريفَ أم مغالطة التعريف؟ بدون الإنسانِ، التحليلِ الإنسانيّ، والموقف، لا يمكن تسييرُ تحليل الخطاب.

زد على ذلك أنّ التعريف الواحد أحياناً قد يحتمل تعريفين أو أكثر، بالنظر إلى نيّة المنظور. الحاسوب لا يلتقط ذلك جميعَه. الحاسوب يرصد ليس إلّا. والمخبوء هو أوسعُ ما ينبغي تحليلُه في خطابٍ أونطولوجيّ (سياسيّ-اجتماعيّ...) .

ويصبح أكثرَ تعذُّراً على الحاسوب انتشالُ نيّات التعريف، متى فهمنا، من قلب جون سيرل ما مفادُه أنّ ذلك يستلزم تحليلَ فلسفة المجتمع، وليس فحسب فلسفة العلوم الاجتماعيّة. إنّ الحاسوب، باستناده إلى مصطلحات اجتماعيّة أو سياسيّة، قد يكون قادراً على تحليل فلسفةٍ اجتماعيّة أو سياسيّة ما، ولكنْ أن يكون قادراً على تحليل

المجتمع فذلك مُحال لأنّ محلِّل المجتمع يجب أن يكون واحداً من أفراده، واحداً ممّن يُعنَون بأونطولوجيا الإنسان في مفهوم سيرل، ولا يقتصر ذلك أن يكون واحداً عالماً بمصطلحاته. ثمّ إنّ الحاسوبَ المتمسّكَ بمصطلحاتٍ والمنطلِقَ من خلالها، قد لا يمكنه تصوُّرُ تحاليلَ لمشكلاتٍ مجتمعيّة جديدة خارجاً على الصعيد اللغويّ، أي على الصعيد الفكريّ/ الروحيّ. فبحسب سيرل إنّ ما هو رائعٌ في الفلسفة، هو أنّنا لسنا مُجبَرين على إعادة المشكلات التي عالجَتها فلسفاتُ الماضي، إذ بمقدورنا اختراعُ الجديد منها. على سبيل المثال[...] لدينا فلسفةٌ سياسيّة وفلسفةٌ للعلوم الاجتماعيّة (Nous avons une philosophie politique et une philosophie des sciences sociales)، أقلّه بحسب التقسيمات الأكاديميّة [...] إلّا أنّ ذلك لا يشكّل فلسفةً للمجتمع (Une philosophie de la société) بالمعنى الذي نلقى فيه فلسفةً للّغة أو فلسفة للفكر (Une philosophie du langage ou une philosophie de l'esprit). السؤالُ الأساس بخصوص فلسفة المجتمع هو اونطولوجيا الواقع الاجتماعيّ (Ontologie de la réalité sociale)[1].

الحاسوب، وكي لا ننتقص من قدرته الاستيعابيّة، أو من قدرة المبرمِجين المتفوّقين في مجال البرمجيّات البعيدة الأفق، قد يتمكّن

---

(1) John Searle: Langage, conscience, rationalité (Une philosophie naturelle), Entretien avec John Searle, p.9.

من تحليل الخطاب؛ ولكنْ، بالفعل، ما عليه أن يحلّله في هذا المجال، هو تحليل الخطاب وليس الخطاب. وهنا نصل إلى نظريّة أخرى هي تعريفنا للخطاب: الخطاب=تحليل الخطاب. ما يعني أنّ الخطاب ينتفي في ظلّ تحليل الخطاب، والخطاب-في-ذاته لا يعني شيئاً.

لذلك، في طيّات التعريف المتماثل أمامنا في كلّ مرّة، هناك تعريفٌ رديفٌ من تعريفات أفعال الكلام، لذلك اقتضى إيراده. ثمّة من نظريّات أفعال الكلام تعريفاتٌ تُفهمنا ماهيّةَ تعريف الكاتب في خطابه، أكثرَ من نصّ تعريف الكاتب بذاته.

النظريّة المتبقّية هي أنّ السياق المتركّز أونطولوجيّاً يمكن استقاؤه من الخاتمة فحسب، مع عدم الندم على إسقاط كلّ ما سبق من جسم المقال؛ لأنّ النصّ الاونطولوجيّ=خاتمته؛ فالخاتمة، عموماً، هي أفقٌ مفتوح، تساؤلٌ، ميلٌ صوب رأي، أو تركُ الرأي معلّقاً بين قطبين أو أكثر. والنصّ الاونطولوجيّ، خصوصاً، هو من القماش عينه، فكاتبُه لا يجزم، أو حتّى أنّه لا يطرح قضيّة ليحلّها بل ليعلّق عليها. وفي هذا التعليق، قد يكتب صفحاتٍ وصفحات، إلّا أنّها لا تكون طرحاً مغايراً، بل وصفاً لوجهة نظره حول هذا الطرح: شواهد مختلفة، حجج متنوّعة... ولكنّ هذا الاختلاف ليس سوى قناةٍ تصبّ في غاية الطرح-النيّة، وهذا التنوّع ليس سوى أحاديّةٍ لنيّةٍ غائيّة منذ لحظةِ طرح العنوان.

ومن المشقّات التي تحمّلناها لتثبيت هذه الوقائع المجدِّدة أنّ نظريّات كلٍّ من فيلسوفَي الكلام أوستن وسيرل هي مختلفة بين الواحد

والآخر إلى حدٍّ بعيدٍ، من حيث طبيعتها. ولقد استطعنا، مع ذلك، أن نربط بينهما. هذه الصعوبة النظريّة، على صعوبتها، تخطّيناها إلى صعوبةٍ أكثرَ صعوبةً: ربط هذين في سياقٍ تحليليّ تطبيقيّ، حيث بات إيرادُ نظريّاتٍ وكأنّها ليست نظريّات، بل جزء من النصّ بذاته.

أوّلاً: أوروبا تخيف البولونيّين [قوّة الأفعال المؤسّساتيّة بين العرض والإنجاز والمرجعيّات]

Bruno Drweski (برونو دروِسكي) – أستاذ محاضر في المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقيّة، باريس
العالم الديبلوماسيّ، باريس، كانون الثاني/ يناير 2001
(http://www.mondiploar.com)

[...] ثمّ انّ الكثير من الشركات البولونيّة تبقى صامدة بفضل عمليّات التبادل على الحدود مع الاتّحاد السوفياتيّ السابق. فالبضائع التي يبيعها بعض التجّار من مجموعة الدول المستقلّة كلّها تساعد في التزوّد بالمؤن بأسعار مناسبة. وبدون العشرة ملايين مواطن من الدول المستقلّة، الذين يعبرون الحدود البولونيّة سنويّاً فإنّ عدداً من الحوانيت سيصاب حكماً بالإفلاس. وفي حال طبّق قانون تأشيرة الدخول فهذا يعني زوال اقتصاد البقاء في جهتي الحدود. [يحكي سيرل (*Searle*) عمّا أسماه الأفعال المؤسّساتيّة(*Faits institutionnels*)، وهو لاينكر كونها أفعالاً، إلاّ أنّه يضيف إلى وجودها، على عكس الأفعال الخام (*faits bruts*)، وجودَ بعض المؤسّسات البشريّة (*Institutions humaines*). وهو إذ يعطي، من ضمن الأمثلة على ذلك، المحاكمة أو الفعل التشريعيّ (*Procès ou acte legislatif*)، داعياً إلى عدم وصف

هكذا أحداث لتمييزها، بوصفها كذا أو كذا ليس إلاّ، بل إلى شروط أخرى تتحقّق داخلَ بعض أنماطِ من المؤسّسات[1]، نجد في نصّنا كلمة «شركات»، و«اتّحاد سوفياتيّ»، على أنّ الأولى دليل المؤسّسة بعامّة، والثانية دليل المؤسّسة البشريّة (اتّحاد= إنسان+إنسان+...) إذا ما أخذنا بعين الاعتبار فصل الكلمتين «اتّحاد+سوفياتيّ» ليس بوصفهما يكوّنان معاً مفهوماً دوليّاً. كما أنّ «التبادل» يجعل العلاقة البشريّة سارية، ويحتاج التشريع لوضع اتّفاقات يوافق عليها كلا الطرفين. وهل بقي الوصف في إطار خارجيّ جاهز؟ كلاّ؛ فقد وُضّحت هذه الأفعال التبادليّة (يبيع) بمفاتيح مؤسّساتيّة (مجموعة) إنسانيّة (التجّار+عشرة ملايين مواطن)، وقانونيّة (طبّق قانون)، على اعتبار أهميّة الناحية البشريّة في إنجاز الفعل المؤسّساتيّ (التجّار يبيعون=تزوّد بالمؤن؛ بدون العشرة ملايين مواطن=إفلاس). لكن الأحلى من ذلك أنّ هذا النصّ لم يغفل نصّ سيرل الذي لم يُغفل بدوره مسألة المال: هو يقول، مثلاً: فقط لأنّه توجَد المؤسّسةُ النقديّة يكون بحوزتي فئة الخمسة دولارات؛ انتزعوا المؤسّسة، ولن يعود بحوزتي سوى قطعة ورقيّة كُتبت عليها أشياء بالرماديّ والأخضر[2]. إنّ الإفلاس الذي وضعناه في الشاهد السابق في علاقته بالإنسان، هو صلة وصل بين المؤسّسة

---

(1) Cf. John R. Searle: Les actes de langage (Essai de philosophie du langage), éd. Hermann-Editeurs des Sciences et des Arts, Coll. Savoir-Lettres, Préface Oswald Ducrot, 1996, p.92.

(2) Ibid.

الإنسانيّة، والقانون، وما ورد حول «الأسعار المناسبة»؛ إنّ صفة «مناسبة» تجعل السعر الماليّ مرتبطاً بالفعل المؤسّساتيّ الإنسانيّ، إذ إنّ المناسب هو المناسب عند «الأنا–هنا–الآن»، ومن الطبيعيّ أنّ ما هو مناسبٌ الآن سعراً قد يصير غير مناسب في المستقبل، إذ يتبدّل كلٌّ من المكان والزمان، وكذلك الإنسان، متبدّلةً معه حاجاتُه وطريقةُ إدارة مؤسّساته. هذا ما يدعونا إلى تحليل «اقتصاد البقاء»، إذ إنّ الاقتصاد (المؤسّسة) يرتبط بالإنسان (البقاء)، وما دام البقاء هنا، فهذا يعني، جدليّاً، الخوفَ من الزوال، أي تبدُّلَ النظرة حيالَ المُناسب عند زوالِ جيلٍ وولادة آخَر.

إنّ ما ذُكر عن تصوّر البقاء، يجعلنا نفهم أنّ البقاء، كما هو مرتبط بالمناسب، هو مرتبط بشروطٍ لضمان المناسب. فتطبيق قانون تأشيرة الدخول هو الذي يجعل هذه الورقة صالحة لاعتبارها قيمةً ذات قيمة. وإنّ أسبقيّة العبارة «في حال»، قبل الفاء (فهذا=فإذاً هذا...) تجعل الجملةَ ذاتَ متتالية برهانيّة صغرى، ما يحتِّم أن تتعادل «في حال» مع «إذا الشرطيّة»، كما تجعل الجملةَ تُصاغ دلاليّاً على الشكل التالي، متّخذةً متتاليةً برهانيّة ذات استدلالٍ كامل: لا يزول اقتصاد البقاء إلّا إذا طُبّق قانون تأشيرة الدخول. هذا الشرط يجعل الجملة، من وجهة نظر صيغةِ سيرل للأفعال المؤسّساتيّة التي يعتبرها أنظمةً من القاعدات التأسيسيّة *(Systèmes de règles constitutives)*، تصاغ على قاعدةٍ شكلُها الآتي: س (اقتصاد البقاء) يعود إلى ع (يعني زواله) في الوضع

و«في حال طبّق قانون التأشيرة»(X revient à Y dans la situation S)[1].

إنّ الفعل «يعني»، مع عبارة «في حال» يحوّل المتتالية البرهانية إلى فعل مؤسّساتيّ متكامل.

قد يتساءل بعضهم: وأين التعريف في ذلك؟ إنّ كلمات مثل «الكثير من الشركات» و«البضائع»، بمقابل «بعض التجّار»، و«عدد من الحوانيت»، لَهي تارةً شمولية، وطوراً تخصيصية، ما يضعُنا أمام تعريف لمفهومِ الشركات البولونيّة، ومفهومِ البضائع، ومفهوم التجّار، ومفهوم الحوانيت، وذلك كلّه في تماسكٍ ما كان ليَفْصلَ بين المفاهيم كلٌّ على حدة، تيمّناً بما أسماه سيرل «التعابيرَ المرجعيّة المتعدّدة المُعرّفة» (Expressions référentielles définies multiples) بوضع العنصر الكلّيّ، و«التعابيرَ المرجعيّة المتعدّدة غير المعرّفة» (Expressions référentielles indéfinies multiples) بوضع البَعْضيّات (Quelques)[2]. [تنتفض إحدى المزارعات في شيلم صارخة: «ومن سيحضر لشراء خضارنا عندما تغلق الحدود؟ أنا أعارض ذلك. وفي كلّ الأحوال فإنّ الروسكي [كلمة شعبية تشمل شعوب بيلاروسيا، وروسيا وأوكرانيا]، هم أقرب إلينا من الألمان، ثم إنّنا نتفاهم معهم». [ثمّة ما يدلّ على أنّ مؤسّسة التعريف إنسانية، إذ بعد التعميم وبعضِ ضروب التخصيص، جاء دور تخصيص التخصيص:

---

(1) Cf. Ibid., p.93.

(2) Cf. Ibid., p.63.

الإنسانُ الواحد شاهداً، إحدى المزارعات – وليس وجهاً معروفاً – التي لم يكن حضورُها للعرض والوصف، بل للكلام في النظام، للتدخّل في شؤون المؤسّسة، وكأنّ كلامها تأسيسٌ جديد للمؤسّس. إنّ وصفها تعدّى الخارجيّ، وحتّى الداخليّ، وأراهُ داخلياً خارجياً، لأنّ الصراخ نبعَ من الانتفاض، من داخل الانفعال، ليَخرجَ صوتاً تتبدّل فيه ملامح الوجه (الاستفهام، المعارضة، التفاهم). تخصيص التخصيص هذا يعود بنا إلى سيرل الذي قال: بالإمكان القول على سبيل المثال إنّني، في الجملة «الرجل الذي سرقَني»، إنّما أُحيلُ إلى الرجل الذي سرقني، حتّى ولو وجدتُ نفسي ذا عجز عن تحديد الرجل [...] فقد أكون عاجزاً مثلاً عن التعرّف إليه في وقت المواجهة [...]، أو حتّى أن أقول المزيد بشأنه. ومع ذلك، باعتباري أنّ رجلاً أوْحَدَ سرقني، فإنّ ذلك فعلياً هو مرجعيةٌ تحديدية *(Référence identifiante)* أقوم بها لحظةَ نُطقي الجملة[1]. التعريف هنا لم يكن تعريفاً لمفهوم، بل لإنسان يطرح مفهوماً. الإنسان هو طارحُ المفاهيم، مصوّبُها. وليس تعريفُه كإنسان بيولوجيّ (له عينان، يدان...)، بل كإنسان أنطولوجيّ لا يمكن لشيء أن يتّخذ قيمةً تعريفيةً من دونه. تعريفه الانفعاليّ هو الذي جعل فيما بعد تعريفات فرعيةً: الروسكي متفاهمون؛ الألمان غير متفاهمين؛ إذاً ذاك الإنسان غير المتعيّن، أدلى بشهادات تعريفية

---

(1) Ibid., p.130.

متعيّنة، وهذا المخصّص قال أموراً شمولية. هذا يلائم طرْحَ سيرل الذي لم يكن ليجعلَ مشكلةَ الالتزام الانطولوجيّ *(Problème de l'engagement ontologique)* مستقلةً. وهو يكمل أنّ السؤال بأنْ نَعلم كيفَ تكون لنا معرفةُ الأفعال *(Faits)* التي حِذاءَها ملفوظاتُنا تُلزمُنا *(Nos énoncés nous engagent)*، تلك هي مشكلة حقيقيّة؛ على أنّ من بين هذه الأفعال تلك المعبرَّ عنها طبيعياً بشكلٍ وجوديّ *(Naturellement exprimés sous une forme existentielle)*: هل [...]؟ [...] إنّ معيار التزامنا الانطولوجيّ يعود بنا في الواقع إلى القول: نحن ملتزمون حذاءَ حقيقةِ كلِّ ما ندّعي الجزمَ به[1]. في نصّنا استفهامٌ حولَ حقيقةِ وجود الإنسان في شيلم، حولَ صراعه للبقاء، وهذا ما مهّدت له كلماتٌ من مثل «صامدة، اقتصاد البقاء». هذا البقاء الوجوديّ مصدرُهُ بيع الخضار، أي الطعام، والمال، وتالياً الاصطلاح الماديّ، الوجود الإنساني، والوجودية الماديّة. كما أنّ الشكل الاستفهاميّ واضح (مَن سيحضر لشراء خضارنا عندما تغلق الحدود؟ = هل من سبيل لبقاء الإنسان عندما تغلق الحدود؟). أسئلة غير مباشرة عن الموت، عن معرفة المصير، عن مشروعٍ أصيل لإنهاض الاقتصاد: هذا تعريفٌ ضمنيّ للفلسفة الوجوديّة، بتجلّياته، وليس بتنظيره. المشروع الإصيل وجودياً ينبغي تفعيله؛ هذا ما فعله الكاتب حين

---

(1) Cf. Ibid., p.160.

وصف المرأة بفعلَي «انتفضت+أعارض» *(Je m'oppose)*، وهذا من قَبيل عمود الأفعال الأدائية الإنجازية *(Colonne des performatifs)* عند أوستن *(Austin)*[1]: القول بالمشروع=إنجاز المشروع. إنّ تمهيد الفعل الإنجازيّ للتركيب التساؤليّ، هو الذي ساعد على مدّ التركيب بقوّة إنشائيّة غير لفظيّة ق *(Illocutionary force F)* تعدّت الاستفهام إلى الرفضِ واقتراحِ البديل والتلويح بالبقاء. ووفقاً لسيرل، من وجهة نظر أفعال الكلام، فإنّ هذه القوّة ترتبط بمحتوىً قضويٍّ إخباريّ قض *(Propositional content p)* حيث إنّ الشكل العامّ لِمثل هذه الجمل البسيطة، هو (ق(قض)) *(f(p))*، وهو يسمّيها الجمل البدائيّة *(Elementary sentences)*[2]. هذه القوّة هدفُها في نصّنا هنا تبيانُ مدى فعاليّة جملة بسيطة تركيباً، ومعقّدة دلاليّاً في تعريف البُعد الإنسانيّ من القول هذه المرّة. بالمقابل، يعتبر أوستن أنّه بإمكاننا استعمال الدلالة مع قيمة إنشائيّة. وهو يميّز بين القيمة *(Valeur)* والدلالة *(Signification)*، على أنّ الدلالة عنده تُعادل المعنى والمرجع *(Sens et Référence)*، حيث إنّه بات من الضروريّ تمييزُ المعنى من

(1) Cf. J. L. Austin: Quand dire c'est faire,Trad. Gilles Lane, Paris, éd. Seuil, 1970, p.98.

(2) Cf. John R. Searle & Daniel Vanderveken: Logic, Thought and Action, Canada,University of Quebec,ed. D. Vanderveken-Springer, 2005, Chapter 5 ,Speech acts and illocutionary logic, p.110-111.

المرجع داخلَ الدلالة عينها[1]. من هذا المنطلق، دلالة الجملة تتشكّل من معنى السؤال عن بيع الخضار، ومن مرجعٍ مزدوج: قائلتها التي لم تتعيّن باسْمِ علم، ويُظَنُّ أنّ ذلك انتقاصٌ تعريفيّ، في حين أنّ تعيينها بالمزارعة جعلها تتكلّم باسم المزارعين، تُمثّلهم، هي بالتالي أكثرُ من مجرّد امرأة؛ وقيمةٌ مصدرِها هو الفلسفيُّ الوجوديّ. هذا الأمر يجعل القارئ ينتقل من مجرّد الاهتمام بتعريف المرأة، إلى الاهتمام بتعريف المزارعين: من «هو»؟ كم عددهم؟ (إحدى...).[

وفي حين أنّ اليمين المتطرّف لم يتمكّن من الاختراق في بولونيا بعد العام 1989، تقوم حملات ذكيّة على شبكات التلفزة الرسميّة وفي الصحف المشهورة بليبيراليّتها يبدو أنّها تسعى إلى إيقاظ العداء لكلّ ما يأتي من الشرق، على خلفيّة عدم الأمان والجنوح. وتكاد الليبيراليّة الحقيقيّة أن تثير، بكلّ معنى الكلمة، حالة العداء للأغراب كما أنّ الحملات المناهضة للعنصريّة الهادفة إلى التوعية الفعليّة لا تساهم إلّا في إثارة الارتياب. [يقول أوستن إنّ نجاحَ أو إتمامَ فعلٍ إنشائيّ *(Acte illocutoire)* يجرُّ ممّا يجرُّه، تَبِعاتٍ وتأثيرات *(Conséquences et Effets)*[2]. إنّ فعلاً مثل «تسعى» أو «تساهم» أو «تثير»، هو في تلك الأحوال جميعاً تمثيلٌ لتبِعةٍ أو تأثير: عدم تمكّن التطرّف من الاختراق ← سعي إلى إيقاظ العداء في حملات ذكيّة على

(1) Cf. Austin, p.113.

(2) Ibid., p.123.

شبكات التلفزة الرسميّة ← إثارة العداء للأغراب ← إثارة الارتياب. السبب الأوّل كان ذا نتيجة. ولم يكن من سبب 2 لنتيجة 2. بل بدت النتائج متعالقة، حيث إنّ كلّ نتيجة هي سببٌ لنتيجة لاحقة هي أيضاً سببٌ لنتيجة، وهكذا... هذا التوصيف يجعل النتائج المتماسكة متكثّفة، أي يضع التبعات المؤثّرة والمتأثّرة في موقع لافت. على أنّ بعض أساليب التأكيد المتركّزة عند موقع التبعة أو التأثير، هي تقنيةٌ أخرى لإبراز تكثُّف التبعات: الحصر (لا تساهم إلّا)، زد على ذلك حُسنَ تخلُّص الكاتب الذي، متى غيَّبَ التأكيدَ عن التبعة، عاد وألصقَ بها واحداً من مفاعيل التأكيد: تكاد أن تثير +بكلّ معنى الكلمة؛ يبدو أنّها تسعى +لكلّ ما يأتي. بهذه الطريقة، فهمْنا أكثر دلالات الجزء الأخير من هذا الخطاب، فتَحوّل الملفوظ الوصفيّ إلى ملفوظٍ عازِم، إلى موقفٍ مهدِّد ينبغي حملُه على محمل الجدّ. هذا ما عنى به أوستن حين ذكر أنّ التأثير، في غالب الأحيان، قوامُهُ أن يُثيرَ فَهْمَ دلالةِ العبارة وقيمتِها(1). وإذا كان هذا الجزء الختاميّ وصفياً في توصيفه الأوّليّ، فهذا معناه أنّ على أفعاله أن تكون عَرْضيةً. ومتى ارتبط ذلك بوجهة نظر كما أسلفْنا قيمِيّاً، صرنا أمام قول أوستن الذي حدّد استعمال العرْضيّات *(Expositifs)* في أفعال العرض *(Actes d'exposition)*، كمِثل تفسيرٍ وجهة نظر، مسارٍ برهانيّ، توضيح استخدام الكلمات. وبالفعل أنّ الكاتب، لذلك، عيّن أفعالاً «للدعوة إلى» *(Appeler)*

(1) Ibid., p.124.

(تسعى إلى، تهدف إلى التوعية)، وتترجّح بين التأكيد *(Affirmer)* والشكّ *(Douter)*[1]، وها هنا يتجلّى ذاك في الخلطة المُوازِنة بين أفعالِ شكٍّ وأساليبَ تأكيدية (يبدو أنّها تسعى [...] لكلّ ما يأتي ، تكاد أن تثير بكلّ معنى الكلمة).

هل ابتعدنا عن التعريف؟ كلاّ. إذ نحن نظنّ أنّه كلّما كان عرضٌ، كان هناك تعريفٌ، وكلّما كان تفسيرٌ إخباريٌّ مباشر يعضد برهاناً إقناعياً ضمنياً، كان هناك تعريفٌ ضمنيّ: ما هي الليبرالية بكلمة (العداء)؟ ما هو تعريف الحملات المناهضة بكلمة (=الارتياب)؟ من ناحية، لا تبدو قيمة التعريف مناسبة للمنطق العامّ لكلٍّ من الطرحين. فهذه بالطبع وجهةُ نظر المتكلّم، أو الشعب «أنا-هنا-الآن»، إذاً نتوسّم تعريفاً غيرَ طبيعيّ. بالمنحى التقابليّ بين واقعِ التعريف العامّ، وواقعِ المُعرَّف الخاصّ، ذاك الأخيرُ بدا غيرَ طبيعيّ بمعنى غير المألوف، بمعنى الهوّة بين الشائع والمنصوص عنه. من ناحية ثانية، عند غْريس *(Grice)* هذا اللاطبيعيّ الذي يسمّيه دلالةَ غ ط (دلالة غير طبيعية= *Signification* *(nn= Signification non naturelle* يميّزه من معانٍ أخرى للّفظ «دلّ» الطبيعيّ بمعنى ما يَصدر من الطبيعة[2]، انطلاقاً ممّا يَصدر عن المتلفِّظ؛ غريس يحلّل فكرة الدلالة غير الطبيعيّة بهذه الطريقة: القول إنّ متكلّماً م *(Locuteur L)* رامَ أن يدلّ على شيءٍ ما بـ س *(Signifier quelque)*

---

(1) Cf. Ibid., p.162.

(2) Cf. Searle, p.83.

(chose par X)، أي إنّ م كانت لديه النيّة *(Intention)*، في تلفُّظه س *(En énonçant X)*، بأن يُنتج تأثيراً في المستمع مس *(Auditeur A)*، بفضل تعرُّف مس لهذه النية[1]. نحن نُطمئن الكاتب بأنّنا تَفهّمْنا نيتّه، والنيّةَ التي أرادنا أن نُلصقها بالشعب والمفهومة (ليبراليّة/ عداء) في هذا المقام الذي أبرزَه بهذه الطريقة لا تلك.

(1) Ibid.

ثانياً: كيف الحدّ من انتشار الأسلحة الخفيفة؟ [بين الوعد والغائيّة: إنجاز النقطة الإنشائيّة لمُسلَّمة التحديد]

Philippe Rivière (فيليب رِيفيير)
العالم الدبلوماسيّ، كانون الثاني/ يناير 2001
(http://www.mondiploar.com)

[...] يجدر التوقّف عند عدد من المقترحات الأخرى التي تقدّم بها الباحث الألمانيّ بيتر لوك(7): ضريبة على الذخائر، إيداع مبلغ معيّن ضماناً لعدم «تبخّر» جميع الأسلحة الناريّة واحتساب الكلفة ضمن سعر المبيع ممّا يحدّ من جاذبيّة البيع بأسعار مخفوضة؛ تمييز واضح بين أسلحة الصيد أو الرياضة وبين أسلحة الشرطة أو الأسلحة العسكريّة من خلال تبنّي عيارات مختلفة وقوانين مناسبة لحيازة هذه الأنواع من الأسلحة؛ صندوق دوليّ لتدمير الفائض الخ... [إنّ تبنّي عيارات وقوانين، لا بل إنجاز ذاك التبنّي لأنّه لمّا يُنجزْ بعد، لَهو نوعٌ من الوعد، كما أنّ كلمة «مقترحات» تدلّ على أنّ الباحث الألمانيّ موعودٌ بإنجازِ ما اقترحه، بكلّيّته. ما وردَ بعد النقطتين هو تعريفٌ عن السلاح، أي إنّه يبدو فعلاً صِرفاً، إلّا أنّ ربْطه بالقوانين يحوّله إلى فعلٍ مؤسّساتيّ، خصوصاً لِجهةِ ذِكرِ أنواع الأسلحة على شاكلةِ مؤسّسات (شرطة، أمن...). إنّ التعريف بأسس حيازة الأسلحة هو فعلٌ تنظيميّ:

فإنّ واقعَ إتمامِ ثمّةَ فعلٍ لغويٍّ ما، كالقيام بوعد على سبيل المثال *(Promesse)*، هو فعلٌ مؤسّساتيّ، ما لا يدعو إذاً بالنسبة إلينا لأن نحلّل أفعالاً كهذه بمصطلح الأفعال الخام[1]. لاحِظ لذلك مصطلحاتٍ مثل «سعر، بيع» - وليس «نقود» -، «جاذبيّة، تمييز، قوانين» - وهي أصلاً مجرّدة -، و«تدمير» - الذي يبدو محسوساً، إلّا أنّه في سياقه مربوطاً بالفائض، جُعِل تجريدياً تمثيلياً.[

يمكن أن يأتينا أيضاً المثال من البلدان التي تصبّ فيها هذه الأسلحة، ففي افريقيا الغربيّة حيث لا تملك الدول الوسائل الكفيلة تأمين النظام العامّ وفي مواجهة «تصاعد أعمال اللصوصيّة والإجرام في جميع أشكاله» بدأ المواطنون بحمل السلاح فيما بدأت تنمو بحسب عبارة للجنرال تورة، «ثقافة الخوف والعنف». لذلك أعلنت المجموعة الاقتصاديّة لدول افريقيا الغربيّة عام 1998، في ابوجا، عن موارتوريوم حول استيراد الأسلحة الخفيفة وتصديرها وإنتاجها، وأنشأت رقابة لدفق هذه الأسلحة من خلال لجان وطنيّة. وقد تعهّد كبار منتجي السلاح الذين وقّعوا «تدبير واسنار» بعدم تصدير الأسلحة الخفيفة إلى المنطقة. [ليس المهمّ هو ذلك التعهّد، لأنّه قد يُكتب له أن يبقى بمنأى عن التنفيذ. غير أنّ توقيع التعهّد يجعله أكثر إنجازيّةً، مُنجَزاً قبْلَ أن يُطبّقه المتعهّدون، فيجعلهم مضطرّين لتنفيذه، لأنّه في وجهه الأوّل احترامٌ للذات وللكلمة، أكثر منه لمحتواها؛ على أنّ أفعال

(1) Ibid., p.93.

الكلام الوُعودية *(Promissifs)* عند أوستن ينضوي تحت لوائها، كما الفعل وعد *(Promettre)*، فعلا *«S'engager,garantir»*[1] اللذان يتماهيان مع فكرة التعهّد الموقّع رسمياً. إنّ ما سبق من تأويل هو من القوّة الإنشائية للكلام، غير أنّ ثمّة ما هو قمّةُ تلك القوى المؤوّلة جميعاً، والتي أسماها سيرل النقطة الإنشائية *(Illocutionary point)* للفعل الكلاميّ المناسب *(Corresponding act)* والتي تكون داخلية *(Internal)* لنمط الفعل الإنشائيّ *(Type of illocutionary act)*، ما مَردُّهُ إلى القول إنّه إذا كان الفعل ناجحاً *(If the act is successful)*، فإنّ النقطة تكون قد أُنجزت *(The point is achieved)* – وسيرل نفسه، في المقام عينه قد توقّف في شواهده عند نقطة الوعد[2]. نرى بالتالي أنّ الفعل ناجح إذ إنّنا نعتبر أنّ النقطة الإنشائيّة قد تحققت باختلاطِ وجهين: التهديد بمنع تصدير الأسلحة الخفيفة، خصوصاً أنّ كلمة «كبار» تحرص على تبيان النفوذ؛ والأهمّ من ذلك، الخلفيّة غير المباشرة لجشع هؤلاء التجّار، إذ ما يمنعونه يضرُّ بتجارة غيرهم، ولكنّه ينفع تجارتهم، وما جعلنا نؤكّد وجهة نظرنا هذه في قمّة النقطة، هو أيضاً كلمة «كبار»: فإلى جانب النفوذ هي تدلّ على أنّ هؤلاء يستهويهم أكثرَ بيعُ الأسلحة غير الخفيفة، طالما أنّهم الوحيدون مبدئياً الذين يستولون على قطاع الأسلحة الثقيلة؛ بالتالي، هم يشجّعون على

---

(1) Cf. Austin, p.159.

(2) Cf. Searle and Vanderveken, p.120-121.

بيع الأسلحة الثقيلة، لمنفعةٍ شخصية، وهذا وجهٌ من التعهّد، مُضرٌ، تحت ستار السلامة العامة. من التعريفات إذاً ما أوصلَنا ليس إلى تعريفِ تجّار السلاح الكبار، بل إلى تعريف حقيقتهم، من خلال تعريف «نقطة ملفوظهم»: تجّار السلاح الكبار = نفوذ+جشع+ضرر ضمنيّ. هذه الأفعال الكلامية الضمنيّة الأخيرة، بلُغة أوستن، وفي مضمارِ فئة الأفعال الوعودية، تُسمّى، حين يتمُّ تحميلها نيّات *(Intentions)*، بِقرانَ الاصطفاف *(Epousailles)*، حيث يكون الواحدُ من صَفّ الآخَر[1]، لأنّ المتكلّم يبدو أنّه إلى جانبِ كبار تجّار السلاح، وإنْ بالفعل الكلاميّ الأوّليّ بدا يظهر ذلك إشكاليةً ينبغي الحدّ منها.

يتأكّد من جانب آخر أنّ الخاتمة التي شكّلت فعلاً مؤسّساتياً ركّزت على الرابط التجريديّ للسلاح، أو على الإنسان المسلَّح أو المسلِّح، ولم تتناول السلاح في حدّ ذاته كفعلٍ خام، على الرغم من تكريره كلمةً أساسية ستّ مرّات بين المفرد والجمع، وكأنّه بات هو وحده المستهدف: فالتعريف الحقيقيّ كان هنا تاجر السلاح، وتَحوّلَ إلى ضمنيٍّ في نيّاته، إلّا أنّ هناك أيضاً تعريفاً ضمنياً تحت المباشر - الضمنيّ ذاك، ألا وهو السلاح نفسه؛ هذا لا يحوّل الفعل المؤسّساتيّ فعلاً ماديّاً، لارتباطه بالإنسان أو بالقانون التنظيميّ أو بمفاهيم تجريديّة، بل إلى احتمالِ تحوّله فعلاً ماديّاً، حين يمكن للكاتب أن يسترسل في تعريف السلاح، إذ يبدو أنّه عارفٌ بجوانبه المختلفة طالما أنّه تجرّأ على

(1) Cf. Austin, p.154.

تكريره إلى هذا الحدّ في مقطع صغير. وبالتالي عليه أن يكون حاضراً لأسئلة من قَبِيل: ماذا تعني بالسلاح؟ ماذا تقصد بالأسلحة الثقيلة؟ وإذا كان ثمّة أسلحةٌ خفيفة توصف بذلك، فما هي أنواع الأسلحة المقابلة المحظّرة (ثقيلة، متوسّطة...)؟ يقول سيرل إنّه يُطلق على هذا مسلّمةَ التحديد *(Axiome d'identification)*، حين يُحيل المتكلّم إلى موضوعٍ ما *(Objet)* ويحدّده، أو بإمكانه على الدوام تحديدُه حالَما نطلب إليه ذلك، بمعزل عن المواضيع الأخرى جميعها[1].]

في نظر العديد من المراقبين يشكّل التدفّق المفاجئ للأسلحة الخفيفة إلى بلد من البلدان إحدى الإشارات المبكرة إلى اقتراب نشوب أزمة فيه(8). إنّ لفت الأنظار إلى النزاعات قبل نشوبها إضافةً إلى معلومات دقيقة وموثوق بها حوْل انتقال الأسلحة الخفيفة قد تشكّل أيضاً آليّة فعّالة لتفادي المعارك والمذابح. [بعد أن صمدَت نقطة الفعل الإنشائيّ بعد الفعل التلفّظيّ الأوّليّ، كان لا بدّ من أن يتجلّى فعلٌ كلاميّ آخر، كما زعم أوستن بأنّ إنتاجَ فعلِ تلفُّظ كلاميّ *(Acte locutoire)*، ومن هنا فعلٍ إنشائيٍّ، لَهو إنتاجُ فعلٍ ثالثٍ بَعْدُ[...] نسمّي فعلاً كهذا الفعل الغائيّ المترتّب عن التلفّظ *(Acte perlocutoire)*[2]. وبالتمييز بين الفعل الكلاميّ والفعل الغائيّ كما عرضهما أوستن في المقام

(1) Cf. Searle, p.124.

(2) Austin, p.114.

عينه، نرى أنّ خاتمةَ الخاتمة بعيدةٌ عن القول ([يقول المراقبون]: [«] إنّ التدفق... يشكّل... [»]؛ [يقولون]: [«] إنّ النزاعات... قد تشكّل...[»])، وقريبةٌ من الفعل الغائيّ الذي رمز إليه بـ Cb *(Il me ramena au bon sens)*. لأنّ «النظر» المزدوج، في غايته الأساس، هو توليدُ وجهة نظر، وطالما أنّ هناك كلماتٍ مثل «إشارات مبكرة+اقتراب+قبل نشوبها+تفادي»، فإنّها أدواتُ توعية، أي محاولةٌ للتنبيه، وتالياً للتقويم.[

ثالثاً: خطر تدهور الانفراج الآسيويّ [مُداولة الملفوظ بين الفعل التصرُّفيّ والفعل الحُكميّ: من اللاصدق والإخفاق إلى محاولات التأويل]

Bruce Cumings (بروس كُومينغز)
العالم الدبلوماسيّ، أيّار 2001.
(http://www.mondiploar.com)

[...] تمثّل هذه القوة الخارجيّة الوجه المعاصر للاستراتيجيا الأميركيّة المعتمدة في آسيا الشرقيّة منذ العام 1940، والتي كان لها هدف مزدوج هو احتواء الشيوعيّة والحدّ، بكلّ عناية، من هامش المناورة لدى الحليف اليابانيّ الجديد. وقد تحقّق الهدف الأوّل في العام 1991، أمّا الثاني فتطوّر مع الوقت مع أنّ اليابان لا تزال دولة منتقصة السيادة ورهينة الولايات المتّحدة في قضايا الدفاع والمخابرات والرقابة على الطرق البحريّة الضروريّة لتموين اقتصادها. ورغم تحالفهما الاستراتيجيّ، فإنّ التوتّرات كثيراً ما تنشب بين البلدين، كما حدث مثلاً في اوكيناوا حيث يرغب قسم كبير من السكّان في انسحاب الأميركيّين، أو أيضاً على إثر الحادث الذي وقع في 9شباط/ فبراير الماضي حين تسبّبت الغوّاصة «يو.أس.أس. غرينفيل» بغرق سفينة

يابانيّة أمام شواطئ هاواي ممّا أودى بحياة 9 سيّاح يابانيّين بينهم أربعة أولاد (ولم تعتذر الولايات المتّحدة إلّا بعد أسبوعين).

لقد دخلت المنطقة مرحلة تجاذب نشط وخطير، ووحده الرئيس كيم داي يونغ هو المتميّز بين سائر الفاعلين فيها، إذ يعود إليه الفضل في نجاح المفاوضات مع كوريا الشماليّة خلال السنوات الثلاث الأخيرة، طوّر خلالها، من جهة أخرى، العلاقات الممتازة مع الصين واليابان. فبعد النتائج الغامضة للانتخابات الأميركيّة، هناك بناءٌ بأكمله يكاد ينهار، وهناك استراتيجيا مقنعة وناجحة للانفراج الإقليميّ تخرج عن مسارها لينفتح زمن آخر للمشاكل. [بعد كلمات مثل «استراتيجيا، شيوعيّة، دولة، مخابرات، اقتصاد، تحالف، سكّان، سيّاح»، تتشكّل بدون شكٍّ في النصّ أنماطٌ من المؤسّساتيّة، وهي بالتالي تفترض قاعدات مؤسّساتيّة. حين نقارن بين قول سيرل في هذا المضمار من جهة، وما جاء في خاتمة الخاتمة من جهة ثانية، نلحظ المَساق الطبيعيّ لهذا النوع من القاعدات، حيث إنّه داخلَ أنظمة القاعدات التأسيسية [...] فإنّ بعض القاعدات ستتّخذ النمط الآتي: س تعود إلى ع في الوضع و*(X revient à Y dans la situation S)*[1]، وهذا ما عرّبَ ذاتَه في النصّ لدى عبارة «يعود إليه الفضل» ⇐ الفضل س يعود إلى الرئيس ع في الوضع التجاذب/ التفاوض و.

بين التجاذب والتفاوض مرحلةٌ وسيطة، وهي فاصلة لتقدير نجاحِ

---

(1) Searle, p.74.

التفاوض أو إخفاقه، وتحويل التجاذب إلى نزاع. هناك بالتالي نية لبلوغ التفاوض نَفَقهُها بالكلام، ولكنّ تحققها الإنجازيّ الفعليّ قد يكون إخفاقاً. فكلمة «نجاح» تعود بنا إلى ما أسماه أوستن في ميدان الملفوظ «*Bonheur*»، بيد أنّ خروج النجاح على مساره فاتحاً زمناً للمشاكل هو إخفاقٌ بعينه. الرئيس ليس كاذباً هنا، ولكنّ إنجازه التفاوضيّ على الأرض فتح هوّةً كبيرة بين النيّة وما نتج منها. وشتّان بين هذا الوضع، ووضعِ الولايات المتّحدة، بحسب ما جاء في النصّ، التي لم تعتذر عن الإغراق المميت؛ ففي هذه الحالة، الإخفاق أبدى لاصدقاً، أو مناورةً لتحاشي الدخول الكلاميّ «الناجح» لجهة المتضرّرين. والذي لا ريب فيه أنّه سيكون متوقّداً في فترة الحادثة. لكنّ هذه العبارة التي جاءت بين قوسين، كان من الأفضل أن تأتي بعد عارضة كجملة اعتراضيّة، كي تكونَ علاماتُ الوقف، وإنْ اعتُبِرت أدوات ثانويّة للفعل الإنجازيّ، أحدَ سُبُلِ النجدة لهذا النوع من الأفعال[1]. ولكن ما يمكن أن نُبْديه إيجابياً، هو أنّ الكاتب، على الأقلّ، عرف، كما أكمل أوستن في المقام نفسه عن أهميّة التشكّل للفعل الغائيّ، كيف يتلاعب بكلمات الملفوظ الأخلاقيّ، فجعلَه في تشكُّلٍ لافت، وفي موقعٍ لافت، في نهاية جزء أتى بعدَه جزءٌ مُنتقلٌ إلى سطرٍ آخر، خصوصاً أنّ ذلك يشكّل إيقاعاً اختلافياً يمكن أن يؤدّي إلى تحذيرٍ ضمنيّ من التعامل مع الولايات المتّحدة التي يبدو في النصّ أنّها لا تهتمّ قليلاً بما تُسبّبه، بل بروتوكولياً

(1) Cf. Austin, p.95.

فقط. أوَلم يقل أوستن إنّ لإيقاع الكلام أحياناً *(Rythme)* دلالةَ التحذير *(Avertissement)*[1]؟ هنا أصبحنا في ميدان الأفعال التصرّفيّة *(Comportatifs)*، لأنّ أوستن نفسه جعل الاعتذارَ تحت لوائها، وميزّ ولو بطريقة عابرة بين الاعتذار *(S'excuser)* وتقديم الأعذار *(Présentation d'excuses)*[2] - ولعلّنا نحن في سياق تقديم الأعذار، أي الشعور الضمنيّ بالخطأ أكثر منه موقفاً أخلاقيّاً-، ولأنّ الاعتذار هو في ذاته فعلٌ أخلاقيّ إيجابيّ، ولكنّه زمانياً متأخّر، ما جعله في غير سياقه الخارجيّ المستحَبّ، ما جعله، بدوره، سلبيّاً مُخفِقاً ينمّ عن سوء نيّة ما. على أيّ حال، إنّ الأفعال التصرّفيّة، وهي متعرّضة للإخفاقات المعهودة *(Echecs)*، بإمكانها علاوةً على ذلك أن تُفضحي علامة للاّصدق *(Insincérité)*[3]. وهكذا، هل يصير تعيينُ العلَمين، الرئيس يونغ والولايات المتّحدة، تعريفاً أو نقداً؟ من جهة، إنّ التسمية جزءٌ من الواقع المعرّف. ومن جهة أخرى، فعل التأريخ (وقع في شباط/ فبراير...) هو الجزء الآخر. والتمَوقُع هو الجزء المكمّل. وعلى ذمّة أوستن، ينسجم الفعل التصرّفيّ مع الفعل الحُكميّ *(Verdictif)*، إذ إنّ من أفعاله «أرّخ *(Dater)*، وموْضَع *(Placer)*»[4].

كذلك ينسجم التعريف البشريّ والدوليّ مع الفعل الفَرْضيّ

(1) Cf. Ibid., p.94.

(2) Cf. Ibid., p.161.

(3) Ibid.

(4) Ibid., p.155.

السُلطويّ *(Exercicif)*. فمن خلاصة الفعلين التصرّفيّ والحُكميّ نصل إلى فعلٍ إنجازيّ عُمقيّ هو إظهار سلطتين اثنتين: سلطةُ المتكلّم كاتباً وسلطةُ المتسلّط، ربّما كوّنتا ما أسماه سيرل الخَلْفيّة *(Arrière-plan،Background)*، وهي لا تكون عنده جزءاً من المعنى *(Sens)* ومن القصديّة *(Intentionnalité)*، ومع ذلك فالمعنى والقصديّة لا ينوجدان بما هما معنىً وقصديّةٌ إلّا نسبةً إليها[1]. سلطتُه كاتباً تجلّت في التحذير الضمنيّ، وقد أورد أوستن فعل «*Avertir*» من ضمن الأفعال السلطويّة؛ وسلطةُ المتسلّط ظهرت في تسمية الغوّاصة «يو.أس.أس.». فمحور كلام أوستن ابتدأ مع تحقيق تسمية *(Effectuer une nomination)*، وهناك الفعل الإنجازيّ، وتحديداً الفرضيّ[2]. فكيف إذا كانت التسميةُ التي لا يمكن فيما بعدُ تغييرُها، هي من صلب الولايات المتّحدة، من صلب تسميتها، من صلب التذكير بأصولها *(US+S)*، أي التذكير بالهيمنة، التعالي؟

نحن نجد أنّ التعريف الضمنيّ التحذيريّ رافقه ملفوظان مباشران تركيبيّاً: لم تعتذر الولايات المتّحدة...؛... لينفتح زمن جديد للمشاكل. فكنّا نفضّل ألّا تكون الخاتمة، بكاملها، عبارات متماسكة إلى هذا الحدّ، تركاً لمجال التأويل، أو أقلّه التفكير (لا اعتذار؛ و... مشاكل!)؛ بهذه الطريقة يكون الأسلوب أكثر طرافةً، وهذا ما عنى به أوستن حين

---

(1) John Searle: Langage, Conscience,Rationalité: Une philosophie naturelle (Entretien avec John Searle), Paris, Le Débat,Mars-Avril 2000, p.9.

(2) Cf. Austin, p.154.

ذكر أنّه بالإمكان بناء "الإنجازي"، بدون اللجوء إلى الكلمات الفعّالة[1]. ولكن يبدو أنّ الكاتب، انسجاماً مع النصّ الإبلاغيّ، أراد أن يهيمن التفسيرُ على نصّه، فكانت وظيفتُهُ إفهاميةً أقلّه ظاهرياً، وكأنّه كان يرمي إلى الإقناع في مواقع ضمنيّة إنّما غير بارزة في تركيب العبارة بذاتها. وربّما وجد أنّه في اختزال الكلام، وفي خاتمة الخاتمة تحديداً، كان من الممكن أن يبدوَ مُوجِّهاً المتلقّي صوبَ وجهة نظرٍ يتبنّاها، أو صوبَ وظيفةٍ إقناعيةٍ ضمنيّة، ولكنّها بارزة لغيابِ عناصرَ كان يجب أن تَبرز في مسارها الطبيعيّ. "فاللغة [...] في مراحلها البدائية ليست دقيقة، ولا هي صريحة؛ دقّةُ اللغة تجعل أكثرَ وضوحاً ما قيلَ، معنى ما قيل *(Sens، Meaning)*، والخاصيةُ الصريحة *(Caractère explicite)* تجعل أكثر وضوحاً قيمة التلفّظ *(Rend plus claire la valeur de l'énonciation)*"[2]. على أيّ حال، لا يعتقدنّ أوستن أنّ المعنى يتولّد من كثرة عناصر التركيب الواضح، فالمعنى ينشأ من تأويل المتلقّي للتركيب الغائب، أو لعناصر التركيب الحاضرة؛ وعندَ سيرل، أن يكونَ التركيبُ كلمةً أو جملة، سواء، حيث إنّ الكلمات والجمل [...] لا تكفي في ذاتها لأنْ تولِّد تأويلاً *(Générer une interprétation)*، فالمعنى اللسانيّ نفسه *(Même sens linguistique)* سوف يسمح بتأويلٍ مختلفٍ حسب الافتراضات التي نجعلها تتدخّل[3].]

(1) Ibid., p.83.

(2) Ibid., p.93.

(3) Entretien avec John Searle, p.9.

رابعاً: طفيليّات في واقعنا اليوميّʃ طَيْشُ فهم عناصرِ الجملة وأثرِهاʃ

Dan Schiller (دان شِيللر)
أستاذ مادّة الاتّصالات في جامعة أوربانا-تشامباين- إيللينوي.
العالم الدبلوماسيّ، أيّار 2001.
(http://www.mondiploar.com)

[...] بدورها تتعرّض الأخبار للتراجع إذ تعاد صياغتها من أجل تقديم فائدة كبرى لنظام التسويق التجاريّ. فمجرّد التهديد بسحب موازنة إعلانية يوقف الصحف عند حدّها(11). ففي الولايات المتّحدة، قلْب الإعلان النابض، قامت شركات الأدوية بتقديم عطاءات «تربويّة» كبيرة لمساعدة مواقع الانترنت الخاصّة بالإرشاد الصحّيّ. النتيجة: «في موقع مخصّص لسرطان الرئة... تعقد طاولة مستديرة حول العلاقات الجديدة تقترح دواء هرسبتون الذي تنتجه شركة غينتتك، راعية الموقع». وليس من المطمئن في شيء أن نعرف أنّ مجلّة Journal of American Medical Association تدير موقعاً حول مرض السيدا برعاية شركة «غلاكسو ويلكوم» التي تصنع علاجات لهذا المرض. أو أن تضطرّ مجلّة New England Journal of Medecine إلى الاعتذار لأنّها نشرت 19 مقالاً حول الأدوية بقلم

أطبّاء مرتبطين ماليّاً بصناعات الأدوية(12). [إنّ ربط الاعتذار بتعريف المجلة يعطيها دفعاً إضافياً لتعريفها كمجلة، ومن جهة ثانية فإنّ هذا الربط بالتفسير (لأنّها) مضافاً إلى العدد الدقيق (19 مقالاً) لَهو شرطٌ لإثبات الحقيقة، بخاصّة في مجال الإحالات إلى هوامش تترافق معها حواشٍ، ما يمكّن من اعتبار الاعتذار فعلاً سعيداً. فأوستن يقول إنّه متى كان التلفّظ «أعتذر» موفّقاً سعيداً*(Lorsque l'énonciation «je m'excuse» est heureuse)*، كان التأكيدُ الذي من خلاله أعتذر صحيحاً*(L'affirmation selon laquelle je m'excuse est vraie)*؛ كي يكون التلفّظ الإنجازيّ *(Enonciation performative)* «أعتذر» موفّقاً، فينبغي أن يكون صحيحاً التأكيدُ الذي تبعاً له نُفّذت بعضُ الشروط[1].]

وها هي صناعة الإعلان تدخل إلى جبهة جديدة وهي المسح المنهجيّ-السرّيّ في الغالب- للمعطيات حول المستهلكين. ومن أجل استثمار أفضل لآخر الممارسات الثقافيّة (الموسيقى، الموضة، أشكال التعبير الرائجة) تتوسّع الرقابة التجاريّة لتطاول شبكة الانترنت. وترتدي المعلومات الخاصّة بسلوك المستهلكين أهمّيّة استراتيجية. وتمتلك شركة «أميركا أون لاين» معلومات دقيقة نسبيّاً حول 130 مليوناً من المشتركين في المجلّات (تايم وفورتشن ...الخ) وتلفزيونات الكابل (سي.إن.إن) إضافة إلى خدمات الانترنيت التي توفّرها(13).

(1) Austin, p.79.

أما يلفتنا هنا هو ما بين قوسين: إمّا إيضاحاً في المتن، وإمّا إحالةً رقمية في الحاشية. وفي الحالين مؤشرٌ للوظيفة الإفهامية، كما إشارةٌ صوب اتّجاه سيرل في طرح السؤال النموذجيّ الآتي: كيف لدلالة العناصر المختلفة لجملة ما *(Signification des différents éléments d'une phrase)* أن تُحدّد دلالةَ الجملة بكاملها *(La signification de la phrase entière)*[1]؟ من هنا فالتعريف الكامن لصناعة الإعلان تجلّى في تفصيلاتٍ توضيحيةٍ باتت هي نفسُها تعريفات بما جاء بين قوسين، ولكنّها تعريفاتٌ مكمّلة (الممارسات الثقافية، تلفزيونات الكابل، خدمات الإنترنت).

إنّ ما جاء هنا بالتالي، خصوصاً لجهة الإحالة صوب مرجعٍ معيّن، يجعل صناعة الإعلان، قبل قراءة أوستن، من العبارات المرجعية. وبعد قراءة سيرل حول أنماط التعابير المرجعية *(Expressions référentielles)*، فإنّنا نجد أنّه بخصوص شواهدها يذكر أنّها تتوزّع على أصنافٍ ثلاثة [...]: أسماء العلم، المجموعات الاسمية المبتدئة بأل التعريف [...] وأخيراً الضمائر[2]. أليس هذا ما ما شهدناه في فقرتنا لنتحقّق من صحّة تسميتنا؟ فما ذكره سيرل، نورده بالتسلسل متوازياً مع القول: تايم وفورتشن+...=أسماء علم إضافية: أميركا أون لاين، سي.إن.إن؛ الـ(إعلان، مسح...، مستهلكين، مشتركين في المجلّات،

(1) Searle, p.55.

(2) Ibid., p.66.

ممارسات ثقافية، موسيقى، موضة، رقابة، إنترنت...)؛ هي، توفّرها.[
وسواء نجحت التلاعبات الإعلانيّة في هذه الحال أو تلك فإنّها أدّت إلى تغيير كبير في الأولويّات الاجتماعيّة. [هذه العبارة توافق بالتمام ما قاله أوستن حول نجاح الفعل الإنشائيّ (نجحت) وأثره (أدّت). وإذا كان أوستن يقول إنّ الفعل الإنشائيّ ما كان ليتحقّق بتوفيق سعيد *(Bonheur)* أو بنجاح *(Succès)*، فيما لو لم ينتج أثرٌ ما *(Effet)*، فإنّه يبيّن لنا أهميّة الفعل «أدّت» لافتاً نظرنا إليه بوصفه نتيجة لسبب، وليس نتيجة متماهية مع السبب، إذ أوصى أنّ ما أورده سابقاً لا يعني أن يكون الفعلُ الإنشائيّ هو نفسه إنتاجاً لأثرٍ ما[1]. إذاً إنّ تعريف التلاعبات الإعلانيّة ليس معادلاً لتغيير الأولويّات الاجتماعيّة، لأنّنا، رياضيّاً، وإنْ أمكننا اعتبار التلاعب=تغيير، إلّا أنّنا نصطدم بمعادلةٍ متعذّرة وهي: الإعلان=أولويّات اجتماعيّة. بهذه الطريقة نتعرّف نوعين من التأثير: واحداً في المجتمع التزامنيّ المرسَل إليه، وواحداً في المرسَل إليه القارئ اللازمنيّ؛ الأوّل تمثّل بالفعل «أدّت» الواضح، والثاني من خلال تكملة قول أوستن الذي أشار إلى أنّ ثمّة أثراً ينبغي أن يتمّ إحداثُه في الحضور *(Auditoire)*، كي يَحسن الاعتبارُ أنّ فعلاً إنشائيّاً قد أُنجز. ولعلّ هذا التأثير في المتلقّي إنْ هو سوى ما ولّدته المعادلة الرياضية التمثُّلية الآتية، حيث تنبّهنا إلى النتيجة بدلاً من التماهي: التلاعبات+ الإعلانيّة= تغيير + الأولويّات الاجتماعيّة ⇐ التلاعبات= التغيير؛ الإعلان= المجتمع.

---

(1) Austin, p.124.

من هنا نفهم أنّ الإعلان كاد يصير المجتمع، لكنّه لمّا يَصِرْ بعد. وهنا ما أراد الكاتب إيصالَنا إليه: عدم الانجرار إلى اهتمام المجتمع بالإعلان إلى حدّ التماهي به، وكيف أنّ التغيير، حتّى إن بدا إيجابياً، فخلفَه تلاعُبٌ، أي سلبيةٌ في مُطلق الأحوال.

ثمّ لاحِظ كيف أنّ الكاتب ركّب جملته: فإن أصغيتَ إلى بداية الجملة «سواء نجحت التلاعبات الإعلانيّة...»، لَكنتَ ظننتَ بمسارها الطبيعيّ أن تكون تكملتُها «أو لم تنجح»؛ إلّا أنّ الكاتب، وتماشياً مع طرح أوستن لنجاح الفعل الإنشائيّ، لم يدع مجالاً للّانجاح، بل طرح احتمال النجاح أو النجاح، ولكنّه جعل الاختلاف في حالتين (هذه الحالة وتلك).[

ليس فقط أنّ الصحافة تصدر باستمرار الملحقات الهادفة إلى اصطياد المعلنين، وشبكات التلفزة تنظّم توقيت برامجها وفقاً للمعطيات الإعلانية، أو أنّ التحرير والإعلانات تمتزج وتتناسخ استهدافاً لبعض المجموعات الديموغرافيّة («القرّاء الأثرياء» مثلاً) من دون غيرها. فإنّ آلة البيع تستكشف جميع شرايين الحياة اليوميّة وتدوس عليها. [يفترض أوستن أن تكون إواليةُ تحقُّقِ الفعل مضمونة، حتّى في حال أسأْنا استعمالها متى كنّا غير صادقين (*Pas sincères*). في هذا الجزء لفتتنا كلمتان-مفتاحان هما «اصطياد» و«استهداف»، في علاقتهما بما جاء متوازياً مع ثنائيّة السبب وتوضيحه بين قوسين (بعض+الأثرياء)، وفي علاقتهما بثنائيّة النتيجة (آلة+تدوس). هذه

البرمجة المنظّمة المخفية لدى الإعلام، قابلَها تنظيمٌ صريح لدى الكاتب، وها هو ينبش خفايا ما تحت الفعل المنظَّم المُنجَز إعلانياً، ليجعل هذه المتوازنات فعلاً غير صادق. ومع أنّ الغاية الإعلانية تكون قد نجحت في سطوحها، إلّا أنّها تكون قد سقطت بالنسبة إلى محلِّلٍ لأفعال الكلام، لذلك انسجمت هذه المتوازناتُ السيئةُ صفاتُها، مع ما أسماه أوستن لانجاحاتِ خلل الإشعال الطائش *(Misfires,Insuccès)*، جاعلاً هذه التسمية من أنواع الإخفاق[1]، ما دام الإعلان نجح ظاهرياً ولكنّه لم ينجح في أن يكون الفعلُ معادلاً للمقصود الإعلاني. ما يمكن أن يضيفه سيرل إلى تعريف الصحافة من مفهوم الكاتب، هو ما جعل هذا التعريف ناجحاً في سطوحه، حين عرف الكاتب، في تعريفه التهكّمي، أن يعيّن عناصره؛ فممّا أسماه سيرل شروطاً تمهيدية إعدادية *(Preparatory conditions)*[2]، وبحسب أمثاله في هذا المضمار، يمكن أن نكوّن فكرة عن تلك العناصر بالسيرورة الآتية: الصحافة تصدر الملحقات الهادفة إلى اصطياد المعلنين= افتراض وجود صحافة، وهدف، ومعلنين. ولكن يبدو أنّ هذه العناصر جميعاً، بربطها بمنظار أوستن، غير موجودة لأنّها سقطت من عين المتلقّي العارف: فهذه ليست صحافةً صحافة؛ وهذا ليس هدفاً إعلانياً بل هدف لـ- ؛ وهؤلاء ليسوا معلنين، لأنّهم لم يكتشفوا لانجاح الملفوظ، بل اكتفوا بنجاح الخدعة!

---

(1) Cf. Austin, p.50.

(2) Searle and Vanderveken, p.123.

بيدَ أنّ الكاتب، من جهة أخرى، ليس بريئاً كلّ البراءة في إعلان الخبر: فهو حوّله إلى وجهة نظر، وتالياً من موضوعيّة إلى ذاتيّة؛ فحينما قال «إنّ آلة البيع تستكشف جميع شرايين الحياة اليوميّة وتدوس عليها»، لاحظنا أمرين: الأوّل استخدامه المعجميّ للانتقاء الكلاميّ المتطرّف (تدوس)، والثاني تطرّفه من ناحية الأسلوب التأكيديّ المرتبط بتلك السلبيّة، ما فعّلَ هذا التطرّف: إنّ (حرف مشبّه بالفعل للتأكيد)، تستكشف (≠ تكتشف= صيغة «استفعل» للمبالغة مع أنّ الصيغة الثلاثيّة «تكشف» أو الخماسيّة «تكتشف» ليستا بعيدتين عن المعنى المعجميّ نفسه). وإذ لا ننسى «جميع» التي تقدّمت على المضاف إليه «شرايين» وذاك هو الوجه الآخر للتوكيد (الشرايين جميعاً)، فإنّ تقديمها جعلها في مرتبة الاسم البارز المُعوّل عليه تركيباً، وليس نحويّاً (جميعاً=توكيد معنويّ)، أي موقعياً وليس إعرابياً. إنّ أوستن يحقّق في هذا المجال مقاربَـةً لافتة، حين، في معرض أمثلة عـن «الجميع»، ينتقد بعض الزاعمين أنّ التلفّظات المبتدئة بـ«جميـع» *(«Enonciations commençant par «Tous)* هي تعريفـاتٌ توصيفيّـة *(Définitions prescriptives)*، أو دعوةٌ إلى تبنّي قاعدة *(Adopter une règle)*. ولكن أيّة قاعدة؟ هذه الفكرة تتأتّى من فهمٍ سيّئ للمرجع *(Mauvaise compréhension de la référence)* فـي مثل هكـذا تأكيـدات *(Affirmations)*: هـو مرجـعٌ لا يتعدّى المعلوم *(Se limite au connu)* [...] المرجع يتوقّف على المعرفة التي

نملكها لحظةَ التلفظ *(Au moment de l'énonciation)*. حقيقةُ التأكيدات أو بُطلانُها *(La vérité ou la fausseté des affirmations)* تتأثّر بما تستبعده أو تتضمّنه هذه التأكيدات *(Ce qu'elles excluent ou incluent)*، إذ يمكن أن تكون مُضلّلة *(Induire une erreur)*[1].

من هنا، فإنّ ما يبدو عدمَ نجاح لتلفُّظ الشركات الإعلانيّة، قد يكون بالأساس مغالطةً ارتكبها الكاتب، فكان الآتي: مغالطة (نجاح التلفّظ)=ظاهرة عدم نجاح التلفّظ. فهل التلفّظ غير ناجح، أو صيرّه الكاتبُ كذلك؟ أي هل الموضوعيّة باتت مقلوبة بسبب ذاتيّة الكاتب المقلوبة؟ لا يمكن أن نجزم، ولكن لا يمكننا، أيضاً، ألّا نتناول الموضوع من باب الاستثناءات: فثمّة شرايين من الحياة لا يطالها السوق الإعلانيّ السيّئ، وبالتالي لا تكون مُداسةً. وربّما قد لا تصل إليها أصلاً. وربّما قد يُظنّ أنّها شرايين فاعلة، غير أنّها تكون بلا تأثير، فيكون الدوس عليها كاللادوس، وبالتالي لا يكون من اكتشافٍ أصلاً. وربّما يتمّ استكشافُ بعضها ولا يتمّ عليها فعلُ الدوس، أي ربّما يتمّ عليها التأثير الإيجابيّ بعد الاستكشاف.

لكنّ هذه الإشكاليّة يمكن وصفها بالإشكاليّة الكبرى، بما أنّها وردت عبارةَ ختام؛ على أنّ الكاتب، لإثبات وجهة نظره، بادر إلى استخدامِ مثيلاتِ بعض الأفعال الحُكميّة التي أشار إليها أوستن: وقّتَ *(Dater)*، رتّب *(Ranger)*، شخّص *(Diagnostiquer)*، أدان

(1) Cf. Austin, p.147.

(Condamner)، صنّف *(Classer)*[1]: الأولى برزت في «توقيت البرامج»؛ الثانية في «الأولويّات الاجتماعية، وتنظيم التوقيت»، الثالثة في «الاستكشاف»، الرابعة في «الاصطياد»، والخامسة في «بعض المجموعات...».

على أيّ حال، حاول الكاتب أن يربط بين الحقيقة والتحقّق، بين الذاتيّة والموضوعيّة. ولعلّ ذاتيّته هي في وجهها الآخر نقمة، ولئنْ كانت هذه النقمة عاليةَ اللهجة ذاتياً كنتيجة، إلّا أنّ سببها موضوعيّ، والموضوعيّة قبلاً تدعو إلى الذاتيّة الأسلوبيّة، لأنّ هذه الموضوعيّة بذاتها هي متطرّفة في محتواها. الفعل الإنجازيّ تحقّق في الاعتذار *(S'excuser)*، وهذا الفعل وضعَه أوستن في عمود الإنجازيّات *(Colonne des performatifs)*[2]، وهذا الاعتذار (اعتذار نشرته...)، بعد تطرّف المحتوى المحدَّد (19 مقالة)، أتى في ذاته من جانب المخطئ، ما يعني اعترافَه بالتلفّظ غير الناجح، وما يؤكّد، أيضاً، صحّةَ ما جاء عند الكاتب تطرّفاً أسلوبيّاً. على أيّ حال، إنّ مثل هذا الذي جاء في أوّل الخاتمة يجعل الخاتمة بكاملها أقربَ إلى الحقيقة من الكذب في المعلومة، وإن كانت انفعاليةً نظراً إلى ما أسماه أوستن نبرة الصوت، الإلحاح *(Ton de la voix,Insistance)*، علامات الوقف *(Ponctuation)*، ونسَق ترتيب الكلمات *(Ordre des mots)*: فمع

(1) Cf. Ibid., p.155.

(2) Cf. Ibid., p.98.

أنّه اعتبرها كوسائل جزئيّة مُجمَلة *(Moyens sommaires)*، أبقى على اعتبارها ذات مَعونة *(Secours)*[1]. وما دامت هذه جميعاً لافتةً في مُجمَل الخاتمة، وبما أنّها في الخاتمة بعينها أي في موقع القرار الأكثر لفتاً للانتباه، كِمثل نبرة السخرية والحقد (اصطياد، تدوس، استهدافاً، آلة)، التشديد التكرُّري (تكرار «المستهلكين» في الموقع الوسطيّ، تركيزاً على دور المستهلك في تَلقُّف المنتَج وإنْ كان الإعلان يدخل الإنسان بدون استئذان، موقع «جميع» الذي ذكرناه آنفاً)، علامات الوقف من عارضة وسواها...، ترتيب الكلمات («فقط» في موقع مخالِف متقدّم≠ليس أنّ الصحافة... فقط). هذا كلّه يبيّن كلمة أوستن التي نستكمل فيها ما بدأ به مقدّمة الخاتمة: حينما يكون على الأقلّ بعضٌ من التلفّظات الإنجازية سعيداً[...] فإنّ تأكيدات المستنَد تكون صحيحة *(Les affirmations du document sont vraies)*[2].[

(1) Cf. Ibid., p.94-95.

(2) Ibid., p.79.

خامساً: مرحلة الشاشة [تحليلية الوظيفة المعيارية لتخيُّلية الوصف التحديديّ أو التقرير البسيط]

Marc Augé (مارك أُوجِه)
مدير دراسات في مدرسة الدراسات العليا
في العلوم الاجتماعيّة، باريس.
العالم الدبلوماسيّ، حزيران/ جون 2001.
(http://www.mondiploar.com)

[...] جميع «الأبطال» الذائعي الصيت هم «صور» في جزء منهم ويمكنهم أن يتحوّلوا أبطالاً لقصّة من هذا الطراز. [إنّ لفظتَي «جميع» و«هم»، اللتين كان يمكن الاستغناء عنهما نحوياً (الأبطال الذائعو الصيت صور)، ما كان بوسعنا الاستغناء عنهما دلالياً، ما يدلّ على أنّهما أسلوبا تأكيد. إنّ التأكيد الذي يحيل إلى شيء غير موجود، أليس عند أوستن فارغاً أكثر منه باطلاً *(Plutôt vide que fausse)*[1]؟ لذلك وضعَ الكاتبُ الأبطال بين مزدوجين، وإذ وضع الصور بين مزدوجين أيضاً، فكأنّه عادل بينهما: الأبطال=صور. لا يمكن القول إنّ هؤلاء الأبطال غير موجودين، لأنّه سيتمّ ذكرهم بعد حين، ولكنّ ذكرهم كعدم ذكرهم، الكلام عليهم وعلى مقتنياتهم فارغ، ولكنّه حاصل.

(1) Ibid., p.53.

هذا ما سنراه أسلوبياً، حين سنرى كيف أنّ الكاتب لم يطرح اسم العلم البشريّ بكامله، ولم يُسَمِّ أحياناً المُقتنى، فأبرز الفراغَ المعنويّ فراغاً تركيبياً.[

وقد ينزع أولاد التلفزيون إلى الاعتقاد أنّ على المرء أن يصير صورة (الدخول إلى الشاشة والظهور فيها بأيّ ثمن) ليكون وجوده مؤكّداً. [هذا الوجود المؤكّد يردّنا إلى اعتبار الفارغ طريقَ عبور صوب الوجود، وهذا هو الصائب اليوم، لأنّه الشائع! على الحقيقيّ أن يسلك طريق الفراغ كي تصير حقيقتُه الصوابَ المطلَق. من هنا أهميّة العبارة التي لم يكن الكاتب ليذكرها كالآتي: على المرء أن يصير صورة؛ فلقد توقّف، كما أوستن، عند معارَضة التلفّظ الإنجازيّ الأوّليّ *(Performatif primaire)* للإنجازيّ الصريح *(Performatif explicite)*[1]: يعتقدون أنّ على المرء أن يصير صورة. فهذا الفرق هو الذي يحوّل الرمز إلى لاقيمة، بعد أن تحوّل إلى قيمة: يعتقدون أنّ (المرء يجب أن يتحوّل صورة)=يعتقدون أنّه (رمز)=هو عاديّ=فراغ؛ ولكنْ يبقى الاعتقاد هو الحقيقة، هو الاعتقاد بالصواب، لأنّه الصائب الشائع، وليس الصائب المطلق.[

إنّ سيجار كليتون وجوارب رولان دوما وسيّارة اللايدي دي المرسيدس تثير نزعة البصبصة لدى الجميع وتوحي في النهاية بأخلاقيّات متناقضة ومتبادلة في آن واحد. [نلحظ باديء ذي بدء وفرةً

(1) Cf. Ibid., p.90.

أسماء العلم بين البشر (كليتون، رولان دوما، اللايدي دي) والأشياء (المرسيدس)؛ في الجدول الأوّل، لاحظنا طريقة إبراز العلم اختلافيةً بين الاسم والآخَر: فكليتون باسْم شهرته فقط، لأنّه رئيسٌ غنيّ عن التعريف؛ رولان دوما باسْمه الأوّل وشهرته، كي لا يلتبس مع تعريف الكاتب ألكسندر دوما مثلاً؛ اللايدي دي معروفة كذلك بلقبها، وفي ذلك لقبٌ واختصارٌ لحروف الاسم الأوّل، وإقصاءٌ لاسم الشهرة، وكأنّ المتكلّم بذلك يعرّف عنها، كامرأة، لا يُضيف إليها أيُّ رجُلٍ يقترن بها. هذه كلّها تعريفاتٌ غير مباشرة، ولكنّ طريقة عرضها جعلتنا نفهم منظورَ الكاتب إزاءها، وتالياً إشارات تُعرّف بها. التعريف لم يتوقّف عند ذلك: فارتباط هذه الأسماء بأسماءٍ جنسٍ أو علَمٍ أخرى في ثنائيّات واضحة، يجعل، كما تسمية المرسيدس المصرَّح عنها، ما تبقّى من أسماء جنس يسدّ مسدّ العلَم: إنّ الكاتب يقول لنا إنّ سيجارَ هذا، وجواربَ ذاك، تَحوّلا إلى اسمَي علم بذاتهما، أو إنّ علَميّتهما انفقدت لأنّها باتت معروفة لاتّصالها بالعلَم المعروف. بات في التعريف تعريفان إذاً، واكتمل التعريفُ المزدوج بحضورهما معاً ثنائيّاً، وكأنّ كلاًّ من طرفَي الثنائيّة معروفٌ بلا ضرورة تعريفيّة، وفي ذلك يعتبر الكاتبُ أنّ المتلقّي مدرِكٌ أصلاً الإشاراتِ البيضاءَ الغائبة، بما أنّه يعتبر، قبلاً، أنّ هذا المتلقّي قادر على استكمالها ما دام الحاضرُ منها كافياً ليُصنّف وصفاً تحديدياً. نحن نرى الآن مع سيرل، كيف يتناسب ملفوظُ اسم علمٍ ما مع مبدأ التحديد *(Principe d'identification)*:

إذا أشركَ المتكلّمُ والمستمع كلاهما شكلاً من أشكال الوصف التحديديّ *(Description identifiante)* بالاسم المطروح، فإنّ ملفوظ هذا الاسم يكفي لأن يتناسب مع مبدأ التحديد، إذ إنّ كلاً من المتكلّم والمستمع هو قادر على استبداله بوصف تحديدي[1]. من هذا المنطلق تصبح كلّ ثنائية معادلةً أحدُ طرفيها غيرُ المكتملِ تحديدهُ يتّخذ تحديدَه من الطرف الآخر فيُعرَف (سيجار=كلينتون=تصبح ماركته معروفة؛ المرسيدس=اللايدي دي=يصير طرازها معروفاً)؛ وبعد ذلك، تصبح هذه النوعيّات جميعاً دعائيةً ضمنيّاً، وترتفع قيمتها لأنّها لمشاهير.

ولكنّ ذلك كلّه ليس شيئاً إلّا لارتباطه بما جعله المتلقّي رمزاً، فصار الإنسان رمزاً، وبالتالي تَجرَّدَ. إنّه رمزٌ غير فارغ من مضمونه، ولكنّه فارغٌ بالفعل، إذ إنّ قيمته لا شيء، ولكنّه اتّخذ قيمته-من ليصير شيئاً. وهذه هي الحقيقة: أنّ هذه اللاقيمة باتت قيمة.[

ماذا يمكن أن يصدمنا أو أن يجذب انتباهنا في «التسلية» (بحسب عبارة محطّة أم6 المستوحاة من باسكال) المسمّاة «لوفت ستوري» (حكاية شقّة)؟ لا شيء وكلّ شيء. [لاحظ: لاشيء=فراغ؛ كلّ شيء= امتلاء ⇐ الصواب غير معلوم. ثمّ، أنعتبر تلك إجابة؟ عند أوستن أنّه إذا حَدثَ ألّا يستدعيَ تأكيدٌ ما جواباً، فلا طائلَ في ذلك: الأفعال الإنشائيّة، هي أيضاً، لا تستدعي قَطْعاً جواباً؛ فمن الواضح أنّنا، حين

---

(1) Searle, p.225.

نؤكّد، فإنّما نحن نُنتج أو يمكنا إنتاجُ أفعالٍ غائيّة من كلٍّ صنف[1].
ما ظنّه المتلقّي جواباً هو فعلياً ليس بجواب، لأنّ الهوّة الفاصلة بين الكلّ شيء واللاشيء هو امتدادٌ لاحتمالاتِ أجوبة لا نهائيّة، وليس جواباً دقيقاً؛ ما يحوّل هذا التأكيد المزدوج (كلّ شيء+لا شيء) إلى لامحتوىً دقيق، وتالياً إلى احتمالاتِ محتوى، أي إلى فعلٍ غائيّ: فهل العبارتان «يصدمنا أو يجذب انتباهنا»، و«لاشيء وكلّ شيء» جاءتانا بالتوازي القصديّ؟ أي هل أنّ الذي يصدم هو اللاشيء، والذي يجذب هو كلّ شيء؟ أو أنّ حرف التخيير «أو» يجعل الأولوية لأيٍّ من الفعلين، كما أنّ حرف العطف غير التعقيبيّ «الواو» يجعل الأولويّة كذلك لأيٍّ من الفراغ والامتلاء؟ نصبح عند احتمالاتٍ متكاثرة، ومنها نكون أمام تأويلاتٍ أوسع اجتماعياً ونفسياً وتقنياً: اللاشيء يصدم+كلّ شيء يصدم+كلّ شيء يجذب+لاشيء يجذب. أتكون تلك سخرية؟ أم تحامُلاً؟ أم تنبيهاً؟ أم ثناء؟ هذه أهميّة الجواب اللاجواب، الانفتاح الغائيّ الضمنيّ.

لقد تنبّه الكاتب إلى ضرورة استكمال النواقص الجازمة، بعد أن طرح إجابةً ثنائيّة (كلّ شيء+لا شيء)، وتقدّمَ بها إلى ثنائيّتين أخريين (جهة الخيال+جهة الواقع)، مستعيناً بعبارة «درجة إضافيّة»، لكأنّه عارفٌ أنّ عليه استكمال ما بدأ به، بالتوازي مع تكهّنات الآخَر، المتلقّي. حينئذٍ، تصبح الإجابةُ اللاإجابةُ إجابةً في ذاتها. فلقد قلنا مع أوستن إنّ عدداً

(1) Austin, p.144.

من الأفعال الإنشائية يثير اصطلاحياً إجابةً أو منظومةً *(Suite)*. يمكن أن تكون أحاديةَ الجانب أو ثنائيّةً *(Unilatérale ou bilatérale)* [...] إنْ أُعطيتَ الجواب، أو إذا بُوشرَ العمل على المنظومة، فالمتوجّب على ذاك الذي يتكلّم، أو على سِواه، فعلٌ ثانٍ[1].[سوى أنّ كلّ ما فيها يتناسب مع درجة أعلى من درجات الالتباس. درجة إضافيّة لجهة الخيال: من يمكنه تصديق حقيقة هذه الجزيرة؟ إنّها ليست سجناً بما أنّه يمكن الخروج منها أسرع ممّا كنّا نظنّ. إنّها مكان مفبرك تقريباً، نوع من نادي السياحة (Club Méd) لكن في الضاحية المدينيّة. وللإمعان في اللاواقعيّة، إنّها شقّة بدون جهاز تلفزيونيّ. درجة إضافيّة لجهة الواقع: إنّه قانون المجموعات الصغيرة أن ينفرط عقدها عند الممارسة (وهذا ما يعرفه علم النفس الاجتماعيّ). [في هـذا القسم ما يذكّرنـا بالقواعـد التأسيسيّة عند سيرل الذي يـدّعي أنّ القاعـدات المعياريّة *(Règles normatives)* تحكم أشكالاً من التصرّف سابقةَ الوجود *(Formes de comportement pré-existants)* أو موجودةً بطريقة مستقلّة، كقواعد التهذيب على سبيل المثال التي تحكم العلاقات البَيْشَخصيّة الموجودة مستقلّةً عن القواعد[2]. لا يمكن أن نتغاضى عن قواعد التهذيب (علم النفس)، ولكن في علاقته الشخصيّة التداخليّة (+الاجتماعيّ). كما انّ ما وضعه الكاتب بين قوسين، هو

(1) Ibid., p.125.

(2) Searle, p.72-73.

لإظهار الموجود مُسبقاً، فعلم النفس الاجتماعيّ علمٌ موجودٌ قبل حالة خاصّة تُدرس كمثال (قانون المجموعات)، كما أنّ عبارة «وهذا ما يعرفه» تعني المعروف أصلاً. إنّ ربط العلم النفسيّ الاجتماعيّ المعياريّ بوصفه محدّدَ الخطوات، بالقانون، يجعلنا نُكمل قول سيرل في الموضع نفسه، بخاصّة أنّ أسلوب إدراج القواعد التأسيسيّة، كما يحدّدها سيرل في موقع آخر، يُعبّرَ عنه بالآتي: «... هو *(Est)* عندما *(Lorsque)*...» (إنّه قانون المجموعات الصغيرة، أن ينفرط عقدها عند الممارسة)[1]: وأمّا القاعدات التأسيسيّة فليس لها وظيفة معياريّة صِرْف *(Fonction purement normative)*، وهي تخلق أو تعيّن أشكالاً جديدة من التصرّف [...] كما أنّ قواعد الشطرنج مثلاً لا تقول فقط كيف نلعب [...] ولكنّها تخلق تقريباً حتّى إمكانيةَ اللعب [...] عليه، فالقواعد المعياريّة ذاتُ وظيفة لإدارة نشاط سابق الوجود، نشاط وجودُه مستقلٌّ منطقياً عن القواعد، فيما القواعدُ التأسيسيّة تؤسّس نشاطاً وجودُه يرتبط منطقياً بهذه القاعدات[2]. لذلك ينفرط عقد القانون عند الممارسة، إذ إنّ قانون المجموعات ليس مستقلاًّ عن المجتمع في حدّ ذاته، وهو بالتالي قابل للتغيّر، أي إنّ نشاط الممارسة، وإن كان مرتبطاً بقواعد القوانين، إلّا أنّ ذلك يعني، بالمنطق، أنّ القانون أيضاً، بشكل عكسيّ، مرتبط بتحوّلات الممارسة الاجتماعيّة. بكلمة، هذا القانون ما

(1) Ibid., p.73-74.

(2) Ibid., p.72-73.

كان ليحددَ كيف تنتظم المجموعات، بل أعطى الإمكانية، على الأقلّ، للممارسة، ما يمكن، بدوره، أن يخلق سلباً أو إيجاباً، في دورة جديدة من القانون-الممارسة-القانون. من جهة إضافية، إنّ قواعد اللعبة واضحة: لوفت ستوري= تسلية+ ليست سجناً+ يمكن الخروج منها أسرع ممّا كنّا نظنّ+ مكان مفبرك+ نوع من نادي السياحة+ في الضاحية المدينيّة+ شقّة بدون جهاز تلفزيوني؛ ومع ذلك، بما أنّ الواقع مرتبط بالخيال، فإنّ تلك التأسيسات تصير إمكانيةَ تأسيس.

إنّ ما أسماه الكاتب «جهة الخيال» يتناسب مع ما أسماه سيرل «المعطيات المتخيَّلة»: ومع أنّه أوضح بعض خصائص اللعبة، غير أنّه أبقانا بعيدين من ميدان التخصيص، وكيفية تعريف اللعبة. هذا التعريف كان ينبغي أن يكون وصفياً، بمعنى الموضوعيّ، وليس الذاتيّ فحسب، لناحية الاستعارة أو التشبيه أو المنظور الشخصيّ (سجن، نادي السياحة، مفبرك). الدقّة مفتقَدة، وكذلك محتوى الدقّة، وإن كان الأسلوب يتظاهر بها (تكرار الحرف المشبة بالفعل «إنّ»)، ما دام إلى جانبه ما يخفّف منه (تقريباً، نوع من...). غيرُ مهمّة كميّةُ المعطيات المتخيَّلة *(Données imaginables)* التي يمكن للمشاهدين تجميعها، وغير مهمٍّ عددُ التعميمات الاستقرائيّة *(Généralisations inductives)* التي يمكن أن يستخلصوها من تلك المعطيات، فإنّهم ما فتئوا في مطلق الأحوال لا يصفون كرة القدم [مثلاً]. ما الذي ينقص وصفَهم إذاً؟ ينقصه جميعُ هذه المفاهيم المتعيّنة بقواعدَ تأسيسيّة [...] وما ينقص،

بالتالي، هو جميع التأكيدات المتنوّعة التي يمكن القيام بها حولَ كرة القدم (اللعبة هنا) مستعينين بتلك المفاهيم. على أنّ هذه التأكيدات تحديداً هي التي تصف [...] الفعلَ الذي يجري على الميدان، بوصفها جزءاً من [اللعبة]. الأوصافُ الأخرى، أوصافُ الأفعال الخام، يمكن أن يعبرّ عنها بأفعال مؤسّساتية[1]. التعريف إذاً صرفٌ، لكنّه مشكولٌ بجهة الواقع، غير أنّ تنبّهُ الكاتب إلى ضرورة الواقع في الميدان لم يجعله يدخل فعلياً في الميدان (كيفية وصف السجن، الطرق، الزوايا، التقسيمات، باب الدخول والخروج، الشخصيات، الألوان، نقاط الخسارة ونقاط الربح...)[

اللغة والشكوك والغضب والبكاء كلّها حقيقيّة. وهذا ربّما ما يصدم البعض أكثر من غيره: هذا الوجود البريء والمثابر والفظّ لجيل آخر ولطبقة اجتماعيّة أخرى. درجة إضافيّة لجهة التورية: الكاميرات مزروعة في كلّ مكان لكنّنا لا نرى سوى ما يعرضونه علينا. ودرجة إضافيّة لجهة السادية: الممثّلون يلغون (أو «يسمّون») بعضهم بعضاً. خطر «التسمية» يغذّي في هذا الجوّ المغلق كرهاً جديراً بمسرح راسين. أخيراً درجة إضافية لجهة ما يجب تسميته الفحش: الإخراج والتعرية واللحم الطريّ. [إنّ جزء الكلاميّ لدى سيرل حولَ أسلوبِ إدراج الفعل المؤسّساتيّ، لَقينا تكملتَه هنا مع الكاتب: فذاك القائل بأسلوب إدراج الأفعال المعيارية التي ارتبطت بالتصرّفات النفسية الاجتماعية

(1) Ibid., p.93-94.

أعلاه، يؤكّد أنّ أسلوب إدراج هذه الأخيرة ينشأ من صيغة الأمر *(Tournure impérative)* أو ما يعادلها[1]. إنّ ربط «يجب» بالتصرّفات الأخلاقيّة (يجب تسميته بالفحش... التعرية) يؤكّد أنّ الفعل المعياريّ موجود بالفعل.

هذا الفعل المعياريّ متّصل بفعلٍ إنشائيّ ما لبث أن بات إنجازيّاً، محوّلاً الفعلَ الكلاميّ إلى معيارٍ، إلى فعلِ فعل. وهذا المعيار-الفعل أهميّتهُ ليست في التسمية، بل في أمرين يسيران جنباً إلى جنب: عدم إمكان تسمية المُسمّيات «فحش، تعرية، لحم طري» بتسميات أخرى- على شاكلة ما فسّره أوستن، حيث للتسمية فعلُ التعميد *(Nommer, baptiser)*- وإن يكن يبدو أنّها لا تتعدّى تأثيرَ التسمية أو التعميد، إلّا أنّ بعض الأفعال بعد ذلك، كمحاولاتِ تسميات أخرى، تصير كأنّها لم تكن *(Nuls et non avenus)*[2].

ثانياً ما يجعل الكاتبَ يبدو في موقع القادر أو الأهل لفرض هذه التسمية، خصوصاً أنّها في ميدان الأخلاق. فأوستن، من بين ما يُدرجه في لائحة الفَرْضيّات *(Exercicifs)*، فعلا «أطلق تسمية *(Effectuer une nomination)*، وأمر *(Ordonner)*»[3]. ولكنْ ثمّة مشكلة تبقى عالقة، وهي أنّ مثل هذه الأفعال الإنجازيّة، والتي تُعمّد التسميات في لغة أوستن *(Baptiser)*، لا تُقرّر شيئاً البتّة

(1) Cf. Searle, p.73-74.

(2) Cf. Austin, p.124-125.

(3) Cf. Ibid., p.154,157.

(Ne constatent absolument rien)، ليست بصحيحة أو باطلة *(Ne sont pas vraies ou fausses)*، كما انّ الجزء الآخر من المشكلة هو أنّ هذا التلفّظ، مع ذلك التوصيف غير الفاصل في حُكمه، يمكن أساساً ألّا يكون قابلاً لأن يقال، بخاصّة، كما يكمل أوستن، حينما لا أكون الشخصَ المعنيّ لإجراء هذا التعميد *(Personne designée pour procéder au baptême)*[1]؛ فهل، فعلاً، تصير أيّةُ تسمية لاحقة غيرَ ذات قيمة، علماً أنْ لا قيمةَ ممكنةٌ حتّى في الإطلاق الأوّل للتسمية؟ هي ذات قيمة، طبعاً، في وجهة النظر الحديثة التي أعطاها الكاتب في السياق، ولكنّ اللاقيمة هي في حال عدم اتّخاذها مبدأً لدى المتلقّي. لكأنّ المهمّ عند الكاتب، في ربط الإنجازيّ بالفرضيّ، أن يفرض التعريفَ كما يتصوّره هو، هو فقط! إنّه تعريفٌ انفعاليّ.

وإذا كان الكاتب يستخدم عبارة «كلّها حقيقيّة»، فذلك كي يسدّ مسدّ الصوابية والخطأ في الفعل الإنجازيّ، فأبدى رأيَه قبل إظهار الانفعال، ما علّل من جديد قولَنا إنّه يفرض وجهة نظره، وكذلك يفرض علينا رأيه بوجهة نظره! بذلك، حوّل الإنجازيّ إلى لَحْظيّ، ولكنّ هذا اللَحْظ كان داخلياً وذاتياً في آن، ومؤكّدا بعبارة «ما يصدم» *(Choqué par)*، وهو فعلٌ جعله أوستن من لائحة التقريرات البسيطة *(Simples constats)*[2].]

(1) Cf. Ibid., p.40-41.

(2) Cf. Ibid., p.99.

لماذا تأسر هذه «الاضافة» جمهوراً في أكثريّته من الشبّان؟ لأنّه يعطي كلّاً من المشاركين حقيقته «الصوريّة» الكاملة. [لاحظ كيف يستكمل الكاتب الجزمَ حولَ كلمة «حقيقة»=الكاملة، وهو يوهمنا بأنّ ما يقوله حقيقة. وفي ذلك قام بالاستنباط قبل إيراد الأسباب. ولكن هل كانت الأسباب (فـ=لأنّ...) جديرةً بأن يقال لها غير ذاتية؟] فالبكاء على اللايدي دي أو البكاء على عزيز (المطرود من الشقّة) سيّان. بين الموت الحقيقيّ والموت الرمزيّ للآخر الفارقُ ضئيل في نظر من تماهوا معه. وفي الحالين إنّه موتُ صورة. بيد أنّ الصور لا يمكن ولا يفترض بها أن تموت. فهي موجودة لكي تساعد على الحياة، على الاعتقاد بأنّنا موجودون. وساديّة اللعبة الأخيرة تقوم على قتل الصور بعد اختراعها. [إنّ كلمة «سيّان» هي الأساس اللافت هنا؛ إذ هي في موقع الخبر لمبتدأين معطوفين، هما واحد (البكاء)، ولكنّ مُلحَقهما مختلف، ويجعلهما مختلفين (البكاء على اللايدي دي =؟ البكاء على عزيز المطرود). كي تَصحّ المعادلة أصلاً ينبغي أن تكون المعادلة الآتية، بما أنّ البكاء مشترَك: اللايدي دي= عزيز المطرود. هذا لا يصحّ إلّا في حال كان من منظور مُتَلقٍّ يرى العزيزَ هو القريب. فبالنسبة إلى قريب، أيُّ ميت هو «عزيزٌ»، ويستدعي البكاء، ولا فارق بين «بكاءين» من منظور قريبَين. إنّ اسم العلم «عزيز» تحوّل إلى صفة، فوهب صفته لأيٍّ مندوب بالنسبة إلى قريبه. حالة ثانية: التعادل يصحّ في حالة التجريد، ما ذكره الكاتبُ بالموت الرمزيّ: يعني بذلك أنّ

الانفعال المنساق إلى الرمز، هو واحد، لأنّ لكلّ إنسان انفعالاً يكاد يكون واحداً في حالات متشابهة. كما تلاحظ كيف أنّ السواسية أتت بتعادلِ علَمين، مختلفين كليّاً، ما يجعل الإنسانَ الفاعل والإنسان الفاشل - الذي عبُرّ عنه بين قوسين -، الإنسان المعروف والإنسان البسيط (الاكتفاء بحرف «دي» = التوصيف التعريفيّ بين قوسين). السواسية، ما دامت في موقع الخبر، يمكن أن نتوقّع من خلالها العديدَ من الأخبار: البكاء على اللايدي دي والبكاء على عزيز المطرود عظيم/ مؤثّر... هذا كلّه، بالمعادلة والربط بالخبر الواحد، يجعلنا أمام ما أسماه سيرل مسلّمة التماثل *(Axiome d'identité)*، حيث متى كان المُسنَد الخبر *(Prédicat)* صحيحاً لموضوعٍ ما، كان صحيحاً لكلّ ما هو مماثل *(Identique)* لهذا الموضوع، بغضّ النظر عن التعبير المستخدَم للإحالة إلى هذا الموضوع[1].]

المرآة لا تكفي. تَلزم الشاشة ونظرة الآخرين. [أكّدنا ذلك قبل ذكره، حين تكلّمنا على منظور المتلقّي.] بدون الشاشة، تموت الصور بسرعة حتى لو انّ الصحافة المتخصّصة تنفخ فيها شيئاً من الاوكسيجين ووهم البقاء ولو لبعض الوقت.

تجتمع في «لوفت ستوري» جميع السمات المميّزة للأيديولوجيا التي نعيش فيها، أيديولوجيا الحاضر التي تستخدم اللعب أداةً وتترجم بالالتباس الواقع بين الأشخاص الحقيقيّين والممثّلين والشخصيّات

---

(1) Searle, p.121.

الخياليّة. وعلى غرار سائر الأيديولوجيّات أنّها مشتركة بين من يحرّك اللعبة ومن ينفعل بها، بين من يستغلّها ومن تستغلّه. فالجديد ليس هنا. إنّه لجهة التمييز الذي أدخله فرويد بين الولد والمراهق. قال إنّ الولد لا يخلط بين عالم ألعابه والحقيقة، خلافاً للمراهق الذي يصدّق تهويماته. [يميّز أوستن الفعل الكلاميّ «قال إنّ» *(Il a dit que)* [...] من الفعل الغائيّ «أقنعني» *(Il m'a convaincu que)*[1]. وبعد «قال»، أتى الكاتب بكلمة «الاستنتاج» داخل الاستنتاج عينه، فحوّل القولَ إلى قناعة، لأنّ الاستنتاج جزءٌ من عمليّة المتالية البرهانيّة. على أنّ الفعل «استنتج» *(Conclure)*، ملفوظاً بذاته، هو من الأفعال التي يقول عنها أوستن إنّها إنجازيةٌ خالصة *(Performatifs purs)*، مرْضيةٌ بالكامل، مع أنّه يبدي انزعاجاً من رؤيتها هكذا متّحدةً بقضايا ذاتِ طابع التأكيد الصحيح أو الباطل[2]. يمكن أن نتقل، مطمئنّين، إلى القسم التالي، إذ إنّ الاستنتاج أتى بعد الفعل «يمكن». الكاتب يصل إلى حقيقته، ولكن ليس إلى الـ-حقيقة، لأنّ الحقيقة لا تحتمل الاحتمال. لقد طَمْأن أوستن أيضاً، فلم يخدش نظريّته التي فضّلت إقصاءَ الجزم.]

يمكن الاستنتاج من ذلك أن الإنسانيّة اليوم لا ترجع إلى عهد الطفولة بل هي تجهد للخروج من زمن المراهقة. [لقد أحسّ الكاتب أخيراً أنّ إطلاقَه التسمياتِ والملاحظاتِ القيميةَ انفعاليٌّ ولمّا يستندْ

(1) Austin, p.114-115.

(2) Cf. Ibid., p.103.

إلى موضوعيّة في مجمل الأمر. فأدخل قولَ فرويد، وحسناً فعلَ في مَوقعية القول في ختام الخاتمة، لأنّه بذلك أثّر في المتلقّي فصدّق ما لم يصدّقه سابقاً. ولكنّ هذا التصديق لم يأتِ نتيجةَ الموضوعيّة، بل نتيجةً لتصديق المرجعيّة النفسيّة «فرويد». فكان من الكاتب أن لعبَ اللعبةَ الذكيّة الآتية: المتلقّي صدّق فرويد، ولكنّ الكاتب استعان بفرويد، فلكأنّ المتلقّي صدّق الكاتب. وإذا كان لفرويد الحقُّ بالقول، إلّا أنّ الحقّانية انتقلت إلى مَن استعان به، فنجح الاستنتاج، وإن لم يكن المستنتجُ نفسُه هو مَن يحقّ له الاستنتاج، لأنّ الاستنتاج كان عليه أن يُبنى على معطيات البرهنة، وليس على قولٍ أخير. فمع أنّ البرهنة لم تكن موضوعيّة بالقدر الكافي، كان الاستنتاج مؤكّداً (المرآة لا تكفي. يلزم ...)؛ ولكن هل كان صحيحاً؟ ربّما كان صحيحاً بسبب الاستعانة بتعريف فرويد، ولكنْ هل يجعل ذلك الأمرُ منظورَ الكاتب إزاءَ لوفت ستوري صحيحاً؟ عند أوستن أنّ ثمّة توازياً من جهة *(Parallélisme)* بين الاستنباط والبرهنة الصائبَين أو السليمين *(Déduction et démonstration saines ou valides)*، وبين التأكيد الصحيح من جهة أخرى؛ ليست القضيّة فحسبُ أن نعرف ما إذا كان أحدُهم قد برهن أو استنتج، ولكنْ أن نعرف ما إذا كان لديه الحقُّ بأن يفعل، وإذا كان قد نجح[1]. ونحن لا نعود واثقين ما إذا كان الكاتب

---

(1) Ibid., p.145.

قد عملَ بتوصية سيرل الذي بنى ما أسماه الاستدلال الاستنباطيّ السليم *(Raisonnement déductif valide)*، أي، إذا كان قد عرف كيف كانت مقدّماتُه المنطقيّة *(Prémisses)* قد أوصلت إلى استنتاجه *(Conclusion)*[1]. فهل دخل قولُ فرويد من ضمن مقدّمات الاستنتاج، أو توصّلَ به الكاتبُ، ومن خلاله وحده، إلى الاستنتاج؟

على أيّ حال، عرف الكاتب كيف وأين يستخدم اسمَ العلم: ففي المقدّمات جعلَنا نصدّق بالتأثير الانفعاليّ، وفي الاستنتاج جعلنا نصدّق بالتسليم للعالِم النفسيّ المشهود له. قوله بات تعريفاً مسلَّماً به. فاكتمل فعلُ الكلام ذو المرجع *(Acte de langage de référence)*، الذي ذكرَ سيرل أنّ أسماء العلم تُعين بشكلٍ شبه حصريٍّ على إتمامه[2]. ولولا المرجع، لَما تغيّرت العبارة اللاحقة، ولكنْ لَتغيّرت مستوياتُ الصدق التي لا بدّ من أن تَميل صوب الشكّ حينئذٍ. بالمرجع، بات هذا التلفّظ متّخذاً تسميةَ الفعل التكلّميّ الخبريّ= قال إنّ الولد *(Acte rhétique)*، بدلاً من أن يبقى حقيقةً ذاتيّةً في فعلٍ تكلّميٍّ صوتيّ *(Acte phatique)*[3].

وتالياً، تحوّلَ تعريفُ الطفل في علاقته بالزمن، إلى معيارٍ تحليليٍّ معترَف به *(Critère analytique)*، وهو، عند سيرل، مختلف جداً عن

---

(1) Cf. Searle, p.184.

(2) Ibid., p.215-216.

(3) Cf. Austin, p.108.

المثالِ الآتيّ غيرِ التحليليّ *(Non analytique)* الذي لفظَه بنفسه «ابني أكل تفّاحة»[1].

ولكن، على الرغم من أهميّة اختيار العلَم-المرجع، وتصديق القول، إلّا أنّ تصديقه يمكن أن يكون لحظةَ تلقّي القول ليس إلّا: فربّما بعد الانفعال السمعيّ الأوّليّ، كانت مرحلةٌ أخرى، مرحلةٌ تحليليةَ حوّلت التعريفَ التحليليّ الخالص إلى تعريفٍ تحليليٍّ غير خالص. لا نقول إنّه يتحوّل إلى تعريفٍ غير تحليليّ في مصطلح سيرل، بل نقول إنّ معياره التحليليّ يتهاوى بعد التفكّر؛ فثمّة خيطٌ واهٍ بين التعميم والحالة الخاصّة، إذ ما من شيء كُلّيّ الحقيقة، وهو ما كان على الكاتب أن يفهمه، فيتجنّبه في إطلاقه «الحقيقة» مرّتين. وكما أورد سيرل مثالاً عن الكلّيّة، يمكن تطبيقه على قول فرويد: فليس كلّ ولد كذا، وليس كلّ مراهق مخالفاً لكذا. فذلك ما أسماه الحالة-الحَدّ *(Cas limite)*. ولا يعلم سيرل بدقّة إلى أيّ فئة ينتمي: أهو تحليليّ أم غير تحليليّ؟ غير أنّه لا ينكر أهميّة التعميم، إذ يدّعي أنّنا لن نقدر على تحديد هكذا حالات-حدود لمفهومٍ ما *(Concept)*، إن لم نكن سابقاً قد تَمكّنّا جيّداً من هذا المفهوم[2]. من جهة، تالياً، ينبغي أن نتأكّد من صحّة هذا التعريف بما أنّه غير موثّق، أي أن نعود إلى مرجع-كتاب آخر، وأن نعود به إلى سياقه، سواء مشروحاً في ذاك الكتاب، أو مطروحاً في الكتاب-

---

(1) Cf. Searle, p.42.

(2) Cf. Ibid., p.43.

المصدر الفرويديّ نفسه؛ وثانياً ينبغي أن نعود إلى المفهوم–الولد في هذا النصّ بالذات. بكلمة، الحالة–الحدّ ذات مقارنتين: واحدة بين المفهوم الخارج–هذا النصّ وبين حالاتٍ استثنائيّة ممكنة وردت في هذا التعريف، ما يجعل هذا التعريف عينه في حُكم الحالة–الحدّ، وواحدة بين المفهوم–في هذا النصّ، وبين حالات استثنائيّة ممكنة في عالمنا...؟

سادساً: السجون الفرنسيّة من العمل المباشر إلى الجرائم العاديّة.
هل يحقّ للمجتمع أن يثأر؟ [استعمال الكلمة بين تمثيل العنصر وتقديمه الإشاريّ الوصفيّ]

Edgard Roskis (إدغار رُوسكِيس) – صحافيّ، أستاذ محاضر مشارك في قسم الإعلام والتواصل في جامعة باريس العاشرة.
العالم الدبلوماسيّ، تمّوز 2001.
(http://www.mondiploar.com)

[...] إثر الأحداث الأخيرة التي جرت في سجن فرين (أيّار/ مايو 2001)، وحيث فشلت محاولة للهرب بواسطة طوّافة، كما فشل تمرّدٌ واسع للسجناء، أعلنت وزيرة العدل الحاليّة ماريليز لوبرانشو اهتمامها بتحسين نظام الحماية من اختراق السجون بواسطة طائرات الهليكوبتر.
[إنّ المحتوى الذي نقله الكاتب عن نيّة الوزيرة هو من أهمّ المحتويات التي يمكنها أن تبيّن نيّة السلطة الإيجابيّة، باستخدام كلمات-مفاتيح مثل «اهتمام+تحسين+نظام». إنّ كلمة «تحسين» على وجه الخصوص هي التي نظر إليها سيرل على أنّها أهمّ فعلٍ لتحسين النظام العلائقيّ بين الأطراف؛ فهو يعلن أنّ التسوية المستديمة *(Constant adjusting)* لعلاقات القوّة المؤسّساتيّة هي بالطبع نظريّةٌ أونطولوجيا الواقع

الاجتماعيّ الأكثرُ تأثيراً التي لدينا في الوقت الحاضر[1] - لاحِظ بعد ذلك مباشرةً بروزَ مفهوم «القوّة العمّاليّة» مقرونةً بمفاعيلها. [وهي إذ تحرّكت تحت ضغط نقابة حرّاس السجون التابعة لـ «القوّة العمّاليّة»، [الفعل «أعلنت»، مع أنّ مرجعيّته وزيرةٌ لها حقُّ الإعلان وقيام الفعل الكلاميّ بنجاح، إلّا أنّ حال اللاصدق تبقى مطروحة لحظةَ التكلّم، إذ، كما يقول أوستن، ينبغي كلَّ مرّة في اللحظة التي أتكلّم فيها أن تكون عندي هذه النيّة، إن أردتُ اجتنابَ اللاصدق، ولكنْ ما ستكون بدقّة درجةُ أو نوعُ الإخفاق، فيما لو لم أتحوّل بعد ذلك إلى الفعل ؟[2] فعليّاً، إنّ العبارة اللاحقة، بعد عبارة «تحت الضغط»، جعلت التحرّك والاهتمام والتحسين وعداً فاشلاً، لأنّ نيّة الوزيرة مضادّةٌ للطرح الكلاميّ؛ ما حوّل الفعل الحُكميّ «أعلن *(Déclarer que)*» الذي تمّ تصنيفُه هكذا عند أوستن[3]، إلى مجرّد استعراضٍ سوف نفصّله بعد حين. [

وإذ تجاوبت بصورة مشروعة مع مطالب الموظّفين الذين يقوم دورهم بحسب مقابلة أجرتها إذاعة «فرانس - انفو» في الفترة نفسها «على أنّهم رجالٌ مكلّفون حراسة رجال آخرين»، فإنّها لم تسمع ربّما شهادة أحد الحرّاس الذي اتّخذه اثنان من المتمرّدين رهينة. [يقول

---

(1) Cf. Barry Smith: John Searle (From speech acts to social reality), Cambridge University Press, 2003, p.21.

(2) Austin, p.72 -73.

(3) Cf. Ibid., p.105.

أوستن إنّه من البداهة بمكان، لكي يكون الفعل وَعوداً *(Acte promis)*، أن يكونَ أحدُهم قد سمعني [...] أن يكون هذا الأخيرُ قد فهمَ أنّني كنتُ أعِد [...] وإلّا قيلَ إنّ فعلي ما كان سوى محاولة *(Tentative)*[1].

فنحن نكاد لا نتيقّن من وجود مؤشّراتِ حضور المتلقّي/ المتلقّين: فالإعلان الأوّل هو اهتمامٌ بدون لَحْظ الجمهور الموجَّه إليه الخطاب؛ والتجاوب المشروع لم يؤكّد حضور الموظّفين المطالِبين؛ وأمّا عدمُ سماع شهادة أحدهم، فربّما لم يكن في اللحظة الكلامية، أي ربّما كان على شاشة التلفاز أو ما شابه، وربّما كان دليلَ حضور، ولكنّ عدم السماع يعيدنا إلى الجزم بكون الفعل الكلاميّ غيرَ سعيد.

كما نكاد لا نجد مؤشّراتٍ حولَ شرعيّة البيان، على الرغم من أنّ التي أعلنته هي صاحبة الحقّ الشرعيةُ في إعلانه: فهل هو مكتوب؟ أين مصدره إعلامياً؟ هل الكلام المنقول حرفيٌّ أو مجتزأ أو مختصَر أو مُجمَل؟ لمّا يكتملْ إذاً الفعلُ الإنجازيّ، الذي كان علينا أن نلقاه كالعادة في مستنداتٍ شرعية[2]. كما نسأل، انطلاقاً من السياق *(Contexte)* الذي دوماً تتوقّف الخاصّيةُ الإنجازيةُ للملفوظ جزئياً عليه، والذي يضمّ حتّى الهيئةَ الموصوفة الخارجيّة للمتكلّم التي قد نظنّها ثانويةً في إنجاز الفعل الكلامي[3]: هل كانت الوزيرة مرتديةً زيّاً رسمياً؟ هل كانت في دردشة مع الصحافيّين، أو في مقابلة عابرة، أو في

(1) Ibid., p.55.

(2) Cf. Ibid., p.82.

(3) Cf. Ibid., p.105.

تصريح، أو في مؤتمر...؟ ذلك كلّه يميزّ شرعيةَ الخطاب. من هنا، لا نعود، كما ذكرنا أعلاه، في حيزّ اعتبار الإعلان ناجحاً أو فاشلاً في نيتّه، بل يصير عُرضةً لاعتباره غيرَ موجود بالأساس، خطأً، أو خطأً باعتبار المنقول غيرَ صحيح. قضيةّ التعريف تتّخذ إذاً مناحيَ عديدةً غيرَ أخذِ عناصرها المعجمية كما جاءت في التركيب. وهذا لا يناقض ما قاله أوستن بأنّه من الطبيعيّ أن نتجرّ نحو الحقيقة أو الباطل *(Vérité ou fausseté)* في مجال الحُكميّات *(Verdictifs)* على سبيل المثال: ... أعلنَ (بشكلٍ صحيح أو غير صحيح) أنّ ...[(1)]

قال هذا السجّان، الرهينة السابقة، وهو يدير ظهره إلى كاميرات التلفزيون: «لا يمكن القول إنّنا شعرنا بالودّ المتبادل لا، إنّه لم يكن ودّاً. [لسنا هنا أمام تعريف موضوعيّ، بل أمام تعريف ذاتيّ، انفعاليّ؛ بداية بدأ احتمالياً (لا يمكن)، ومن ثمّ بات تأكيدياً (لا)، ومن ثمّ تدرّج إلى الأكثر تأكيديةً (إنّه...). حتّى عبارةُ الاحتمال «يمكن»، حين عُكست بالنفي (لايمكن)، كانت بادرةَ تأكيد للاّاحتمال. وهذا فارقٌ كبير عن القول: يمكن القول إنّنا لم نشعر بالودّ المتبادل. نفيُ الاحتمال عن الإثبات، كما جاء عند الكاتب، هو أقوى من إثبات الاحتمال المنفيّ. ففي الموضع الثاني تبقى الأولويةُ للاحتمال. ما يعني أنّ المتكلّم ساعد الكاتب على تصوير ما فعلَه، أو أنّ الكاتب صورَ بدقّة ما قام به المتكلّم. لا يمكن ألاّ

(1) Cf. Ibid., p.145.

يتّبعَ هـذا الأسلوبَ الكلاميَّ إشاراتٌ مساعدة للكلام. هذا النوع من التعابير التحديدية *(Expressions identifiantes)* التي اختصرها سيرل بالوصف التحديديّ هي، على ما يقوله، تقديمٌ بوساطة عناصر إشاريّة *(Eléments déictiques)*، أو وصفٌ يحيل إلى عنصر فريد *(Unique)*، أو تعيينٌ من خلال التوفيق *(Combinaison)* بين العناصر الإشاريّة والألفاظ الوصفية *(Termes descriptifs)*. وعلى المتكلّم أن يَجهد في استكمال التقديم الإشاريّ الصرف *(Présentation purement déictique)*، بلفظٍ وصفيٍّ عامّ، إذ يمكن أنّه حين يشير المتكلّم بإصبعه إلى شيء ماديّ ويقول «هذا» *(Ceci)*، فنحن لا نعلم دوماً بطريقة غير التباسيّة ما إذا كان يقصد اللونَ أو الشكلَ أو وسطَ الشيء أو الشيء الذي يحيط به[1]. «هذا» السجّان هو من ضمن كلام المتكلّم-الكاتب. وكلامه هو، هو من ضمن كلام المتكلّم المنقول مباشرةً. من هنا، فإنّ «هذا» عنصرٌ إشاريّ للكاتب، وهو، على ما يبدو، إشارةٌ انفعاليّة، لا جسديّة، حتّى إنْ كان الموصوفُ جزءاً من الجسد (ظهره هو الاتّجاه المشير=يدير، وليس الإصبع، وهذا يعني أنّ مدار المشار إليه واسع، هو يحيط جماعةً بكاملها، حاضرةً وغير حاضرة، لأنّه يقوم بذلك كردّة فعل على جماعة رمزيّة، على مفهوم وليس على موجود). غير أنّ إدارة الظهر تعني اثنين: انفعال المتكلّم=استهتاره وسخريته؛ قمع السلطة ومعاملتها إيّاه بالذلّ. وثالثهما الذي يعضدهما

(1) Cf. Searle, p.131.

هو الوجهُ المخفيّ للمتكلّم: خجلُه، على الرغم من شجاعته. مهما يكن من أمر، عرف المتكلّم-الكاتب كيف يقدّم المتكلّمَ المباشر، في عبارة مزْجيّة بين الإشاريّ (هذا) والوصفيّ (الواو=ربط+جملة حاليّة اسميّة تصدّرت بالضمير المنفصل «هو»). لقد عرف الكاتب، على توصيات سيرل، كيف يُتاح تحديدُ هذا الموضوعِ، هذا الموضوعِ دون سواه *(Identification de cet objet et de lui seul)*(1).

ثمّ بعد التعبير الوصفيّ جاء دور الخطاب المنقول؛ فيه الفعل «شعرنا»، وهو فعل «شعر+ضمير متكلّم»، مضافاً إليه محتوى الشعور (الودّ)، وهو تماماً ما مثّلَه سيرل حين تحدّث عن أنّ مثل هذه الحالات- ومن ضمنها ما ذكره حرفياً *«Je ressens une douleur»* - ينضوي تحت الأفعال الخام، وهذا التمثيل *(Représentation)* هو سهل التحديد، إلّا أنّه صعبُ الوصف، ما دام يمثّل العالمَ كمركّب من أفعال خام، ويمثّل المعرفةَ في الواقع كمعرفة للأفعال الخام(2). هذا يمكن أن يؤكّد قولَنا السابق إنّ كلام المتكلّم انفعاليّ، وبالتالي يمكن أن يُحدث فيه تعديلاً بعد وقت.

وها إنّ القول يحمل حالةً-حدّاً *Le Dire comporte un cas (limite)*، حين «يقول» يعني «أشار» *(Dire implique Montrer)*، أي إنّ الحالة-الحدّ التي لأجلها أُشبع مبدأُ التحديد *Principe)*

(1) Cf. Ibid., p.137.

(2) Ibid., p.91.

(d'identification)، وتالياً مبدأ التعبيرانية *(Exprimabilité)*، تُمثّل بتقديم الموضوع الذي يُحال إليها، عن طريق عنصرٍ إشاريٍ بسيط[1]. لا ريب في أنّ «هذا، هو، الهاء»، وهي تتابعياً اسمُ إشارة، ضميرٌ منفصل، وضمير غائب، حققت هذا الحدّ الأدنى من الإفهام، وتحولَ الضمير الغائب الذي للمتكلّم-الكاتبِ الناقل، إلى ضمير متكلّم للمتكلّم-المتكلّم المباشر، فانمزجت الإشاريةُ بالتعبيرية، وباتا واحداً، ضمنَ حلقةٍ من ضمائر المتكلّم الضمنية التي تحمل معها ضمير المتكلّم الجمع الأصيل (نشعر، بيننا...): أنا أدير ظهري... هذه البساطة الإشارية كفلت تعبيريةَ المتكلّم، فعبرّ عن ذاته، وتوضّحت الجرأة. لقد تحققت فعلياً الوظيفة الانفعالية التعبيرية من خلال القول-الإشارة.

نستطيع أن نقول إنّ الكاتب، في تعريفاته الموضوعية، أو الذاتية، أو الخام، قد أدرك سبيلَ أنماط التعابير المرجعية التحديدية المختلفة *(Différents types d'expressions référentielles définies)* التي قال بها سيرل: أسماء العلم (ماريليز لوبرانشو)، المجموعات الاسمية (هذا السجّان...)، الضمائر (هو، إنّه...)، الألقاب (وزيرة)..[2] ذلك دليلُ جرأته هو. إذ، مَن يَضمن أنّ الخطاب المنقول حرفيّ؟ ثمّ، ألم يكن باستطاعة المتكلّم إيرادُ كلامٍ منقولٍ آخر؟ ما فعله هو أنّه، على الأقلّ، أورد الكلام بأسلوبٍ جريء، وهذه الجرأةُ كانت مخصوصة،

---

(1) Ibid., p.133.

(2) Cf. Ibid., p.125-126.

بعيداً من العموميات.[لكن في النهاية، [لأنّ ما سيرد بعد عبارة «في النهاية» هو تعريف «الرهائن=القادرون على ارتكاب أفعال يائسة»، وهو، بالعودة إلى أوستن القائل إنّ استعمالَ مَعنيٌّ كلمةَ «نهاية» *(Fin)*، أو جملةَ «عليه، أُنهي» *(Sur ce,je termine)*، يمكنه أن يشكّل فعلَ إتمام النهاية بذاته *(Mettre fin)*[1]. تعريف الكاتب-الرأي هو ما قاله وكفى، وهذا ما نقلَ الكلامَ إلى الفعل، تزامنياً، إلى ارتكاب الفعل اليائس- لاحِظ استخدام الكاتِب كلمة «أفعال»، وهي جمعُ ما استخدمه أوستن *(Actes)*.] أدركت من اتّصالي بهم أنّ «العقوبات الطويلة» لا تترك أمامهم أيّ أمل وأنّهم تالياً قادرون على ارتكاب أفعال يائسة». [على الرغم من أنّ السجين، بنظر الكاتب، يطرح المسألة بطريقة أكثر وعياً من الوزيرة، أيكون هذا كافياً لجعل كلامه فعلاً مأخوذاً به؟ مع سؤال سيرل: متى يمكننا القول فعليّاً إنّ شيئاً ما يتّخذ شكلَ «س هو ك» *(X est M)*؟ باعتباره هذه المعادلةَ إحدى مغالطات أفعال الكلام [...] حين يتساءل فيلسوفٌ ما: ماذا تعني الكلمة ك *(Que signifie le mot M)*؟ بما أنّ الدلالة هي الاستعمال *(La signification c'est l'emploi)*؛ فإنّه يعتبر أنّ سؤاله مطابق للسؤال: ما هو استعمال ك؟ السؤال الذي يتمّ ضمناً تأويله فيما بعد [...] على أنّه مطابق للسؤال: [...] ما هي الشروط كي يتحقّق بدون

---

(1) Cf. Austin, p.88.

أدنى عيب ادّعاء* جازم *(Assertion)* داخلَ ملفوظ هذه الجمل؟[1]
الرهائن=انّهم القادرون على ارتكاب أفعال يائسة. هذا تعريف. الحرف المشبّه بالفعل «انّهم» معادل بالفرنسية لصيغة «*Est/sont*». من الشروط لتحقيق ذلك، ضرورةُ أن يكون المتكلّم أهلاً لذلك. سوف نرى كيف يحصل ذلك حين نستحصل على أفعال حقيقية، ما يجعله حكَماً، وما يخوّله، بالتالي، أن يُطلِق التعريف الذي حينئذٍ يُعتبر مشروعاً. القادرون، كلمة، عُرِفت من استعمالها في السياق، أي من عناصر مثل: ارتكاب، أفعال. الأفعال تردّنا إلى الفعل الإنجازيّ، فلكأنّ الارتكاب الذي يتلفّظ به الكاتب، سيتّم تحققُه في لحظةَ القول. ولكأنّ القدرة هي الارتكاب نفسه. القدرة هنا ليست سلطة-فوق، بل إمكانيّة-الداخل الإنسانيّ. من هنا، كان على تلفّظ الكاتب أن يتّخذ منحيين مختلفين، ينبغي توظيفهما لحظةَ القول: فإمّا التقليلُ من الاحتقان، لأنّ القدرة هنا ليست قوّة بل ثورة داخلية، ما يعني أنّ العلاج هو تخفيف الاحتقان، وبالتالي، لحظةَ القول تَخمد الأفعال اليائسة؛ وإمّا، لحظةَ القول، أن تثور الثائرةُ الانفعاليةَ الداخلية. هذا الشكل من الأفعال الإنجازيّة هو إذاً، تجنّبيٌّ، ولا يحتمل التسويف، حتّى لُحَيظةً بعد اللحظة.]

إنّه يطرح مشكلةَ عالم السجون أفضلَ من نقابته المهتمّة تقليديّاً بالمستوى الأمنيّ، وأحسنَ من وزيرته [إنّ المفاضَلة تجعل الطرفين المفاضَل بينهما في مركزيّة الحضور اللافت؛ فمن الوزيرة إلى

---

(1) Cf. Searle, p.199.

الرهينة المسجون، بنيةُ الواقع المؤسّساتيّ كما دعاها سيرل *(Structure of institutional reality)*، وهي وفقاً لذلك بنيةُ قوّة [...] القوى السلطوية *(Powers)* بإمكانها أن تكون جوهريةً صلبة *(Substantive)*- وسيرل يعطي مثالاً حول مرغيت التي انتُخبت رئيسة وزراء، وهو مثالٌ شبيه بالمسمّاة ماريليز لوبرانشو التي، بوصفها وزيرة، يمكن أن نتصورّ فكرة انتخابها ولو للحظات، أو أن نتصورّ القوّة التابعة من المركز وليس من الشخصية- كما يمكن أن تكون مخفّفةً *(Attenuated)*[1] كما في الطرف المقابل الذي قوّتُه، على الرغم من ضعفه كسجين، هي في الثورة على ضعفه.

هذه الثورة الانقلابية هي التي قلبت ميزان القوى، وجعلت أفعلَ التفضيل (أفضل+أحسن) لمصلحة العنصر الأضعف. هذا التفضيل المزدوجُ من جهة، والتعادليُّ من جهة ثانية (أفضل=أحسن) يجعل الأسلوبَ التأكيديّ مضاعَفَ التأكيد. وحين عُطِفا بالواو، كان من الرهينة المتكلّم أن نجح في جَزْم رابطٍ من قضيّتين قض وكض *(P and Q)*، وتالياً نجح في جزم قض وجزم كض كليهما[2]، خصوصاً بعد الحرف المشبّة بالفعل «إنّ» الذي يفيد التأكيد ويمارسه بعد حَلّ الرابط العطفيّ، ما يوصل الجملةَ، عند سيرل، إلى تركيز كلٍّ من طرفيها: إنّه يطرح مشكلة عالم السجون أفضل من نقابته المهتمّة

---

(1) Cf. Barry Smith, p.20.

(2) Cf. Searle and Vanderveken, p.113-114.

تقليدياً بالمستوى الأمنيّ+ إانّه يطرح مشكلة عالم السجون أحسن من وزيرته.] التي تجاوزتها الأحداث. [ماذا فعلت تلك الوزيرة؟ هل حوّلت إعلانها الجريء إلى عرضٍ كلاميّ؟ إنّ فعلاً مثل «يطرح +مشكلة» *(Poser comme postulat)*، جعله أوستن من بين العَرْضيّات[1]، وفي موازَنة الكاتب إيّاه بطرح الوزيرة الأدنى، لم يكن ذلك إلّا دليلاً على أنّ الوزيرة إنّما تكتفي بعرض الفكرة، لا بل أقلّ من ذلك، هي لا تريد القيام إذاً بأيّة مبادرة فعليّة. هل ذلك يعني أنّ تلفّظ الوزيرة كان خطأ؟ كلّا. فلقد حصل، ولا يمكن إنكارُ حصوله، هو فعلٌ إنجازيّ، ولكنّه فعلٌ لمّا يُنجز بعد. فبالإضافة إلى تصييغ الكلمات التي تُشكّل ما سمّاه أوستن الإنجازيّ، يجب، عموماً، أن يَظهرَ عددٌ من الأشياء ويَجريَ بشكلٍ صحيح، حتّى نعتبر الفعل مُساقاً بسعادة *(Avec Bonheur)* [...] التلفّظ إذاً إنّما لا يكون خطأ، في الحقيقة، بل غيرَ موفّق حزيناً *(Enonciation malheureuse)* [...] ولذا نسمّي مذهب الأشياء التي يمكن أن تَظهر وتعمل بشكلٍ سيّئ، عند مثل هذه التلفّظات، مذهب الإخفاقات *(Doctrine des échecs)*[2].]

ماذا نريد من إعادة اندماج الجناة والمجرمين في الدائرة الاجتماعيّة بعد قضاء عقوبتهم؟ [هنا نلحظ كيف تحقّقت عبارة سيرل الأنطولوجيّة بالتمام، إذ برزت نتيجةُ التحسين في «الدائرة الاجتماعيّة»،

---

(1) Cf. Austin, p.154.

(2) Ibid., p.48.

ما يعني أنّه حتّى إذا كان التحسين ذا تأطير سلبيّ، إلّا أنّه يفعل فعله اجتماعياً، وهذا ما دعا الكاتب إلى التساؤل/ التعجّب/ الطلب.

غير أنّ الفعل الاجتماعيّ الجيّد، هو في مقلبه الآخر عند الكاتب فعلٌ نفسيٌّ سيّئ، إذ بدا معارِضاً. فكأنّ السؤالَ أصلُه نهي: لا تُعيدوا اندماج الجناة والمجرمين في الدائرة الاجتماعية بعد قضاء عقوبتهم؟ ولئن كان السؤال الطلبيّ أقلَّ درجةً من النهي (نطلب إليكم...)، إلّا أنّ نيّةَ الكاتب هي التي تحوّل الفعلَ الكلاميّ إلى قوّة إنشائيّة ما هي إلّا النهي. هذا النهي، بدوره، هو الوجه الضمنيّ الأقسى، لسؤالٍ بانَ تخفيفياً ضمن اللياقات الاجتماعية. الكاتب يكلّم اثنين: المجتمع، وذاته. الأوّل مباشرٌ تخفيفيّ، والثاني ضمنيٌّ متفجّر. هذا السؤال ينبغي أن يعالَج في ضمنيّته إذاً، وإلّا فقدَ غايتَه. هكذا فإنّ التفكير في الصيغة المميِّزة *(Characteristic mode)* لإنجاز نهي ما، لَسوف يعطي درجةً مميِّزة من قوّة النقطة الإنشائيّة أكبر من تلك المخصَّصة لطلبٍ ما *(Greater characteristic degree of strength of illocutionary point than that of a request)*[1].

إنّه آخر الهموم في أغلب السجون حيث لا تزال القاعدة هي الرقابة والعقاب. إذاً، تخليص المجتمع بأيّ طريقة كانت من «نفاياته»؟ إذا كان هذا هو الهدف، فإنّه يتحقّق.

«في المحصّلة، لاحظت لجنة التحقيق أنّ ظروف الاعتقال في

---

(1) Cf. Searle and Vanderveken, p.122.

السجون غير جديرة في الغالب ببلدٍ يدّعي إعطاء الدروس للخارج في ميدان حقوق الإنسان والذي دانته عدّة مرّات المراجع الاوروبيّة الحريصة بالذات على هذا الشأن». هنا أيضاً مجلس الشيوخ يتكلّم ولا يمكن بالطبع اتّهامه بالنزعة التقدّمية. [يقول سيرل: واحدٌ من الشروط الضروريّة لتحقيق فعل المرجعية المعرِّفة *(Acte de référence définie)* في ملفوظِ تعبير ما، هو إمّا أن يكون التعبير وصفاً تحديدياً *(Description identifiante)*، وإمّا أن يكونَ المتكلّمُ قادراً أساً على إنتاج وصفٍ تحديديّ في حال طلبنا إليه ذلك[1]. المرجع هو «المراجع الأوروبيّة»، وقد تعيّنت فيها كلمة «مراجع» جمعاً لكلمة «مرجع». ومع أنّ المرجع تعميميّ («الأوروبيّة»)، إلّا أنّ النعت «الحريصة بهذا الشأن» يجعلنا نفهم أنّ الكاتب يقصد نوعاً من التخصيص. كما أنّ المرجع الآخر هو «مجلس الشيوخ»: معروفٌ هو، وإنْ لم يُسَمِّ أعضاؤه، لأنّ بحثاً صغيراً أو نقْراً على مفتاح الشبكة العنكبوتيّة، بإمكانه أن يوصلنا إلى نتيجة تعريفيّة. والخبر هنا «لا يتكلّم ولا يمكن اتّهامه...» هو الذي يخصّصه، وهو نوعٌ من رأي، والرأيُ لا يمكن أن يأتي بدون تعمّقٍ سابق بالموضوع. الوصف التعيينيّ نشأ إذاً إمّا بالنعت وإمّا بالخبر، والاثنان، لغويّاً، يجعلان الموضوع موصوفاً. وحين يُتّهَم الكاتب بالنقص في المعلومات حول المرجعين، يمكن أن ندافع عنه بالقول إنّ ما ورد في محتوى النعت أو الخبر، لجهة

(1) Searle, p.133.

التخصيص أو الإدلاء بالرأي، لَهو مؤشّرٌ على معرفةٍ بالمرجعين، وإن لم تُذكر جهراً، وبالتالي هو مؤشّر على تفصيلٍ داخليّ يمكن أن يصير خارجياً في مقالات أخرى أو تحت أسئلة تفصيلية أخرى.

ولعلّ كلمات من مثل «غير جديرة»، و«دانت»، وهي في عُرف أوستن من أصناف الحُكميّات بما أنّ بإمكانها أن تشكّل تقييماً *(Evaluation)*، تجعل الكاتب لجنةَ تحكيمٍ أو قاضياً، ما دام هذا النوع من الأفعال الكلامية يَصدر من أحدهما *(Jury ou juge)*[1]؛ ما يؤكّد، بطبيعة الحال، أنّ الكاتب عارفٌ بالمرجع، والتقييم لا ينشأ قبل التعرّف إلى موضوع الكلام. لقد حوّل النظرة إلى نوع من الحقيقة، المفروضة...]

أُلغيت عقوبة الإعدام في فرنسا منذ عشرين عاماً. لكنّ الانتحار لم يُلغ. [ثمّة نمطٌ من الإنجازيّ، كثير الأهمّية والانتشار، يظهر [...] بصيغة المجهول *(Voix passive)*: أيٌّ من الضمير والصيغة، ليس قَطْعاً من العناصر الأساسية[2]. نحن أمام تعريف حول فكرة الموت غير الطبيعيّ، والمفتعَل، في دولة متطوّرة. وإذا كان أوستن يهمل الصيغة والصوت، فإنّنا لا نقف إلى جانبه بما خصّ هذا الكاتب، إذ ما من مرجعٍ واضح في ما خصّ قضيتَين مصيريتَين؛ فما الذي أرادنا أن نجعله من سلّم أولويّات اهتماماتنا؟ أمُنفّذُ عملية الإعدام جندياً مجهولاً؟ طريقةُ الإعدام؟ أم المشرّع؟]

---

(1) Cf. Austin, p.153.

(2) Ibid., p.82.

سابعاً: حرّية الصحافة ورقابة المال [القيمة الاصطلاحية لمُسلّمة الوجود بين الفعل الكلامي الحرفي والفعل الإنشائي المعقّد]

Serge Halimi (سِرج حَليمي).
العالم الدبلوماسيّ، آب/ اغسطس 2001.
(http://www.mondiploar.com)

[...] من يرفض هذا العرض؟ ليس المعارضون الذين لا يتوقّفون عن الإطلالات الإعلاميّة المنتقدة لليبيراليّة المتطرّفة والتي توفّر دائماً تقريباً شركات الاتّصالات المتعدّدة الجنسية والتوجّه المركنتيليّ الذي تطبع به الإعلام. وليس المثقّفون الذين يلبّون الدعوات التي توجَّه إليهم رغم احتقارهم ما تخصّهم به وسائل الإعلام من موقع متراجع. [يعمل سيرل على تفصيل ما سمّاه اللانفي، قائلاً بحقيقة كون اللاأداء *(Non-performance)* في الفعل الإنشائيّ ليس كمثل أداء النفي الإنكاريّ الإنشائيّ *(Illocutionary denegation)*، كما لو أنّني، على سبيل المثال، منطلقاً من الحقيقة أنّني لم أقم بوعد، فهذا لا يستتبع أن أكون قد رفضتُ القيام بوعد. هنا، الرفضُ هو المبدوء به، والعرضُ يقوم مقام الوعد. فربّما كان العرض وعداً، ومن هذا الواقع المشكّك بـه أتـمّ بعضُهم رفضَه. إذاً ثمّة تعريفٌ سابق للعرض، وهـو مـا استتبع هذه الخاتمة. ثمّ نتو إلى اللامنفيات، من الأفعال «لا يتوقّفون»، إلى

جانب المرجع المنفيّ (ليس المعارضون+ليس المثقّفون). فهل فهمنا الحقيقة؟ نحن لا نريد تعريف الفئة المنفية، إذ يَفضلُ لنا كلُّ مَن هم دونَ المعارضين والمثقّفين، ولكنّ ذلك يفرض فئاتٍ كثيرة. نحن نريد التحديد. عند سيرل النوعان الآتيان من اللانفي، نستقيهما من أمثلته: واحدٌ حدّده وهو ضمن الخاتمة هنا: «رفض» غالباً يُستخدم كنفي إنكاريّ لـ«قبِل» *(Refuse is frequently used as the denegation of accept)*، وهو مايجعل التعريفَ الواضحَ هو التعريف المعكوس: مَن يقبل هذا العرض؟ المعارضون والمثقّفون؛ وآخَرُ يشبه ما مثّله بالفعل *(Disclaim as the denegation of claim)*[1]، وهو موجودٌ ضمن تعريف المعارضين: لا يتوقّفون عن الإطلالات الإعلامية المنتقدة لليّبرالية المتطرّفة. إذاً كرّست الفئة المتبقّية الرافضة، إذ إنّ الفئة المنفيّة ليست المعارضين أجمعين. فهناك، حتّى ضمن الفئة المعارضة، مَن يتوقّفون إذاً عن الإطلالات الإعلاميّة...، وهي تدخل ضمن الفئة الرافضة، ولسنا فحسبُ أمامَ فئة رافضة وفئة قابلة ضمنياً، بل أمام فئة رافضة وفئة قابلة ضمنَ الفئة نفسها.

هل هذا الأمر يجعل كلاًّ من تعريفَي العرض والمعارضين غير معروف؟ يساعد أوستن الكاتب، ليجعل كلام سيرل إيجابياً لديه: فلكي تكون الإوالية معترَفاً بها *(Pour qu'une procédure soit reconnue)*، لا يكفي أن تكون استخداماً عادياً رائجاً (يرفض=فعل

---

(1) Cf. Searle and Vanderveken, p.112.

مضارع له دلالة *Présent d'habitude* + لايتوقّفون=يومياًيَـظهرون+ توفّر دائمـاً)، حتّى بالنسبة إلى الأشخاص المعنيّن حـاضر ا *D'usage)* *(courant, même pour les personnes actuellement concernées* (المعارضون+المثقّفون). ينبغي أيضاً أن يبقى مبدئياً احتمالٌ أن يرفضَ أيٌّ كانَ الإواليةَ *Possible à quiconque de rejeter la)* *(procédure)*، أو شيفرةَ الإواليّات *(Code de procédures)*. هنا إسقاط الإواليّة ذو حدّين: مباشر، وهو إسقاط العرض؛ وضمنيّ، وهو لاإسقاط العرض. والثاني يحتضنه مَن هو دونَ الذين عيّنهم الكاتب كمُسقطي العرض. وإذ يقصد أوستن بشيفرة الإواليّات شيفرةَ الشرف *(Code d'honneur)*، يذكّر بأنّ مَن يُسقطها يتعرّض بالطبع لعواقب *(Sanctions)*، أي إنّ الآخرين يرفضون [التعامل] معه، ناعتين إيّاه رجلاً بلا شرف *(Homme sans honneur)*[1]. هنا يصير التعريف معياراً. والمعيار الأصل هو الحقّ، ولكنّه بات اجتماعياً ما هو شائع. فالمائل صوب الحقّ قد يتّهم بالخيانة. العرض هو المعيار. مَن يرفضْه يصبحْ في عداد السلبيّن، وربّما هؤلاء بالأساس هم الإيجابيّون. ومن هنا أيضاً نشأت الفئةُ ضمن الفئة، الفئةُ المُدانة ضمن الفئة المُدينة. فهل بات المعارضون المجهولون، والمثقّفون الذين لا يخلطون الثقافة بالسياسة، هم المنبوذين؟ هل هكذا بات معيار الشرف؟ ربّما، ولكن في عصرِ تبدُّل المعايير!

---

(1) Cf. Austin, p.60.

بين ما بدا وصفاً يعرّف بعض الفئات (المعارضون الذين+المثقّفون الذين=اسم موصول في محلّ نعت)، وهو ضمنياً تحذيرٌ متعدّد المساقات (احذروا هذا العرض+احذروا هذا النوع من المعارضين+احذروا هذا النوع من المثقّفين)، أو نيّةٌ بإطلاق حُكم إيجابيّ على المعارضين أو المثقّفين المثقّفين، أو دعوةٌ لشدٍّ جمهور الفئات المُقصاة، انتقادٌ لتلك الفئة بسبب تملّقها وخروجها على أساس عملها، وانتقادٌ لهذه الفئة بسبب حياديتها على الرغم من إيجابيتّها. إعلانُ التحذير، الحُكم، النيّة، الدعوة، النقد، ليست إلّا توليدَ فعلٍ إنشائيٍّ بعدَ تحقيق فعلٍ كلاميٍّ على زعم أوستن، بطرح سؤالٍ أو الإجابة عنه[1]، وهذا ما لم يتغاضَ عنه الكاتب أيضاً (مَن... ؟ الـ...).

وإذا كان سيرل يزعم ما زعمَه أوستن بخصوص الفعل الإنشائيّ، فإنّه يميّز بين صيغة جُمليّة وأخرى *(Mood)*، متحدّثاً عمّا يميّز عبارتين كان يمكنهما أن تحملا المحتوى القضويّ عينه قض، ولكن بفارق القوّة الإنشائيّة ق *(Illocutionary force F)*[2]. فلو سأل الكاتب «هل يرفض أحدٌ هذا العرض ؟»، لَكان المحتوى القضويُّ واحداً بالمقارنة مع «من يرفض هذا العرض ؟»، ولكنّ قوّةَ الملفوظة الأولى كانت لَتولّد جواباً غنياً عن التعريف، وليس غنياً بالتعريف (كلّا، أجل). ولو أجاب: «ليس المعارضون الذين يتوقّفون...»، لكان المحتوى هو عينه لو قورن

(1) Cf. Ibid., p.112.

(2) Cf. Searle and Vanderveken, p.109.

بما ذكره (ليس المعارضون الذين لا يتوقّفون...)، إلّا أنّ صيغة النفي المزدوجة، مع أنّها تعادل الإثبات المزدوج، رياضياً (- ... - = ... + ...)، غيرَ أنّ قوّتها تختلف، إذ يحصل فيها ساعتئذ نوعٌ من التحذير من فئة، والثناء على فئة معاكسة.، ولكان بالإثبات تعريفٌ صريح.

على أنّ الإجابة، والتي لم توضّح الأطراف الرافضة، وإن كانت قد أعلمتنا بنيّات ومعارفَ جانبية، ليس علينا أن نتعامل معها بما هو منصوصٌ عليه، بل بما كان ينبغي أن يُستكمل نصّياً بخصوصها. فالـ «مَن ؟» مطروح لكنّهُ غير محدّد؛ والـ «ماذا؟» لم يتحقّق إذ لم ندرِ ماذا رفض هؤلاء من العرض، وإنْ علمْنا ما هو العرض في فقرة سابقة قبلَ الخاتمة؛ والـ «أيّ؟» لم يتحقّق إذ لم ندر فعلياً أيّ فئة رفضت، بل أيّ فئة لم ترفض. بالفعل «عينّ»، يقول سيرل، أنا أعني هنا أنّه يجب ألّا يعود من شكٍّ والتباس *(Doute, Ambiguité)*، في ما نتكلّم عليه بالضبط؛ وفي المستوى الأدنى، الأسئلة «مَن؟ ما...؟ ماذا؟ أيّ؟» *(Qui?Que?Quoi?Lequel?)* تلقى جواباً[1].

ولكن، إن لم نلقَ جواباً مباشراً، لقينا جواباً ضمنياً، بحسب منطق سيرل: فالكاتب ليس بوارد تعريف هذا النوع من المثقّفين، بقدْر ما أراد إعلامنا بتملّقهم: هم يفعلون صراحةً ما يحتقرونه ضمنياً. هو يريد منّا أن نحتقرهم أيضاً، لأنّهم يحتقرون أنفسهم، ومع ذلك يُكملون الطريق. هو يريد منّا أن نقول: احتقروا هؤلاء المثقّفين -

---

(1) Searle, p.130.

وهـذا ما أسماه سيرل الفعلَ الكلاميّ الأوّليّ غيرَ المأخـوذ بحرفيته *(Non-literal primary speech act)*، مقابلَ الفعل الكلاميّ الثانويّ المأخوذ بحرفيتـه *(Literal secondary speech act)*[1].

هؤلاء المثقفون المتعارضون أكثر ممّا هم معارضون (رغم)، الذين يقومون بالفعل (يلبّون الدعوات)، ولا يقومون في أنفسهم بالقيمة (يحتقرون ما تخصّهم به وسائل الإعلام)، يمكن اختصارهم بالتيمة قيمة-فعل *(Fétiche valeur-fait)*[2]. هذه التيمة التضاربيّة تدعونا إلى مـا فسّره بعضُهم بأنّ قضيةً ما كانت قـد اعتُبِرت تحليليّة *(Proposition jugée analytique)* لا تكون في الحقيقة كذلك، أو بأنّ تعبيرين اثنين كان قد اعتُقد أنّهما مترادفتان لا تكونان كذلك في الواقع. فانطلاقاً من تساؤل سيرل في الحالـة التالية: «أُحبّ ذلك، ولكنْ هـل انّه فعلاً طيّب؟» *(J'aime cela,mais est-ce que c'est vraiment bon?)*[3]، نطبّق على ملفوظ النصّ: هؤلاء يلبّون الدعوات، ولكن هل هذه الدعوات فعلاً تستحقّ ذلك؟ لقد جاء الجواب عند الكاتب عينه، وهذه الـ لكنْ صرّح عنها بالمحتوى السلبيّ بعد أداة التعارض (رغم احتقارهم شكلَ هذه الدعوات).[

لكنّ جيل دولوز كان قد حذّرهم منذ أكثر من ربع قرن من تقنيّات «التسويق الفلسفيّ» الذي يشيعه برنار-هنري ليفي وأصدقاؤه ومن

(1) Cf. Searle and Vanderveken, p.117 -118.

(2) Cf. Austin, p.153.

(3) Cf. Searle, p.46.

مخاطره: «صار المطلوب الكلام عن الكتاب وإثارة الكلام حوله أكثر ممّا يحتمل أو ما لديه ليقوله. [بالفعل «حذّر» *(Avertir)* أنتجَ الكاتبُ فعلاً إنشائياً بحسب تصنيفات أوستن، وتالياً، تلفّظاً ذا قيمة اصطلاحية *(Valeur conventionnelle)*[1]. القيمة الاصطلاحية بدت من خلال: تقنيّات (اصطلاح)+تسويق (قيمة)+فلسفيّ (قيمة عُليا)+أكثر ممّا يحتمل (فعاليّة القيمة). وإذا عضدْنا قراءة أوستن بقراءة سيرل، وجدنا أنّ القيمة قد لا توجد في داخل النصّ بذاته، بل في ضمنيّة ملفوظاته؛ فإذا اعتبرْنا فكرةَ الفعل الإنشائيّ، فإنّما علينا أيضاً اعتبارُ تبعاته، الآثار التي تُلحقها مثلٌ هذه الأفعال على الحركات *(Actions)*، على أفكار المستمعين ومعتقَداتهم (برزت المعتقدات الفكرية في النعت «الفلسفيّ») [...] فإذا حذّرتُ مستمعي من شيء ما، فبإمكاني إخافتُه أو إقلاقُه *(L'effrayer ou l'inquiéter)*[2]. الضمير الغائب الجمع المتّصل بالفعل (حذّرهم) هو ما يمثّل المستمعين. وكلمتا «مخاطر+يشيع» دليلاً انتشار الخوف، وتالياً القلق.

من جهة أخرى، ثمّة مستمعون آخرون، هم المتلقّون، قرّاءُ النصّ. وهم بالطبع لا يخافون أو يقلقون، لأنّ موضوع الكلام لا يعنيهم في المكان والزمان. غير أنّهم، مع ذلك، يحسّون بهيمنة تُفرَض عليهم كي يكملوا الكلام، أو تُنقَل إليهم همومُ المعنيّين:

---

(1) Cf. Austin, p.119.

(2) Cf. Searle, p.62.

ما يعلّل هذا الإحساسَ هو الفعلُ «حذّر» الذي يتّخذ نفوذَ تأثيره *(Influence)* من صنف الفرْضيّات التي تُحيل إلى ممارسة السلطات *(Exercice de pouvoirs)*[1].] إلى حدّ أنّ وفرة المقالات الصحافيّة والمقابلات والندوات وبرامج الإذاعة والتلفزيون يجب أن تحلّ محلّ الكتاب الذي يمكن أن لا يكون موجوداً على الإطلاق (...) [نمطٌ آخر من الفعل الإنشائيّ المعقّد يشمل سلبَ القوّة الإنشائيّة *(Negation of the illocutionary force)*، وسنسمّي هذه الأفعالَ من الإنشاء النفيَ الإنكاريّ *(Denegation)*. ومن الضرورة أن نميّز بين أفعالِ النفي الإنكاريّ الإنشائيّ، والأفعالِ الإنشائيّة ذات المحتوى القضويّ السالب *(Acts with a negative propositional content)*. ومن أمثلة سيرل[2]، نتوصّل إلى أنّ النوع الثاني ينطبق على عبارة الكاتب «يمكن أن لا يكون موجوداً» (يمكن+[لا يكون=نفي محتوى الوجود]= *F(_P)* (ق(لاقض))، وهذا ما ميّزه من العبارة ذات النوع الأوّل «لا يمكن أن يكون موجوداً» ($\neg F(P)$ = لاق(قض))، وهي ما لم يقله الكاتب، ولكنّه أبقاها في ذهننا كبديلٍ مميزٍ. بين قوّة الملفوظ وقوّة المميزِ المخبوء، يتبدّل الآتي: في الأوّل احتمالُ عدم الوجود، فيما في الثاني استبعاد الوجود. وبالطبع أنّ الأوّل يضمن الموضوعيّة منهجيّاً وإن لم يضمن الدقّة دلاليّاً.] فالمثقّفون والكتّاب وحتّى الفنّانون

---

(1) Cf. Austin, p.154.

(2) Cf. Searle and Vanderveken, p.112.

مدعوّون تالياً ليصيروا صحافيّين إذا أرادوا التماشي مع المعايير السائدة.] ثمّة عبور من الفكر الواسع الحرّ (مثقّف+كاتب+فنّان) إلى الفكر شبه الجاهز والناقل الأمين (=صحافيّ)، فإلى الجهر بالمعيار وهو الأضيق، خصوصاً أنّه جاهزٌ لأنّه منعوتٌ صراحةً بالسائد. هذا مفروضٌ إذاً سابقٌ الفكرَ الإبداعيّ، ولا نفعَ للفكر الإبداعيّ إزاءه. الطريق نحو المعيار ولّدَ بصراحةِ القاعداتِ المعياريةَ ذاتَ الشكل المميّز [...] إذا ع، إذاً افعلوا س *(Si Y, alors faites X)*[1]: المثقّفون والكتّاب والفنّانون مدعوّون ليصيروا صحافيّين إذا أرادوا التماشي مع المعايير السائدة= إذا أرادوا التماشي...، إذاً هم مدعوّون... = إذا أرادوا التماشي مع المعايير، إذاً ليصيروا صحافيّين= تعميم: إذا أردتم أيّها المثقّفون والكتّاب والفنّانون التماشي مع المعايير، إذاً صيروا صحافيّين. هذا التعميم ضمنيّ، ولكنّه هكذا بالفعل.

كيف نؤكّد ذلك؟ باعتبار المرجعيّات التي أحال إليها الكاتب (المثقّفون...) ليست مرجعيّات زمانيّة، بل صالحة لأيّ زمان في الحقيقة. لذلك يصير وصفُهم والإخبارُ عنهم بمثابة ما يُعنى به مثقّفو هذا الزمن، وأيِّ زمانٍ آتٍ، ما ينقل الغائبَ إلى مخاطَبٍ حاضر، الإخبارَ إلى إيعاز. هذا ما نسمّيه مسلّمة الوجود *(Axiome d'existence)*: كلُّ ما نحيل إليه ينبغي أن يكون موجوداً– اللاموجود يجب أن يتمّ فهمُه من دون الإحالة إلى الزمن؛ يمكننا أن نحيل إلى ما وُجد، إلى ما سيوجد،

---

(1) Searle, p.74.

أو إلى ماينوجد الآن[1] (مدعوّون=زمن الحاضر؛ ليصيروا=لام التعليل للاستقبال+محتوى الفعل المستقبلي).] إنّه صنف جديد من الفكر، الفكر-المقابلة، الفكر-المحادثة، الفكر الجاهز [15]. [خاتمة هذا الجزء هي ازدواجيّات (اسم-اسم، أو اسم-نعت)، لتعريف مخبوء هو ازدواجيّ أيضاً: المثقّفون-المعايير=الفكر-المقابلة، الفكر-المحادثة. الاختصاران يعودان بنا، صراحةً وبالشكل، لناحية العارضة بين الاسمين، إلى ما أورده أوستن: التيمة قيمة-فعل (الفكر=قيمة؛ المحادثة+المقابلة=فعل)[2].]

هكذا فإنّ تمجيد «حرّيّة الصحافة» يُستخدم غالباً كستار للاستبداد الصامت التي تريد وسائلُ الإعلام وأصحابها فرضَه على الحياة السياسيّة والثقافيّة [16] . [إلى جانبِ جهة القيمة-الفعل التي أشرنا إليها بالكلام الثنائيّ القطب (حرّيّة=قيمة+الصحافة=مهنة=فعل)، نجد أنفسنا أمام جهتين أُخريين، مرتبطتين أصلاً بتلك التيمة، نظراً إلى أنّ كلمة «تمجيد»، في علاقتها بحرّيّة الصحافة، تجعل التيمةَ «قيمة-(قيمة-فعل)»، ما يجعل بدوره «القيمة-الفعل» هي بعينها فعلاً، وتالياً فإنّ «حرّيّة الصحافة» هي عمل الصحافيّ، وليس الصحافة فحسب. هاتان الجهتان هما: سلامةُ المنطق؛ وإطلاقُ الحُكم، وهما مرتبطان، فعلاً، إذا ما ربطْنا ما نقلَه سيرل عن أُورمسُون

(1) Ibid., p.121.

(2) Cf. Austin, p.153.

(Urmson)، بما قاله أوستن: الأوّل ذكر أنّ القول عن استدلال ما إنّه سليم* *(Raisonnement valide)*، ليس هو ببساطة أن نضعه ضمنَ تصنيف ذي نمط منطقي* *(Classification de type logique)* [...] هو، أقلّه جزئياً، أن نعتبره، أن نقيّمه *(L'Estimer, l'évaluer)* [...] بالطريقة نفسها، القول بأنّ استدلالاً ما غيرُ سليم، هو أن نرفضه، أن نُسقطه[1]. الكاتب أقامَ المنطقَ سليماً، بما أنّه في الوقت عينه لم يرفض القضيةَ، بل اكتفى بالتلميح إلى الستار الصامت، كما لم يُسقط وسائلَ الإعلام وأصحابَها؛ كما أنّ بساطةَ أداة الربط المنطقيّة «هكذا» رافقَها تقييمٌ* (تمجيد)؛ الثاني ذكر أنّ ثمّة فعلاً فرْضياً عندما نقوم بحُكم- مؤاتٍ أو غير مؤاتٍ- على سلوكٍ (تمجيد) أو على تبريره (الاستبداد الصامت= يُستخدم+غالباً+كستار) [...] الحُكّام والقضاة يقومون باستخدام الفرضيّات بقدْر ما يستخدمون الحُكميّات (تمجيد+صامت= استبداد+فرض). الفرْضيّات يمكن أن تنطويَ على أنّ آخَرين مُجبَرون [...] على تحقيق بعض الأفعال[2]. اللافت أنّ الإجبار واردٌ داخلَ الملفوظ نفسه (فرض)، من هنا كان الكاتب يفرض عدمَ الفرض، أي يُلزِم بعدم الفرض على الحياة السياسيّة والثقافيّة، ما يدعو هؤلاء إلى الالتزام بضمنيّة الملفوظ: يا وسائلَ الإعلام وأصحابَها، لا تفرضوا الاستبداد الصامت على الحياة... ؛ وهكذا، تتحوّل الوظيفة الكلاميّة

---

(1) Searle, p.183.

(2) Austin, p.157.

ومعنىً)، هذا بدون أن ننسى أنّه ضمّنَ اللائحة فعلَ *Dater* (العام 1996) من جهة، وفعلَي *Evaluer* و*Fixer* من جهة ثانية[1]، اللذين نعتبرهما معادلين فعلاً واحداً من جديد (قيّمَ+عيّنَ=قدّرَ). لذلك كان تعريفُ التعريف يعني تعريفَ القياس بالوحدة القياسيّة الخاصّة به.[وكان المستفيدون الرئيسيّون من قرار تخصيص الموجات شركات «فياكوم» و«ديزني» و«جنرال الكتريك» وهي تملك على التوالي شبكات «سي.بي.أس.» و«أي.بي.سي» و«ان.بي.سي». وفي سياق اعتراضه على هذه الهبة أعلن السناتور جون ماك كاين خلال المناقشة البرلمانيّة: «لن تسمعوا بهذه القضيّة من التلفزيون أو الراديو لأنّها تعنيهم مباشرة». [بين المعارضة (اعتراضه) والقول المؤكّد المثبَت في خطاب مباشر (...: لن تسمعوا...) فعلٌ إنجازيٌّ– الفعل *Je m'oppose* من عمود الأفعال الإنجازية[2]– وفعلٌ إنشائيٌّ– الفعل *Affirmer* من الأفعال الإنشائية[3]–، على أنّ الإعلان المثبَت بأنْ بحرف النصب المستقبليّ، وهو ليس من بين الأفعال التنبؤية، بل تأكيدٌ لمعرفةٍ آنيّةٍ لما يمكن أن يحصل مستقبلاً (أؤكّد اليوم معرفتي أنْ لا أحد سيسمع...).]

وبالفعل لم تكرّس محطاتُ الأخبار الرئيسيّة الثلاث سوى ما مجموعُه 19 دقيقة للموضوع، وذلك طوال الأشهر التسعة الفاصلة بين

(1) Cf. Austin, p.155.

(2) Cf. Ibid., p.98.

(3) Cf. Searle, p.61.

اقتراح القانون وإقراره النهائيّ.] لاحِظ كيف أنّ حقيقة الحدث الخام (بالفعل) اهتمّت بوحدة القياس الاصطلاحيّ: فلو لم يكن كذلك، لما كان انتقالٌ من العام، إلى الشهر (الأشهر التسعة)، فإلى الدقيقة (19 دقيقة). تعيين الجُزَيئات هو اهتمامٌ بها، بخاصّية أنّ نظام القياس واحدٌ لا غير: الزمان.] لكنّ أيّاً من الدقائق التسع عشرة لم تتطرّق إلى قدرة شركات الإعلام الكبرى على دفع بدل الموجات المقدّمة من الدولة. [أنظرْ كيف جاء التعارض (لكن) استدراكاً، إذ تناولَ ما بعدَها قضيةً مشترَكة مع ما قبلها (19 دقيقة=الدقائق التسع عشرة)، بما في ذلك من اختلافٍ مميزٍ: ما كان متوقّعاً... = ما حصل. هاتان العبارتان الخبريّتان، أُتبِعتا بتعارضٍ جديد، وهذه المرّة تساؤليّاً.]

ومع ذلك هل من بلد يضمن «حرّية الصحافة» أفضل من الولايات المتّحدة الاميركيّة؟ [أداةُ التعارض «مع ذلك» التساؤليةُ المحتوى، أتت بعد «لكن»، فعاد الجوابُ الممكن معادلاً لسلب السلب، أي للإيجاب الذي كان قبل «لكن»: «الموضوع» بعد «لكن»=السياق الإخباريّ الذي سبقها=الصراحة المباشرة (لن تسمعوا بهذه القضيّة من التلفزيون أو الراديو لأنّها تعنيهم مباشرة). من هنا، فإنّ السؤال الأخير ما عاد انفتاحاً لأفق جديد، بل بات تجاهلاً لعارفٍ على المتلقّي أن يلتقط إشاراتِ معرفته منطقياً بالروابط. اللافت أنّ سيرل تكلّم على رابطَي العطف «و، لكن» *(Connectives of conjunction: And,But)*، اللذين يتيحان للمتكلّمين ربطَ أفعالٍ إنشائيّة في عبارة واحدة. عموماً، نُطقُ الجملة التي هي عطفُ

جملتين اثنتين يُشكّل أداءَ الفعلين الإنشائيّين المُعبرَّ عنهما بالجملتين *The performance of the two illocutionary acts expressed by) (the two sentences*[1]. اللافت، أوّلاً، أنّ الكاتب استعمل الواو وما يعادل «*But*» في الوقت عينه (ومع ذلك). واللافت، ثانياً، أنّ سيرل في المقام السابق وضعَ مثلاً حول ربط جملتين، عن طريق الإثبات والسؤال *(I will go to his house, but will he be there?)*، وهذا ما شهدناه قبلَ «ومع ذلك» وبعدها. بهذه الطريقة، نحصل تماماً على ما قاله سيرل: المتكلّم يتُمّ ادّعاءً جازماً ويسأل سؤالاً في آنٍ واحد *(Speaker makes both an assertion and asks a question)*.

هـذا ما شكّل أداءَ فعلٍ إنشائيٍّ معقّد شكلُه المنطقيّ ق١(قض ١) & ق2 (قض 2) *(Performance of a complex illocutionary act whose logical form is (F1(P1) & F2(P2))* لقـد سمّى سيـرل الـرابط الإنشائيّ النجاحَ الوظيفيّ *(Success functional)*، بمعنى أنّ الأداء الناجح للفعل الإنشائيّ المعقّد ذي الشكل ق١(قض ١) & ق2(قض 2) هو وظيفةُ الأداءات الناجحة لمُكوّنيّه *Function of the successful) (performances of its constituents*. هذا معناه أنّ الكاتب نجح في خاتمةِ خاتمته، نجح، في الوقت عينه، في إبرازِ الجهة السلبيّة والإبقاء على الجهة الإيجابيّة للحريّة؛ كما معناهُ تلاقيه مع ما ذكره أوستن، بخاصيّة أنّ الإجابة، كما قلنا، معروفةٌ منطقياً: قد يحصل أن لا

---

(1) Searle and Vanderveken, p.111-112.

يستدعيَ إثباتٌ ما إجابةً *(Réponse)*، لا يهمّ *(Peu importe)*. الأفعال الإنشائيّة، هي أيضاً لا تستدعي قَطْعاً إجابة[1].

وبما أنّ السؤال، من جهة، لم يستدعِ إجابةً- وكان عليها أن تليَ السؤال-، وبما أنّه، من جهة أخرى، قد استدعى إجابةً منطقياً- وكانت سابقة-، فنحن أمام تعبير مرجعيّ، بخاصّة أنّ السؤال الذي سأل عن «مَن؟» (مَن يضمن؟=السؤال عن البلد)، «ماذا؟» (حرّيّة الصحافة=مفعول به)، و«أيّ؟» (الولايات المتّحدة=تعيين البلد)، هو ما كوّنَ لدى سيرل التعابير المرجعيّة التي تحدّد مواضيعَ خاصّة، وتجيب عن الأسئلة: مَن؟ ما/ ماذا؟ أيّ؟ *(Qui? Que? Lequel?)*[2].

وإنّ تحوُّل السؤال إلى إجابة سابقة، قد حوّل بدوره التساؤلات الثلاثة إلى إجابات ثلاث. وإذا كان سيرل قد ذكر أنّه من الطبيعيّ، في مستوىً آخر، أن تظلّ هذه الأسئلةُ بدون جواب، إذ بعد تحديد شيء ما *(Apres avoir identifié quelque chose)*، بمقدورنا على الدوام أن نسأل «ماذا؟ *(Quoi?)*»، بمعنى «أودُّ أن أعرف المزيد» *(Je voudrais en savoir plus long)*، إلّا أنّه من غير المعقول طرحُ هذا السؤال بمعنى «أنا لا أعلم عمّا تتكلّمون»[3]. مع الكاتب، تحوّلَ السؤال إلى إجابة سابقة ضمنَ تعريف بتجاهل العارف: لا أحد يضمن حرّيّة الصحافة أكثر من الولايات المتّحدة. هذا التعريف يمكن أن يحمل تعريفين

---

(1) Austin, p.144.

(2) Searle, p.64.

(3) Ibid., p.130.

اثنين، بحسب موضوع الكلام «ماذا؟»: حريّة التعبير لا أحدَ يضمنها أكثر من الولايات المتّحدة (تعريف الحريّة)؛ الولايات المتّحدة هي أوّلُ بلدٍ يضمن حريّة التعبير (تعريف الولايات المتّحدة). الحيرة تلحق نوع الـ «ماذا؟»، وليس الـ «ماذا؟» نفسه. والسؤال الذي سبقته إجابةٌ قد زاد من حدِّة معرفة الجواب.∫

ثامناً: مخاطر التعريف بالإرهاب / التمدّد الثانويّ للأشياء الاجتماعيّة بين الدقّة والتقدير ومفارقات العدّ والتأويل /

John Brown (جون براون) – موظّف أوروبيّ.
العالم الدبلوماسيّ، شباط / فبراير 2002.
(http://www.mondiploar.com)

[...] قد يقال انّه من غير الجائز الوصول إلى هذا الاستنتاج لكنّ النصّ واضح ما فيه الكفاية. وإذا كان صحيحاً أنّه يورد لائحة بالأفعال فإنّها غير محدّدة بوضوحٍ غيرِ ملتبس. فمن أجل تصنيف الأعمال الإرهابيّة يتمّ الاستناد إلى معيار تفسيريّ مشؤوم في القانون الجزائيّ وهو المماثلة، وفي الملموس، المماثلة في النيّات. / كلمة «الاستنتاج» تستنتج محتوى القضيّة، وتُشكّل استنتاجاً شكلياً للنصّ في آن، بداية خاتمته.

ربطُ الصوابيّة (كان صحيحاً) بالاستدراك المعارض (غير محدّدة بوضوح+ملتبس)، في سياق تركيبيّ شرطيّ يُوهم بالريب (إذا...)، لهوَ جاعلٌ تعريفَ كلٍّ من الأفعال ضمن اللائحة معرّضاً للسقوط. لاحِظ كيف أنّ الكاتب لم يكفِهِ ذكرُ الصحّ أو الخطأ، بل اللبس وعدم الوضوح.

هذا يعني أنّ التعريف الوصفيّ، وحتّى التفسيريّ (الاستناد إلى معيار تفسيريّ) بما أنّه «مشؤوم»، لم يفِ بالغرض ما دام ظلّ غير واضح. كلمتا «غير واضح وملتبس» يُحيلان إلى إشكاليّة في التأويل، لا إلى مجرّد التفسير. ومتى كان التفسيرُ نفسُه ليس لا صحيحاً ولا خطأً، بل غير سليم، فذلك مردُّه إلى اعتبار المعيار خطأً. لدينا بالتالي تعريفٌ ثانٍ تداخُليٌّ هو: المعيار التفسيريّ في القانون الجزائيّ=مشؤوم=المماثلة؛ المماثلة=المماثلة في النيّات؛ ولئن زاد الكاتب لفظة «النيّات» على المشؤوم وغير الواضح والملتبس، فحرارة التأويل باتت أشدّ اشتعالاً. فليست القضية فحسبُ أنّ بإمكان الفعل ألّا يكون صحيحاً *(Qu'il puisse ne pas être vrai)*، كما يُظهره غْرِيس وسْتراوْسُون *(Grice, Strawson)*، بل بالأحرى أنّ التأويل *(Interprétation)* الذي كان يمكننا أن نُلصقه به ليس ببدَهي *(N'est pas évidente)*[1].∫

هناك عبارة لاتينيّة قديمة تحدّد معنى القانون الجزائيّ الضامن وحدوده: لا جريمة من دون قانون، ولا عقوبة من دون قانون. يهدف هذا المبدأ الأساسيّ إلى تحديد الارتكاب بأكبر قدر من الدقّة مبقياً هامشَ تفسيرٍ ضيّقاً أمام السلطات. وإلّا فرغَ المبدأُ من معناه، فلو كان إمكان تفسير القانون واسعاً فإنّ أعمالاً من طبيعةٍ مختلفة تصنَّف ضمن إطار الأفعال الجرميّة خدمةً لمصالح السلطات أو بعض الأجهزة. ∫

(1) Ibid., p.43.

هامش التفسير +إمكان التفسير ا ضيقّ+واسع=احتمالات التأويل من جديد.ا

تقول الحكمة الرجعيّة القديمة: من يسرق بيضة قادر على سرقة عجل. لذلك فإنّ شرط القانون الجزائيّ التقليديّ يعبّر عن نفسه في مبدأ عدم التماثل.

ففي التفسير التماثليّ يمكن اعتبار أيّ فعلٍ عاديّ بمثابة فعل قابل للعقاب، وذلك نظراً إلى صفة مشتركة بين الفعلين. وهنا يكمن خطر التجاوز. ويعمد البوليس في مجتمعاتنا وفي صورة متزايدة إلى تجاوز صلاحيّاته كمساعد للعدالة ليدّعي دوراً قضائيّاً أو تشريعيّاً [7] . االدور القضائيّ أو التشريعيّ+توسيع السلطات البوليسيّة=فعل فرْضيّ سلطويّ، وهو تحكيم*(Arbitrage) أكثر منه تقدير*(Appréciation) [...] الفرْضيّات، كما تمّ ذكره آنفاً، تعني أنّ آخرين مُجبَرون، سواء كان لديهم الحقّ أو لم يكن لديهم الحقّ، على تحقيق بعض الأفعال[1]، وهذا هو دليلُ الفريق الأوّل الطاغي (تجاوز).ا

هكذا تخطو اوروبا خطوات جبّارة على طريق التوحيد البوليسيّ (يوروبول) بينما تتعثّر في المقابل عمليّةُ توحيد القانون وإنشاء هيئات قضائيّة مشتركة من شأنها ضمان حقوق الأفـراد. اضمان حقوق الأفراد=وقف ظاهرة الأفعال الفرضيّة، أو أقلّه الإبقاء عليها مبرَّرةً (≠سواء يحقّ للفرد أو لا يحقّ له).ا

(1) Austin, p.157.

فلقد أعطت أحداث 11 أيلول/ سبتمبر ما يشبه المبرّر لتوسيع السلطات البوليسيّة الذي كان يُعتبر في أوقات سابقة بمثابة خطر على الديموقراطيّة.

إنّ ما يُقترح على المستوى الأوروبيّ من تشريع مناهض للإرهاب ينطلق من الغائيّة للتعريف بالعمل الارهابيّ. [لقد لفظ الكاتب لفظ «تعريف» قبل أن يعرّف، وكان يمكنه أن يقوم بالتعريف مباشرة. هذا قيمتهُ التنبة لكلمة «غائية»، وتحويل التلفّظ الإنجليزيّ «أنا أُعرّف س بوصفها ع (Enonciation performative «Je définis X comme étant Y»)

إلى تعريف ممهِّد له، وليس إلى تعريفٍ-فعل، أو إلى فعلٍ غائيٍّ بالتأويل. الكاتب يريد أن يمهّد للتعريف، فيجعل من الأمر فعلين اثنين: فعلاً مقرِّراً للتعريف، وفعلاً للتعريف بذاته. وهذا يصبّ في مصلحة الغائيّة، إبرازها. فثمّة حالاتٌ نكون قد انتقلنا فيها إلى الفعل الحركيّ بعد إعلانه [...]: أنا أُعرّف س كما يلي: س هي ع (Je définis X comme suit: X c'est Y)[1].]

ووفق هذا المنطق يتحوّل إلى إرهابيّين جميعُ الذين يطمحون إلى تخريب النظام القائم، وجميعُ الذين يلجأون إلى وسائل لا تزال غير محدّدة بدقّة في سبيل «الإساءة إلى أو (...) تدمير البنى السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة في بلد من البلدان». [الرابط «وفق هذا المنطق» يعني، بعد الانطلاق من الغائيّة للتعريف بالعمل الإرهابيّ،

(1) Cf. Ibid., p.88.

الآتي: «أنا أعرّف العمل الإرهابيّ كما يلي: الإرهابيّون هم جميع الذين...». فهل فسّرَ الكاتبُ أكثر ممّا فسّر القانونُ؟ أي، هل استطاع أن يسدّ ثغرةَ ما كان قد انتقده للتوّ؟ نحن ظننّا أنّ الكاتب سيورد لفظةً فاصلة، تُنهي التأويل وتفي تماماً بالغرض الواضح غير الملتبس، وتكون مرادفاً. الدقّة *(Exactitude)*، كما لفتَنا إليها وِتْغنْشْتايْنْ *(Wittgenstein)*، تتوقّف على الهدف *(But)* الذي نصوّب عليه. الهدف وهو هنا استخدام المرادفات *(Synonymes)*[1]، يترافق ولفظَ «الغائيّة» الذي سبق لفظَ «التعريف» الذي سبق بدوره عبارة «العمل الإرهابيّ». من هنا، كانت ثمّةَ ضرورةٌ للمرادف، فعلى مثال سيرل، قد نعلم ما يعني «يطمحون إلى تخريب النظام+الإساءة إلى تدمير البنى السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة»، ولكنّنا قد لا نعلم ماذا يعني «العمل الإرهابيّ أو الإرهابيّون». لذلك نشأ هذا التعريف. ولكنّ الدقّة لم تكن لتكتمل، ما دام محتوى التعريف نفسه ما كان دقيقاً (وسائل لا تزال غير محدّدة بدقّة). محاولة التعريف الشكليّة بدت دقيقة، إلّا أنّ المحتوى أجهضَ ذلك. هذه اللادقّة جعلت الكاتب لا يعرّف الكلمةَ بكلمة تُرادفها، بل بعبارة ترادفها إذا صحّ التعبير. وكان للمرادف أن يتحوّل إلى ما سمّاه سيرل التمدّدُ الثانويّ *(Extension secondaire)*: كلّ معيار ذي نمط تمدّديّ اختيرَ لمفهومٍ ما كمفهوم الترادف، يتطلّب قبل كلّ شيء أن يُختبر *(Etre testé)* حتّى يكون بمقدورنا التحقّقُ ما إذا

---

(1) Searle, p.45.

كان يؤدّي إلى النتائج الجيّدة، وإلّا كان اختياره اعتباطيّاً وغير مبرّر[1]. لا يمكننا أن نجزم أنّ الوسائلَ غيرَ الدقيقة لم تكن على مستوى الدقّة التعريفيّة. فكما كان للتأويل دوره، هنا كذلك. فلو كان الكاتب جازماً في دقّته، لكان التعريف غيرَ دقيق! بالتالي، كان استعمالُ لفظ اللادقّة هو الدقّة بعينها، لأنّ الكاتب قال باللادقّة في الوسائل، ارتكازاً على معاينات دقيقة. لقد عرف كيف يتملّص من دقّة المرادف، لأنّه علم مُسبقاً مع ما نقلَه سيرل، أنّ كلمتين لا يمكن البتّة أن تكونا مترادفتين تماماً [...] إذ إنّ كلمتين مختلفتين ليس من الممكن البتّة أن تحملا تماماً الدلالة عينها[2]؛ كما عرف، بعد ذلك، أنّ الدقّة لا تُلزِم دقّة المحتوى بالضرورة، بل التوصيفـ لما هو واقع، وربّما هذا الأخير لم يكن ليكون دقيقاً. [

وبحسب المنطق البوليسيّ المحكم، لا يعود الفعل هو العنصر الأساسيّ في التجريم الإرهابيّ بل القصد أي الفرد في حدّ ذاته وباعتباره شخصاً «خطيراً» [8] [لكلّ دلالة س *(Pour toute signification X)*، ولكلّ متكلّم م *(Locuteur L)*، في كلّ مرّة كان م يرمي إلى أن يعني س *(L veut signifier X)*، فإذا كان ممكناً *(Possible P* مم) أن يوجد تعبير* ت *(Expression E)*، بحيث ت تكون التعبيرَ الدقيق أو التَصييغ الدقيق لـ س *(E soit l'expression exacte ou la formulation exacte de X)*.

(1) Ibid., p.44.

(2) Ibid.

هذا يمكن تمثيله بالطريقة الآتية: (م) (س) (م يرمي إلى أن يعني ← س مم ∃ ت) (ت هي التعبير الدقيق لـ س)[1]؛ ما يذكره سيرل هنا يجعلنا أمام قاعدة تعريفية دقيقة للتجريم الإرهابيّ. ففي هذا التعريف، دلاليّاً، كأنّ الكاتب أراد أن يوازن مع المحتوى الذي سيجيء لاحقاً، وهو الممكن الاحتماليّ. لذلك حرصَ على الدقّة هنا، خصوصاً أنّ جهة التعريف موثوقة (البوليس)، والتعريف من قبْلِ دقّته التركيبيّة هو دقيقٌ من حيث الموضوعيّة (المنطق) والثبات (المحكم). وإذا كانت س =التجريم الإرهابيّ، فإنّ التركيب التعبيريّ أتى دقيقاً وجعل دلالةَ المحتوى س دقيقةً أيضاً. وهذا بدا من خلال أمورٍ ثلاثة: الأوّل سببهُ أداة الإضراب والاستدراك «بل»، التي وعدَتنا بدقّةٍ أكبر بعد نفي ما هو ليس بالتعريف (لا يعود الفعل)، وتأكيد ما هو التعريف (القصد)؛ الثاني هو دقّةُ هذا التأكيد عينه، حيث إنّ أداة التعادل التفسيريّ جعلت الدلالة أكثر وضوحاً (القصد «أي»=الفرد)؛ الثالث هو دقّة الدلالة المعادلة التي انبرَت بطريقتين هما التأكيدُ (في حدّ ذاته) والتعادلُ من جديد ولكنْ عن طريق النعت (باعتباره شخصاً خطيراً). هذا كلّه دقّةٌ في دقّة، يمكن تمثيله بالآتي: التجريم الإرهابيّ= ~الفعل =القصد= (الفرد=الفرد=خطير).

كما أنّ دقّة التعريف هي داخلَ دقّة أخرى، ما أمكننا تسميتهُ «أوعية الدقّة»، وهكذا التعريفُ نفسه: في داخله تعريفٌ آخر، ما

---

(1) Ibid., p.56-57.

أسماه أوستن الافتراض التضمُّني" *(Présupposition)*، وهو عنده إحدى الطرائق التي من خلالها تأكيدٌ ما يضمن أنّ تأكيداتٍ أخرى هي صحيحة" *(D'autres affirmations sont vraies)*[1]: فإذا كان جزءٌ من التعريف هو الآتي: القصد=الفرد الفرد الخطير؛ فهذا يعني أنّ هذا المُفرد، معرّفاً بأل، هو في الواقع أل المفصولة عن المفرد، أي الجمع: الـ (فرد فرد خطير)=كلّ فرد=الأفراد. بالانطلاق من مثال أوستن، هكذا عبارةٌ «كلّ فرد خطير =القصد=العنصر الأساسي" في التجريم الإرهابي"» تحتضن تعريفاً ضمنياً: ثمّة، على الرغم من المنطق البوليسي" المحكم، أفرادٌ خطيرون، ما يجعل الحقَّ ليس فقط على الأفراد الخطيرين في حدّ ذاتهم، بل على البوليس الذي يسمح بأن يترك لهؤلاء المجالَ بأن يكوّنوا لذلك الخطرِ سبيلاً؛ ما يُسقط عن البوليس الصفتين الدقيقتين (أين المنطق؟ أين الإحكام؟)، وما يُسقط، تالياً، التعريفَ عينه، أو على الأقلّ يجعل س دلالةً ضمنيةً تهكّميةً مقلوبة (بحسب ما يظنّه البوليس منطقاً محكماً!...) لأنّه لم يعد تعريفاً–ثقة، بل بات تعريفاً ذا تركيب–ثقة.

هنا نصير أمام تعريفين: تعريف البوليس؛ وتعريف الكاتب لتعريف البوليس. وبالطبع ليس التعريفُ الأوّل هو الذي يصف نفسه بالمحكم! التعريف الأوّل كان عليه أن يكون محكماً في ذاته لأنّه صادر عن سلطة، والثاني وصفَ الأوّل بالإحكام. وفي كليهما فعلٌ

---

(1) Cf. Austin, p.75-76.

كلاميٌّ حُكميّ يفرض ذاته على المتلقّي فرضاً، وهو في موقعٍ ذاك الذي مسموحٌ له إطلاقُ الأحكام بدون منازع: الأوّل بسبب السلطة (البوليس)، والثاني بسبب الوصف (المحكم). وبما أنّنا بمنطق أوستن المقابل، أسقطْنا المنطق والإحكام، فهذا عنى أنّ كلاًّ من التعريفين قد سقط. ومع أنّ دلالة التعريف لم تسقط، لأنّها الواقع الصريح، في حين أنّ ما سقط هو الضمنيّ، فإنّ الفعل الكلاميّ كما هو في الواقع، ليس غير صادق، غير أنّنا نكون في وضعٍ غيرِ مُوفَّق حزينٍ جداً *(Situation très malheureuse)* بالنسبة إلى أوستن، ما يجعل الحُكمَ سيئاً في خلاصة الأمر *(Verdict mauvais)*، مع أنّه، كواقعٍ صريح، ليس كأنّه لم يكن *(N'est pas nul et non avenu)*[1].

يجب التمييز مع أوستن بين الشعور المتبدّي *(Sentiment éprouvé)* ومسألةِ معرفةِ ما إذا كان هذا الشعور مبرَّراً *(Si ce sentiment est justifié)*، بين نيّةٍ ما ومسألةِ معرفةِ ما إذا كانت هذه النيّةُ ممكنةَ التحقّق *(Si cette intention est réalisable)*[2]. لذلك يجب ألّا يتوقّفَ متلقّي التعريف عند النعت «خطير»، إذ لا يمكن الحكم على النعت السلبيّ، بل على إمكانيّة تحقّقه؛ غير أنّنا، من جهة ثانية، لا يمكننا أن نُغفل إمكانيّةَ اعتبار النعتِ عينه إثارةً شعوريّةً لدى المتلقّي: فلئن كان خطرُ النيّة ممكن التحقّق أو لا، فالشعور أمام الخطر لا يمكن

---

(1) Cf. Ibid., p.71 -72.

(2) Ibid., p.71.

إلّا أن يتحقق، إذ هو ردُّ فعلٍ فطريّ، فيما الخطر كِنية تتحقّق أو لا تتحقق هو أمر "تَوقُّعيّ" استشرافيّ، وليس بالضرورة آنياً كمستوى الشعور.

باستخدامه لفظتَي «الفعل والقصد»، حقّق الكاتب ما ذكره أوستن: علينا أن نكون متهيّئين، بانتظام، للتمييز بين «فعل القيام بـ س» *(L'acte de faire X)* أي إتمام س *(Accomplir X)*، و«فعل محاولة القيام بـ س» *(L'acte de tenter de faire X)*. هنا لا مفرّ من أن نتوقّع إخفاقات *(Il faut s'attendre à des échecs)*[1]. فاللادقّة التعريفية سببُها الدقّةُ المُخِففة (المحكم)، لمنطق ذاتيّ (بحسب المنطق...). وهنا تنشأ المغالطات، ويُبنى التجريم على المحاولة وليس على إنجازها. فهل هذا مردُّه إلى ما جعلَه سيرل حجةً تَسقط من تلقاء ذاتها، وهو اعتبارُ كلّ مفهومٍ غيرِ مشروحٍ بتمدّدٍ مَعيباً *(Défectueux)*[2]؟ فهل كان على الكاتب أن يعود إلى مرادف؟ إلى دقّة اختصارية أكبر؟ كيف يفعل ذلك، وكيف، إنْ فعلَ، بقيَ متماسكاً مع عنوانه «مخاطر التعريف بالإرهاب»؟: هو لا يبغي تعريف الإرهاب، بقدْر ما يبغي أن يجعلنا نحسّ، عبر اللادقّة، بمخاطر التعريف.

وفي هذا التعريف، بين مفهوم الإرهابيّين ومفهوم العنصر الأساس في التجريم الإرهابيّ، توصّلْنا مع الكاتب إلى أونطولوجيا الواقع الاجتماعيّ *(Ontology of social reality)*: ففوقَ كلّ

(1) Ibid., p.115.

(2) Cf. Searle, p.45-46.

اعتبار، يجب التميز بين ما يمكننا أن ندعوه الوقائع الذاتيّة التابعة *(Subjective dependent facts)*، تلك التي تتوقّف على القصديّة الفرديّة *(Individual intentionality)* (القصد=الفرد+بحدّ ذاته) [...]، وبين الوقائع الاجتماعية *(Social facts)*، تلك التي تتوقّف على القصديّة الجماعية *(Collective intentionality)* (يتحوّل إلى إرهابيّين+يطمحون إلى...)[1].

كيف تحوّلَ الكاتب من الجماعيّ إلى الفرديّ؟ من خلال نظريّة سيرل «معادلة العَدّ كـ» *(Count As formula)*، وهي عنده ذات شقّين: الأوّل اعتبار س معادِلةً ع، باعتبار أنْ ما من أشياء اجتماعيّة مميَّزة *(No special social objects)*، ولكنْ فقط أجزاء من الواقع المادّيّ *(Parts of physical reality)* خاضعة [...] لمعالَجة خاصّة في تفكيرنا وتصرّفنا: [...] المُلك، الدولة، المحامون، الرؤساء [...] جميعاً هي جزئيّاً، وليس كُلّيّاً، متشكّلةٌ في إطار هذه الصفات، بفعلِ واقعِ نظرتنا إليها على هذا النحو[2]. الإرهابيّون لم يحسبوا حساباً للنظام، ولا للبنى السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، ولا لحُرمة البلد وخصوصيّته، اعتباراً منهم أنّ النظام «القائم» لا يكون كليّاً، بل يمكن تدميره، ليكون هذا التدمير جزءاً من النظام. كما أنّ ذاك النظام ببُناه، ليس بالنسبة إليهم إلّا ما هو ليس بالنسبة إلى سواهم، أي ليس مميّزاً،

(1) Barry Smith,p.19.

(2) Ibid., p.29.

ويمكن قلبهُ لأنّ القائم إنّما هو الاصطلاحيّ. لذلك ذكر الكاتب البنى «الاجتماعيّة»، لأنّها مفاهيمُ سائدةٌ بفعلٍ تقبُّلنا لها وليس بفعل اعترافنا بها. من هنا، قد تكون «الوسائل غير المحدّدة» هي الحقيقة الاجتماعية البديلة؛ والثاني هو اعتبار س معادلةً ع على أساس أنّ جماعةً ما، قد تُحسب فرداً واحداً- يوضّح ذلك عند سيرل بمثال: عندما أكون وحيداً في غرفتي، فإنّ تلك الغرفة تحوي على الأقلّ الأشياء الاجتماعية الآتية *(Social objects)*: مواطناً من الولايات المتّحدة، موظّفاً في ولاية كاليفورنيا، سائقاً صاحب رخصة سوق، ومُسدِّد ضريبة. عليه، كم من الأشياء في الغرفة؟ هناك بالتمام واحدٌ: أنا[1]. بشأن نصّنا، انتقالُ الكاتب من «الإرهابيّين الذين يلجأون إلى التخريب والتدمير=خطِرون» إلى «الفرد في حدّ ذاته باعتباره شخصاً خطيراً»، جعل الفردَ يمثّل الجماعة، والإرهابيّ هو الـ -إرهابيّ بمفهومه المطلق، ولذلك كانت عبارة الكاتب الجماعية نكرةً (يتحوّل إلى إرهابيّين) لجعل الجماعة غير متعيّنة، وتالياً هي أيٌّ من أفرادها. إذاً أصبحنا أمام معادلتين هنا: الإرهابيّ=الإرهابيّون/ وصف الإرهابيّ=وصف الإرهابيّين=الخطر. متى عُدّت س كأنّها ع *(When X counts as Y)*، فإنّ س وع ماديّاً تتكاملان كواحد (كأنّ كُلّاً من الجماعة ومَن ينطق باسمها) ونَظير (خطير)[2].]

---

(1) Ibid., p.23.

(2) Ibid., p.24.

يمكن هكذا لما تسعى إليه المفوّضيّة من تجريم للإرهاب على المستوى الاوروبيّ أن يؤدّي إلى نتائج وخيمة على الديموقراطيّة. وقد يستهدف من خلال هذا التشريع المناهض للإرهاب أشخاصاً أو جماعات يطمحون في صورة شرعيّة إلى التغيير الجذريّ في البنية السياسيّة أو الاقتصاديّـة أو الاجتماعيّـة في دولنا. وهم لـن يلاحقوا بسبب أفعالهـم بل بسبب الشكوك في إقدامهم على هذه الأفعال بدافع ايديولوجيّ. لأنّ عبارات من مثل «على المستوى الأوروبيّ، على الديموقراطيّـة، المناهض للإرهاب، في صورة شرعيّة، في البنيـة السياسية أو الاقتصاديّـة أو الاجتماعيّة، في دولنا»، هي جميعاً لاعبـةٌ دورَ التخصيص اللسانيّ *(Caractérisation linguistique)*، إنْ لناحية الكيفيّة أو النعتيّة أو المكانيّة أو التمييزيّة، لأجل التكلّم الذي هـو الدرجـة الأولى مـن الكـلام (هـذه هـي المفوّضية: ... ؛ هـذه هـي الجماعات: ...). لكـنّ هذا التخصيص المطعّم بالنمط التـوضيحيّ (كيف؟ = في صورة شرعيّـة...)، لا بـدّ من أن يكـون مطعّمـاً بشكـلٍ عفويّ بالنمط التفسيريّ. التزم سيرل التمييز بين (أ) التكلّم *(a)(Parler)*، (ب) التكلّم للخَصّ *(b)(Parler pour caractériser)*، و(ج) التكلّم للتفسير *(c) (Parler pour expliquer)* [...] إنّ المعطيات من النوع (أ)، والتي تمّت الإشارة إليها في التأكيدات من النوع (ب)، هي التي نجدُها مفسَّرةً بتفسيرات من النوع (ج) [...] - لاحظ، بعد كلمة «نتائج وخيمة» وهي تفترض أسباباً سابقة، كيف عـادت الأسباب لتتوضّح، لا

بل حتّى لتكرّر طريقة صياغتها= بسبب+بسبب؛ على أنّ السؤال «لماذا؟» برز حتّى بدون رابط للتفسير، بعد أن تمّ تدعيمه بعبارة التفسير المتكرّر =«بدافع إيديولوجيّ»- وككلّ التفسيرات الجيّدة، عليها أن تتنبّه للمعطيات *(Données)* [...] كما أن تمتلك خصائص أخرى كالبساطة، التعميم، والاختباريّة *(Simplicité,Généralité,Testabilité)*[1]. لا ننكر أنّ التعريف بسيط، بمتناول فهم أيّة طبقة فكرية. والتعميم واضح، إذ هذه المرّة لا نجد ضمائر متكلّم البتّة. ويبقى التعريف على ذمّة التجريب، ذاك الذي يُنتظر بناءً على أفعال كلام مستقبلية (يطمحون...): فهل ما يذكره الكاتب كمُسلَّمة طموح، سيكون فعلياً طموحاً مخصوصاً بالتغيير الجذريّ؟ من ناحية ثانية، إنّ الفعل «يؤدّي» هو فعلٌ كلاميٌّ منتظَرٌ أن يتحوّل فعلاً متحققاً على الأرض، خصوصاً أنّ الكاتب تنبّه لضرورة إيراد ماينفع التجريب، ألا وهو الاحتمال: يمكن+قد للتقليل قبل الفعل المضارع «يستهدف».

لا تبدو، في هذا المقطع بالذات، التسلّطيةُ في فعلٍ كلاميٍّ معيّن - خصوصاً أنّ الاحتمال منوطٌ بالتجريب وبالتبريرات التفسيريّة، وبالنتائج، ما لا يمكن توقّعُه سلبياً أو إيجابياً، وبالتالي الجزمُ به أو فرضُه- بل من خلال التعريف العامّ للفعل الكلاميّ الفرضيّ الذي نقلنا سابقاً عن أوستن جزءاً منه: هناك فعلٌ فرْضيٌّ متى صُغنا حُكماً مؤاتياً أو غير مؤاتٍ *(Lorsqu'on formule un jugement favorable ou non)*

(1) Cf. Searle, p.51.

على سلوكٍ ما، أو على تبريره. هي قضيةُ حُكمٍ على ما كان ينبغي أن يكون، أكثر ممّا هو عليه[1]. هذا الذي كان ينبغي أن يكون، مرتبطاً بدايةً بألفاظٍ مثل «نتائج، يؤدّي»، يؤكّد لنا أنّ الفعل الكلاميّ الفرضيّ مَرَدُّهُ ضمنيّاً إلى فعلٍ كلاميٍّ غائيّ: فنحن لا ننسى أنّ الفعل الغائيّ بإمكانه أن يتضمّن بطريقةٍ أو بأخرى تبعاتٍ *(Conséquences)* [...] وبعضُ تلك التبعات يمكنها أن تكون غير متوقّعة *(Imprévues)*[2]. هذا اللامتوقّع بادٍ من خلال الأفعال الكلاميّة الاحتماليّة، ومن خلال الإكثار من ألفاظ النتيجة والسبب وربطها بألفاظٍ في موقع النعت الفجائيّ (وخيمة، جذريّ) ولكن من دون أيّ جزم، وكذلك من خلال النيّات (المحاسبة غير موضوعيّة= بدون ضوابط منطقيّة وصفيّة= إقدامهم على هذه الأفعال بدافعٍ إيديولوجيّ). كاد الكاتب يقترب من مفهوم سيرل حول ارتباط العقلانيّة بالنيّة: العقلانيّة هي معالَجةُ المحتويات القصديّة *(Contenus intentionnels)* بافتراضِ تضمُّن الحريّة؛ لهذا السبب لا يمكننا الكلام على القصديّة من دون الرجوع إلى أسئلةٍ تقليديّة حول الحريّة البشريّة[3]. فقد طرح مفهوم الحريّة البشريّة (التغيير الجذريّ في مختلف البنى)، وهذا الطرح إنْ بدا فجائيّاً، إلّا أنّه تكراريٌّ، بمعنى أنّه مفاجئٌ بالتوقيت الزمنيّ، لكنّه متوقَّع، غير أنّ هذا التوقّع يصبح لامتوقّعاً بالزمن المفاجئ. بيد أنّ الكاتب، في إقصائه المنطقَ

---

(1) Austin, p.157.

(2) Ibid., p.118.

(3) Entretien avec Searle, p.12.

الموضوعيّ لذات الفعل، إنّما ابتعد عن الوعي وعن التعامل مع النيّة كمفهوم محدّد، على الرغم من ربطه النيّةَ بتحقيق الحريّة. فهل هذا يعني أنّ فشله، هو أوّلاً، في تعريفه الإرهاب/ الإرهابيّ؟ هنا نميّز بين التركيب والمحتوى. لقد استوفى التركيبُ عناصرَ التفسير، فوفّى قسطَه لمبدأ التعبيرانيّة الذي مفادُه عند سيرل أنّ كلّ ما يمكننا أن نرمي إلى دلالته يمكن أن يقال[1]. أمّا المحتوى الذي بدا احتمالياً، فهو من جهة يرتبط بكلمة «مخاطر» في العنوان (مخاطر التعريف بالإرهاب) فيعود إليه، بما أنّ مخاطر التعريف تعني الحذرَ التعريفيّ وتالياً إقصاءَ الجزم تفادياً لوقوع المعرّف في سجالاتٍ مستقبليّة، وهذا ينسجم بالتمام مع اعتبار «م» يحقّق فعلياً بدون أيّ عيبِ الفعلَ الكلاميّ ذا المرجع المحدَّد الفريد *Acte de langage de référence identifiante)* *(unique* [...] إذا تمّ تحقيق الشروط الاعتياديّة للانطلاقة-المدخل والوصول-المخرج *Si les conditions normales de départ)* *(et d'arrivée sont réalisées*[2]. ذاك وإن كان إيجابياً من منظور سيرل هذا، إلّا أنّه لا يعود إيجاباً بحتاً في حال نُظِر إليه كتعريفٍ بحت. فالمتلقّي يريد تعريفاً. لا يريد هذه الدائريّة بين العنوان والكلام الأخير. بل تعريف الإرهاب. وليس تعريف مخاطره، لأنّ ذلك يكون فراغاً دلالياً ساعتئذ وإن كان امتلاءً منهجياً. ومع أنّ حقيقة «مخاطر»

(1) Searle, p.55-56.

(2) Ibid., p.140.

التعريف تفرض الاحتمال، ولا يمكن لهذه الحقيقة أن تُرفض بحججٍ تحيل إلى سلوكيّاتِ أشخاصٍ آخرين، إلّا أنّ بإمكانهم أن يرفضوا القضيةَ بكاملها وإن اعترفوا بسلامةِ برهنتها، ما يعني أنّ على الكاتب، حين يلحظ أنّ قواعده لا تتناسب وقواعدَ الآخرين، أن يعدّل قواعده هو بنتيجة الأمر[1]: نحن نريد الدقّة. أو لا نقرأ. ويكفينا أنّ هذه اللادقّة= الخوف من تعريف التعريف، واضحة في العنوان والختام، ما يجعلنا أمام إمكانيّة إسقاط النصّ بكامله. هذه إمكانيةٌ أيضاً!؟

(1) Cf. Ibid., p.49.

تاسعاً: الخلل حياته طويلة [تكامُل الأشخاص والظروف والروابط الإنشائيّة في فكّ الغلطات التأويليّة للتعبير الوصفيّ أو المرجعيّ أو الشرطيّ]

François Brune (فرنسوا برُون).

العالم الدبلوماسيّ، حزيران/ جون 2003.

(http://www.mondiploar.com)

[...] يمكن إبداء ثلاث ملاحظات حول هذه القائمة المتجدّدة يوميّاً:

- إنّ استخدام تعبير «الخلل» يركّز الانتباه على قصورٍ جزئيّ في نظام شامل كأنّه الاستثناء الذي يُثبت القاعدة. فمهما بلغ حجم الكارثة يُصار إلى إبراز خطأ صغير، ولا يَقلق أحد من كون أنظمة تكنولوجيّة واسعة وذات قدرة عملانيّة تامّة ترتهن لغلطةٍ بالغة الصغر تمثّل عقبَ أخيل المنمنم. يعلن «الخلل» ويستمرّ التقدّم على الطريق الملكيّة لهذه الآليّة الهشّة والمعقّدة، والويل لغير الواقعيّين من أمثال المفكّر إيفان إيليتش الذين يجرؤون على تجريم النظام في مجمله. يومَ تحطّمت طائرة «ايرباص 320» فوق جبل سان أوديل بالقرب من مدينة ستراسبورغ قبل عشر سنين، هتف أحد المعلّقين قائلاً: «لماذا عند كلّ

حادث تتراجع إلى حدّ محاكمة الحداثة؟ فالحادث العابر كالقصور التقنيّ في طائرة معقّدة يجب ألّا يعيد النظر في رحلة التقدّم». حادث عابر... قصور تقنيّ... تقدُّم لا رجعة عنه... انّ انحرافات الحداثة «خير برهان» على جودتها!

- هل من إفراط في التفسير؟ كلّا: فمنطق المفارقة في صلب اللغة نفسها عندما نحلّل معنى التعبير بالفرنسيّة أي dysfonctionnement الذي يفترض الإقرار بقيمة النظام وحسن سير العمل فيه (كالنظام الهضميّ أو العصبيّ في جسم الإنسان مثلاً) والشكوى من عطلٍ عابر فيه فقط. لكنّ الامر يتحوّل إلى تلاعب سياسيّ عندما ننقل العبارة نفسها إلى كلّ الوقائع التكنولوجيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والبيئيّة وحتّى العسكريّة [4]. فالانحراف يشرّع طبيعة النظام ووظيفته فيما تُستخدم التورية للتأشير إلى اضطراباته من دون تعيين المسؤولين عنها. فتصبح كلمة خلل dysfonctionnement خير مبرّر للمنطق الوظائفيّ وأخطائه الآتية والتلقيح المسبق ضدّها.

- «اللقاح»، تلك هي بالتحديد الاستعارة التي يقول رولان بارت إنّها تؤدّي إلى الإقرار ببعض الأخطاء العرضيّة من أجل فرض المبدأ الشرّير. وهي استعارةٌ عصيّة على التفكيك لا سيّما أنّ كلمة dysfonctionnement الطويلة والمعقّدة والفصيحة تحوي في حدّ ذاتها السبب لما يشتكى منه. فالخبير الذي يستخدمها يعطي الانطباع بأنّه يسيطر على الأوضاع، فالرأيُ العامّ الذي يقع تحت رهبة العبارة،

أو الصحافيُّ الذي يفتقر إلى الحجج لا يملكون الوقت الكافي لتجريم «منطق» النظام الذي أصيب بالخلل. إذ يتمّ إبهارهم بسببٍ تقنيّ يمنعهم من البحث عن السبب الأصليّ. فالتركيز على الـ«كيف؟» يمنع بروز الـ«لماذا؟». وفي كلّ الحالات وخلْف ستار البلاغة تحوم الايديولوجيا الوظائفيّةُ المطلَقةُ الحضورِ والضامنةُ لوهم التقدّم. وكما برهن على ذلك جاك ايللول في كتابه «النظام التقنويّ» Le Système technicien [5] فالقاعدة هي «مجابهة انحرافات النظام بحلول تقنيّةٍ تُفاقم من انحراف النظام». فالإفراط في التقنيّة يولّد احتمالات لا متناهية لما سيقال إنّه «خلل» وسوف تقدّم له أيضاً حلولاً معقّدة تزيد من مضارّ النظام. فنصل إلى النقطة الدراماتيكيّة التي لم يعد في الإمكان عندها التراجع عن الحلول التقنيّة. أمثلة؟

الشاحنات تكتسح الأنفاق والأوتوسترادات، فالمطلوب من أجل تخفيف الحركة وعدم تلويث بعض الأودية أن يصار إلى تنظيم الحركة وتحديدها، لا بل إلى خفضها تدريجاً. فالمطلوب إعادة النظر جذريّاً في التوسّع المجنون للنقل البرّيّ بسبب ما يُحدثه من دفقٍ يَصعب تصريفه... ماذا نفعل بدل ذلك؟ نفتح طرقاً جديدة ونحفر أنفاقاً مكلفة ونشجّع جنون النظام ونحن نعتقد أنّنا نداوي بعض «خلل» أصابه.

نشتكي من العنف في الإعلام بخاصّة على شاشات التلفزة. فالمطلوب التنظيم والتشجيع على المنع. المطلوب المحاربة الجذريّة لإرهاب نسبة المشاهدة التي ترهن المحطّات بشكل مطلق إلى شركات

الإعلانات. بدل ذلك نلوّح بتدابير تحدّ من الحرّيّة ونطالب بسذاجة أن يقوم الأهلُ غير المؤهّلين بتربية الأولاد، وقد نصل قريباً إلى الحلّ الذي تمّ تخيّلُه منذ سنوات، أي اللجوء إلى البرغوث الالكترونيّ الذي يُغلق بالشيفرة على المشاهد التي تثير الصدمة. هل حلّت المشكلة؟[...]

لا نيأس من فشل «التنمية» في بلدان صنِّفت «نامية» وذلك بالرغم من المساعدة التي يقدّمها مهندسونا ومنظّماتنا غير الحكوميّة وقروضنا... والاستثمارات المشروعة أخلاقيّاً التي تقوم بها شركاتنا من دون هاجس الربح. ما العمل؟ هل نعيد النظر في نماذج التنمية التي سوّقناها لديهم على أنّها الأفضل؟ أبداً. بما أنّه تبيّن أنّ أشكال المساعدة التي قدّمناها حتّى الآن سريعة الزوال فسنقترح عليهم تنمية «مستدامة» تطيل عمر إفلاس اقتصاداتهم وتطيل عمر النموذج[6]

[يتساءل أوستن: إلى أين يمكن لميدان الفشل أن يمتدّ؟[1] هذه هي وظيفةُ النهي المضمونيّ (لا نيأس)، وأداة الربط التفسيريّة-البرهانيّة (ذلك-بالرغم=السبب+تعارض)، في ربطها بكلمة «فشل» بالذات. وهي تعادل مضمون الإجابة عن السؤال «ما العمل»، وهو طرحٌ للحلّ؛ على أنّ الإجابة إجابتان: الأولى تنتهي بـ «أبداً»، وهي مفاجأة للمتلقّي الذي كان ينتظر إجابةً صحيحة. والثانية التي تُظَنّ صحيحة بما أنّ المتلقّي يعتقدها تصويبيةً للأولى، هي غير صحيحة أيضاً- ولكن بدون إجابة نافية أو على الأقلّ تنبيهيّة لعدم الأخذ بها- لأنّها تهكّميّة

(1) Austin, p.52.

من جديد، في داخل هذا المقام التهكّميّ بكامله في صلب هذا القسم من الخاتمة.

التنمية التي نُعتت بالمستدامة، والتي رُبطت فيما بعد بالإطالة المتكرّرة (تطيل +تطيل)، وبالزمن الطويل المتكرّر (عمر+عمر)، هي التي تماهت بكلام أوستن: دوام الفشل=جواب على حدود امتداد الفشل: يمكن أن يمتدّ إلى مالانهاية.

وهذا على الرغم من العبارة الوحيدة غير التهكّمية: بالرغم من المساعدة التي يقدّمها مهندسونا ومنظّماتنا غير الحكومية؛ فلاحِظ الوظيفة الانفعاليّة لضمير المتكلّم المتكرّر، بدءاً من «لا نيأس»، ما يعني أنّ السبب والنتيجة لاحقان بالمواطن: النتيجة تنعكس عليه (فشل)، ما يدعو الذات إلى إقصائها (لا نيأس)؛ والسبب هو أنّه هو الوحيد الصادق والشفّاف في عطائه. إلّا أنّ هذا الأمر مايلبث أن ينقلب تماماً: فاليأس مستدام بالفشل؛ والصادق الشفّاف لا يحظى إلّا بعكس ما توقّعه. هذه المعضلة يسمّيها أوستن إخلالاً *(Accroc)*: نتوق إلى تنفيذ الاوالية، ولكنّنا نفشل[1]. والجدير ذكرُه أنّ هذا الإخلال يمكن أن يصبح كذلك بعدم توافق، ولو بسيط، بين طرفين: المساعدة+بدون هاجس الربح = فشل التنمية! بسبب ← سرعة زوال المساعدة. لقد ظنّ المواطن أنّ المساعدة هي الوجه الأكبر لدعم التنمية، غير أنّه لم

---

(1) Ibid., p.51.

يتنبّهْ لما يمكن أن يُفشِل ذلك، وهو زوالها، وهذا ما لم يكن يفكّر فيه لحظةَ فرحه بمدِّ يد العون، أو بتلمُّسِ يد العون من أحدهم.

نعود إلى ضمير المتكلّم. لماذا تكرّر إلى هذا الحدّ؟ أليكتفيَ الكاتبُ بالانفعال؟ كلاّ. بل ليُبدي أنّ على المواطنين، جميعهم، وبدون استثناء، أن يكونوا كتلةً واحدة، وهنا تحديداً، يداً واحدة للمساعدة. فماذا لو كان «مهندسونا ومنظّماتنا...» لم يكونوا «جميع مهندسينا ومنظّماتنا»؟ أي ماذا لو كان منهم محايدون- من غير المشاركين، أو متواطئون- من المشاركين؟ فإنّ الرابط المنطقيّ «على الرغم» يقلب المساعدة إلى آفة، ويحوّل النجاحَ الكامنَ المنتظَرَ إلى فشلٍ ظاهر؛ هذا ولم ينسَ الكاتب أن يُقحم ذاته في هذه الاوالية، بالتكلّم بضمير الجمع المتكلّم، مفترضين بذلك أنّه يقوم بقيادة الرأي، وأنّ هذا الرأي بات معمَّماً ومشترَكاً: يجب، في أيٍّ من الأحوال، أن يكون الأشخاصُ كما الظروفُ المخصوصة *(Personnes et circonstances particulières)* ممّا يناسب *(Celles qui conviennent)* [...] على الاوالية أن تتنفّذ من قِبَل المشاركين أجمعين بشكلٍ صحيح وبالكامل *(La procédure doit être exécutée par tous les participants correctement et intégralement)* [...] وعلى الشخص الذي يشارك في الاوالية [...] أن تكون لديه في الواقع هذه الأفكارُ أو هذه المشاعر، كما على المشاركين أن تكون لديهم النيّة لتبنّي التصرّف المعني[1].]

(1) Ibid., p.49.

يتنابنا القلق من «حروب الخليج» المتكرّرة؟ أليست أنواعاً من الخلل البسيط في «السلام الاميركيّ» الذي يعمل بشكل رائع وفْقَ مبدأ «إذا أردت السلام فحضِّر للحرب» [7] ؟ إلّا اذا كان السلام الذي يكبح منطق الحروب يبدو كخلل رئيسيّ في طريق انتشار «طريقة الحياة» الأميركيّة البريء... [الشرطيّات *(Conditionals)* «إذا ... إذاً» هي أيضاً مُستخدَمة كروابط إنشائية *(Illocutionary connectives)* عند سيرل. فعلُ الكلامِ الشرطيُّ *(Conditional speech act)* أشكالُ تعبيره المميّزة هي جُملٌ ذاتُ الشكل «إذا قض إذاً ف(ك)» أو «إذا قض، ف(ك)» *((If p then f(q); If p, f(q))* [...] هذا الشكل هو مختلفٌ بعض الاختلاف عن شكل الفعل الكلاميّ المُنجَز بوساطة جملة ذات الشكل «ق(إذا قض إذاً ك)» *(f(If p then q))* محتواها القضويُّ شرطيٌّ، نظراً إلى أنّه في هذه الحال يُنجَز مُطلَقاً فعلٌ إنشائيّ ذو قوّة ق *(An illocutionary act of force F is categorically performed)*[(1)]. مفادُ هذه الملاحظة هو أنّ الكاتب لم يكتفِ بالقول «إذا أردت السلام فـ[إذاً] حضّر للحرب»، بل جعل الشرطَ غيرَ استهلاليّ، وكان الاستهلالُ هو ما سبق هذا الشرط، في الجملة الشرطيّة نفسها: المبدأ. لقد بات هذا الشرطُ التهكّميُّ المعكوسُ القطبين (سلام/حرب) هو «مبدأ». لقد أتى الشرط ضمن جملة متكاملة، وكانت القوّة لكلمة «مبدأ»، ولولا هذه القوّة لانتفى الشرط بكامله. ولقد استتْبع

---

(1) Searle and Vanderveken, p.112-113.

هذا العمل الشرطيّ بشرطٍ آخرَ بُدئت به الجملة بعد نقطة: إلّا إذا... = عكس الجملة السابقة= إذا كان السلام الذي يكبح منطق الحروب يبدو كخلل رئيسيّ [إذاً] سلب الكلام السابق. وفي ذلك كلّه سخرية: في الكلام النعتيّ (البريء)، في التعارض (سلام/ حرب)، وحتّى في الأداة «إلّا» التي تختزن الكثير من الحقد المخبوء.]

وفي فرنسا نشهد مسلسلاً متتالياً من الخطط الاجتماعيّة. تقولون إنّ هذا خلل؟ أبداً. كان حكّامنا يريدون تكذيب تحليلنا الصائب هذا فيسارعون إلى استخدام العبارة السحريّة أكثر من أيّ وقت مضى. ماذا يحدث إذن؟ الخطط الاجتماعيّة لا تمثّل خللاً بل هي الإشارة إلى الاقتصاد الليبيراليّ الذي يركض وهو في صحّة جيّدة تحت ضربات سوط العولمة السعيدة...

ما يدفعنا إلى الحلم... بخلل جيد! [هذا النصّ يعادل خاتمته! بمعنى أنْ لا خاتمة فيه، بمعنى أنّه كُلّيٌّ التكوين. هذا عجزٌ فيه. هو نصٌّ وصفيٌّ نقديّ، ويدور حول البؤرة الموضوعاتيّة الواحدة، مع تنويع في الأسلوب، كتغطية للتنوّع الموضوعاتيّ. ففي المستوى الوصفيّ، تجد شواهدَ مختلفة، ولكنْ في ظلّ البؤرة عينها.

إنّ الجزء الذي حسبناه خاتمة، هو خاتمة شكليّة، لأنّ الكاتب يعرف كيف يخدع المتلقّي ليحسبَ الخاتمةَ خاتمةً (يمكن إبداء ملاحظات...=تظنّه سيعلّق خاتماً أو فاتحاً أفقاً، من وجهة نظرٍ نقديّة، غير أنّه يعود مفصّلاً على النحو السابق وعلى النحو اللاحق!). وحتّى

إن اعتبرنا تلك مؤشّرَ خاتمة، إلّا أنّ المنطق الشكليّ لا يسمح بذلك، إذ إنّ ما بعد هذا الملفوظ يعادل كَمّيّاً ما قبله: فالنصّ بكلّيّته صفحتان، فهل من خاتمة تُعادل ما سبقها؟! هذا الكاتب من دهائه أنّه كُلّيّ المنظور، وهذا جيّد لناحية التماسك النصّيّ، ولكنّه تكريريٌّ حتّى تكاد لا تلمس أجزاءَ البنية، مع أنّها بنية. لذلك، لا نكاد نجد فعلاً كلامياً أردنا تحليله، وأمكنّنا تحليلُه في موقعه، إذ نراه مترابطاً عضوياً بسابق أو لاحق.

أهمّ ما في النصّ نراه لا يتشكّل في موقع واحد، وهذا هو الأمر المُحيِّر، لأنّ ما من صفة مميِّزة لهذا القسم أو ذاك: أوّلاً ما من فعل كلاميّ إلّا وحصلَ حصل *(A bien lieu)*، وهو ليس كأنّه لم يكن، غير أنّه في الواقع بقي لاصادقاً[1]. أوستن يسمّي هذه اللاصدقيّات بالخُروق أو الانفساخات *(Infractions, Ruptures)*، ويصف الفعل الكلاميّ إذاً بغير الموفّق الحزين[2]. في هذه الخاتمة الخدّاعة، كانت الملفوظاتُ على شاكلتها، خدّاعةً أيضاً: فلقد استعمل الكاتب صفاتٍ كِمثل «جيّد وسعيد»، لكنّه استعملها في سياقٍ تهكُّميّ، فجعلَ ألفاظَ السعادة الصريحة أفعالاً كلاميةً حزينة، انقطاعيةً عن الوصف الإخباريّ الصادق الذي يحيط بها، بخاصّيّة لدى ربطها بألفاظ سلبية (جيّد+خلل؛ سعيدة+ضربات سوط).

ثانياً هناك مسألة الحقيقة والباطل، وهي تنضوي تحت الأفعال

---

(1) Cf. Austin, p.69.

(2) Cf. Ibid.

الخبرية التقريرية *(Constatifs)*، بمقابل مسألة السعادة والحزن التي تنضوي تحت الأفعال الإنجازية[1]، كتلك التي ذكرناها أعلاه. واللافت أنّ تلك الأفعال التقريرية جاءت، كما أرادها أوستن، بما لا تعني في حقيقتها أو صوابيتها النوعيات *(Qualités)*، بل البُعد التقديريّ *(Dimension d'appréciation)*[2]: «حكّامنا يريدون تكذيب تحليلنا الصائب...»، فالتكذيب هنا لم يقلّل من شأن صفات المتكلّمين، بل من شأن الكلام، وهذا يبدو كأنّه وضعُ علامة أو ملاحظة على دفتر العلامات! والأحلى من ذلك، أنّ الكاتب لقي أوستن وسيرل على مفترق طرق هو الفعل الكلاميّ وعكسُه، داخلَ الفعل الكلاميّ المكتمل الواحد (تكذيب/ صائب). الكاتب يبدي اعترافاً بذاته، يقيّم ذاته، وينفي أيّ رأي مضادّ. هذا دهاءٌ أيضاً، إذ إنّه فعلَ ذلك في ملفوظ واحد، وليس في اثنين. فلو قال: «يريدون تكذيب تحليلنا، مع أنّه صائب»، لكان المتلقّي انتبه لهذه النرجسيّة المتعالية المُصنِّفة ذاتَها، ولكنّه بالطريقة التي أوردها، كان منه أن أوردها مُنسابةً غيرَ مفصولة على حدة، ومع ذلك ذُكرت. هذا نوع من أنواع الأفعال الإنشائيّة الهازمة ذاتَها *(Self-defeating illocutionary acts)* ذات شروط النجاح المناقضة ذاتَها *(Self-contradictory conditions of success)*[3]. فبِمَ نجح الكاتب؟ أبِفرض المتسلّطين حُكمَ التكذيب؟

---

(1) Cf. Ibid., p.89.

(2) Cf. Ibid., p.151.

(3) Cf. Searle and Vanderveken, p.114.

أم بفرضِ الذاتِ المتسلّطِة حُكمَ الصواب؟ وإلى أيٍّ من الاتّجاهين مالَ الفعلُ الكلاميّ بكليّته؟ وهل كان سعيداً أو حزيناً في الخلاصة اللفظية؟ أي هل نجح في إظهارِ كذب الحكْم، أو فشلَ في إظهار صوابيته، ما دامَ المقصدُ الصريحُ تغلّبَت عليه نيةٌ بالفرض المتعالي المقابِل، وقد كشفَه المتلقّي؟

ثالثاً، إنّ الملفوظات قصيرة في غالبيّتها، وهذا مردُّهُ إلى أمرين: كون الأوصاف أنصاف-أوصاف *(Semi-descriptions)*، ارتكازاً على ما طرحَه أوستن من أفعالٍ كلامية تتعلّق بالسعادة أو بالابتهاج أو بالجودة *(Je suis heureux,je me rejouis,je trouve bon que)*[1]، إنّ في المحتوى المباشر للملفوظ (يركض وهو في صحّة جيّدة+العولمة السعيدة+يدفعنا إلى الحلم+خلل جيّد)، أو في خلفيّته، حيث يتحوّل الفعلُ الكلاميّ التهكّميّ إلى مايشبه اللوم *(Je blâme)*، وهو فعلٌ أيضاً صنّفه أوستن من بين أنصاف-الأوصاف، حين يتحوّل المحتوى السعيد إلى ملفوظٍ حزين كما أسلفْنا؛ الأمر الثاني ناجم عن كون الملفوظات في غالبيّتها ضمنيةَ التركيب، بدائيّتَه. فاللغة على حالها، وفي مراحلها البدائية *(Etapes primitives)*، ليست دقيقة، ولا هي صريحةٌ كذلك *(N'est pas précis,n'est pas explicite non plus)*[2]. ذكرنا في مقام سابق أنّ دقّةَ اللغة، صراحتَها، تجعل أكثرَ وضوحاً معنى التلفّظ

---

(1) Cf. Austin, p.98.

(2) Ibid., p.93.

وقيمتَه. لذلك فأشكال التلفّظ البدائيّة أو الأوّليّة *(Formes primitives ou primaires)* تدع مجالاً للالتباس *(Ambiguité)* [...] أو لفَضْفَضة اللغة البدائيّة *(Le vague du langage primitif)*[1]. في النصّ، ملفوظاتٌ مثل: حادث عابر... قصور تقني... تقدم لا رجعة عنه...؛ اللقاح؛ خلل=في مواقع متفرّقة قبل الخاتمة/ النصّ. وهي جميعاً ملفوظاتٌ اسميّة لا تتعدّى الكلمتين، مفهومةٌ من تماسكها بسياقها الدلاليّ، ولكن غير متماسكة تركيبيّاً، إذ على المستوى التركيبيّ تبدو خبراً بلا مبتدأ، أو مبتدأً بلا خبر، أو نكرة لا يُعرف ما إذا كان المراد منها مبتدأ أو خبراً، ومن بين هذه الحالات، نحوا عربيّاً، ما يطرح إشكاليّةَ اعتبارات النكرة المفيدة، أو دلاليّاً، ما هو مجرّدَ تذكيرٍ تكراريٌّ لفظيٌّ أو ترادفيٌّ يتغلغل بين تلفّظ وآخر، فقط للتذكير بالموضوع الأساس ألا وهو الخلل. حتّى مُركّبُ الكلمتين ليس مكتملاً بحقٍّ، إذ إنّ الثانية نعت، والنعتُ فضلة. الالتباس الذي ذكره أوستن في هذا المجال، يتماسك مع تساؤل الكاتب: هل من إفراط في التفسير؟ فلو لم يكن الكاتب يشعر أنّ ذِكرَه الخللَ قد لا يُفهم جيّداً بدون أمثلة متكاثرة تَضمن وظيفةَ الإخبار الإفهاميّ للتفسير، لَما قام بهذا التكاثر أصلاً. لكنّ التفسير الإخباريّ توخّى الكاتبُ منه تأويلاً: فقوله «حادث عابر»، أو «تقدّم لا رجعة عنه»، شبيهٌ بمثَل أوستن «ثمّة ثورٌ في الحقل» *(Il y a un taureau dans le champ)*: فربّما كان أو لم يكن

---

(1) Ibid.

ذلك تحذيراً، إذ من الممكن أن أكونَ في طور وصفِ منظرٍ طبيعيّ، وهنا نحن أمـام إنجازيّاتٍ أوّليّة مختلفة عن تلك الصريحة، وقد لا يسمح لنا أيُّ شيءٍ من الظروف بأن نقرّر ما إذا كان التلفّظ إنجازيّاً أم لا. على أيّ حال، إنّ وضعاً ما قد يدعني أختار بين تأويلين اثنين (Deux interprétations) [...] وبإمكاننا أن نمثّل ذلك كلّه بحركة للفعل معيبة أو غير مكتملة (Action défectueuse ou incomplète)[1] إذا لم يتمّ التأويل الصحيح. من الطبيعيّ أنّ الحادث العابر، أو التقدّم الذي لا رجعة عنه، هو إخبار، لكنّه إخبارٌ بالنسبة إلى متلفّظه التزامنيّ. أمّا الكاتبُ، متلفّظُه التعاقبيّ، الناقلُ الكلامَ التزامنيَّ في زمنٍ لاحق، فحوّل التلفّظَ إلى زمنٍ نقديّ، وكان على المتلقّي أن يفهم التأويل النقديّ.

الكاتب، بين الحينة والأخرى، يضع هذا الملفوظ-الكلمة، كي يستبقي على الملفوظ وعلى الغاية من الملفوظ: الملفوظ هو الكلام الصريح الذي يسبق أو يلي الملفوظ-الكلمة، فيما الغايةُ من الملفوظ تأتي من إيراد الملفوظ-الكلمة لتحويل الفعل الكلاميّ إلى فعلٍ تأويليّ ظاهرُه سعيدٌ وباطنه حزين، ظاهره إطراء، وباطنه تهكّم. وربّما كان هذا النوع من الملفوظات-الكلمة خيرَ وسيلة لبثّ معلومية باطنيّة، أو لوم، أو حتّى أكثر. فبعض الكلمات- يعطي أوستن مثل «عاصفة!»- في لغة بدائيّة متكوّنة من تلفّظات

(1) Ibid., p.63.

أحـاديّة الكَلِم *(Enonciations d'un seul mot)*، يمكن أن تكون إمّا تحذيراً (خلل!)، وإمّا معلومة (حـادث، قصور)، وإمّا تنبؤاً (تقدّم)[1]، وهي جميعاً تتماسك لتؤلّف جملة الختام: الحلم بخلل جيّد=معلومة+تحذير+تنبؤ. وكما استطاع الكاتب أن يمهّد لخاتمته يذكر لفظة «خلل!»، كان بإمكانه أن يستعيض عن جملة الختام بلفظة «خلل!»، بدون النعت (جيّد)، وبدون سخرية الحلم، وبدون الرؤيا الاستباقية (الحلم). ونحن نقول إنّ النصّ بأكمله، لشدّة تماسُكه، يكاد يكون وحدةً واحدة، تندمج فيه المقدّمة بالخاتمة بجسم الموضوع، إلى حدِّ صيرورتها كلمةً واحدة «خلل!»، وربّما هذا الطرحُ الشكليّ كان بغنىً عن كلّ ما ورد من أمثلة وأخبار، وربّما، أيضاً، أوصلَ النصَّ إلى فعلٍ إنجازيٍّ مُرتجىً من خلال معناه المضمر الذي يضمُّ عند المتلقّي ما استشهد به الكاتب، وأكثر... فبإمكاننا أن نبني الفعل الإنجازيّ، بدون اللجوء إلى كلماتٍ كَفِيّة *(Mots efficients)*- يعطي أوستن مثلاً «كوع» بدلاً من «كوع خطِر»[2]-: خلل! (بدون نعت، وبدون شواهد سابقة أو لاحقة لإبرازه). ولكن لا ننسى أنّ طريقةَ طرح الملفوظ- الكلمة، كما ذكرنا، هي التي جعلت الفعل الإنجازيّ يتكوّن ويختمر، ويصير بديلاً.

إذاً رابعاً، تُعين نبرةُ الصوت، الإيقاع، الإلحاح، على إجلاء

---

(1) Cf. Ibid., p.92-93.

(2) Cf. Ibid., p.83.

المقصود من الملفوظ-الكلمة «خلل»، لا بل تلك هي الكفيلة بتعريف الخلل، أكثر من الانكباب على تعريفه. ففي النصّ-الخاتمة نبرةُ تساؤل وتعجّب، وإيقاعُ توازنات («خلل» بعد توقيت زمنيّ لكلٍّ من ملفوظاتٍ تسبق هذه الكلمة- حادث عابر=قصور تقنيّ؛ تطيل عمر اقتصادهم/ تطيل عمر النموذج=ثنائيّة من كلمتين أو ثلاثيّة من ثلاثٍ بوظيفة إعرابيّة واحدة)، وتكراراتٌ لكلمة «خلل» ذات وظيفة تذكيريّة. وإنْ نستكمل قول أوستن، وجدنا أنّ تلك تولّد تماماً ما ولّدَته الفقرة السابقة من شرحنا، وتحديداً على سبيل المثال «التحذير»[1]. زد على ذلك علامات الوقف التي هي المرافقة الشكليّة للمحتوى الضمنيّ للملفوظ، وقد أشرنا إلى أهميّتها عند أوستن في موقع سابق، وها نحن نلحظ عدمَ إغفالِ الكاتبِ علامات الاستفهام المتلاحقة في أوّل ما أسميناه الخاتمة، وعلامات التعجّب لإحداث ردّ الفعل المعاكس للألفاظ، والمزدوجين خصوصاً عند ورود كلمة «خلل»، كي يَعلم المتلقّي أنّ المراد من الخلل هو السخرية من استعمال هذه الكلمة، والمحتوى الذي يختبئ خلفَه الحكّامُ ليُخفوا حقيقةَ أمرٍ شنيعٍ ما. فإذا كان المعنى أو المرجع - لأنّ محور الكلام هو الخلل متماسكاً مع العنوان- يُخشى ألّا يتمّ تَلَقُّفُهما بوضوح، فينبغي وضعُ الجملة أو الكلمة بين مزدوجين[2]. وهذا ما نجده في مواقع متغايرة من مثل:

---

(1) Cf. Ibid., p.94.

(2) Ibid., p.111.

«حروب الخليج»، «السلام الأميركي»، «طريقة الحياة»، «النامية»... وهي جميعاً، للدارس الجغرافيّ أو البيئيّ أو الاستراتيجيّ، تتّخذ مرجعيّاتٍ مختلفة عن كلماتها، تتّسم بالهزء، ولعلّ الجملة «إذا أردت السلام فحضّر للحرب» هي خيرُ برهان على قلبِ معايير التلفّظ، ما يجعل الأضدادَ متعادلاتٍ وتدرُّجات (السلام الأميركي≈حروب الخليج≈طريقة حياة أميركا≈حروب على الدول النامية).

خامساً، نلحظ أنّ علامة التعجّب وترقيم المزدوجين رافقا الملفوظ-الكلمة حين كان نكرة، مقابِل الكلمة المعرّفة حين تكون في سياق تركيب جُمليّ، وليس في فعلٍ إنجازيٍّ مُقتطَع. نحن نقول، حتّى وإن كان الخلل نكرة (بعض خلل) داخل السياق التلفّظيّ، إنّ هذه الظاهرة عائدة إلى أنّ الكاتب لا يعرّف الخلل بقدْر ما ينتقده أو يرمي إلى إلغائه كملفوظٍ عبثيٍّ غير مسؤول، وهو يعادل ألفاظاً أخرى أكثر دقّةً لكنّها لم تُستخدم، لأنّ الدقّة تكشف الخلل، ولا تكتفي بإطلاق تسمية «خلل». من هنا فإنّ غياب «أل» التعريف حتّى متى وجبَ أن تكون، هو داعمٌ لغاية الكاتب في أنّ التعريف ليس لمحتوى الكلمة بذاتها، بل لدلالاتٍ أخرى تكمن تحتَها مخبوءةً. والنكرة تعني أنّه كلّما لُفظت كلمة «خلل»، كان ينبغي وضعُ كلمةٍ أخرى تُعرّف بما حصل بوضوح. هنا الكاتب إذاً يعرّف السخرية، ولا يعرّف الكلمة. كلّ ما ذكرناه عائدٌ إلى الإشكاليّة التي طرحها سيرل: فعباراتٌ مبتدئةٌ بنكرة *(Article indéfini)* [...] يمكن أن نقول عنها إنّها تعود في مرجعها إلى

[موضوع] خاصّ *(Référence à un... particulier)*. مع ذلك ليس بإمكانها أن تَصلح للتحديد *(Identifier)* أو للتأشير إلى أنّ المتكلّم لديه نيّةُ تحديد *(Intention d'identifier)* موضوع ما، كما هي الحال مع التعابير حيث تتدخّلُ أل التعريف *(Article défini)*. علينا بالتالي العمل على التمييز بين التعابير المرجعيّة الفريدة المعرّفة *(Expressions référentielles définies uniques)*، والتعابير المرجعيّة الفريدة النكرة *(Expressions référentielles indéfinies uniques)*[1]. الكاتب نجح في هذا التمييز لأنّه كان لافتاً في إبراز كلٍّ من الصيغتين، كما نجح، إلى حدٍّ ما، في إبراز نيّته التعيينيّة خلفَ التنكير: تعريف الاتّجاه التهكّميّ.

سادساً، استطاع الكاتب أن يستخدم سبيلاً آخر ليأذنَ للمتلقّي بولوج الاتّجاه النقديّ المسكوت عنه: البلاغة. فكثيرةٌ هي عند سيرل أفعالُ الكلام التي لا تؤدّى حرفياً *(Literally)*، بل تؤدّى بالعكس عن طريق الاستعارة، السخرية، الالتواءات...[2] - وهي جميعاً، على ما نظنّ، تأثيراتٌ ضمنيّة أرادنا الكاتب أن نرصدها. فعباراتٌ مثل «باخرة تقوم بابتلاع طبقات الفيول»، أو «باخرة تشرب البحر»، أو «الاقتصاد الليبراليّ الذي يركض وهو في صحّة جيّدة تحت ضربات سوط العولمة السعيدة...»، بما فيها من دعائم علامات الوقف كعلامة

---

(1) Searle, p.65.

(2) Searle and Vanderveken, p.131.

التعجّب وعلامة الحذف، تعني أنّ ثمّة تأويلاً لا مفرّ منه. فهل كفَت هذه الاستعارات لتُلبّي عطش المتلقّي في اكتشاف المسكوت عنه؟ وهل استطاعت أن تحلّ محلّ كلامٍ صريحٍ يفسّر المقصودَ منها على مستوى الواقع؟ غلطتان تأويليّتان من هذا المبدأ أصبحتا محتملَتين (Deux erreurs d'interprétation sont possibles)، ولتفاديهما ينبغي التشديد على اعتبارِ مبدأ التعبيرانيّة لا يعني البتّة أن يكون على الدوام ممكناً إيجادُ أو ابتداعُ عبارة ذاتِ شكلٍ يولّد في المُخاطِبين جميعَ التأثيرات المنشودة (Tous les effets recherchés). هكذا هي، على سبيل المثال، التأثيراتُ الأدبيّة أو الشعريّة...[1]. فجانبٌ من هذا النصّ التواصليّ ذي الوظيفة المرجعيّة الإخباريّة هو نصٌّ أدبيٌّ ذو وظيفة جماليّة شعريّة، ما حوّلَ التفسير (بالطرحين الصريحين: ماذا؟ كيف؟) إلى إقناع. الكاتب أراد إقناعنا بمسكوتٍ عنه معيّن، فهل هو نفسُه ما كشفناه كمتلقّين، أو ما كشفَه كلٌّ من المتلقّين؟ على الأقلّ استطعنا من خلال الجزء الذاتيّ من المقالة، أن نفهم أنّ ثمّة مسكوتاً عنه، ثمّة هزءاً ومخبوءاً عكسيّاً للتلفّظ الصريح. ونحن لم ننسَ بعدُ تكملةَ قول سيرل السابق الذي خلُصَ إلى أنّه علينا أن نعرف كيف نميّز بين ما نوى المتكلّم أن يعنيَه، وبين بعض أنماط التأثيرات (Types d'effets) التي يسعى إلى توليدها في المستمعين. لقد حوّل الكاتبُ المقالةَ الموضوعيّة إلى ذاتيّة، والموضوعَ إلى ذات المتلقّي

---

(1) Searle, p.57.

أيّ متلق، والوصفَ الإخباريّ إلى استعارات ذات دلالات تضمينية، والعالمَ الواقعيّ إلى عالم خياليّ حيث شُربُ البحر، وسعادةُ العولمة، والسوطُ السعيد. أوَلم يقل هو بنفسه «قد نصل قريباً إلى الحلّ الذي تمّ تخيّله منذ سنوات، أي اللجوء إلى البرغوث الالكترونيّ الذي يغلق بالشيفرة على المشاهد التي تثير الصدمة»؟ هذا التخيّل، مدعّماً بعبارة «البرغوث الالكترونيّ» يؤكّد أنّ هذه التعريفات باتت في عالم غير واقعيّ. إنّ مُسلّمة الوجود يتمّ تطبيقها من جانب كما من آخَر: في الخطاب المنعقد على الواقعية، ليس باستطاعتنا أن نحيل إلى سوى ما هو موجود؛ في خطاب التلفيق الخياليّ *(Discours de fiction)*، لدينا الإمكانية بأن نحيل إلى ما هو موجود في عالم الخياليّ[1].]

(1) Ibid., p.122-123.

عاشراً: الفقر وفرص العمل الصعبة /القدرة على الاستكمال التفصيلي في الملفوظين التقريري والإنجازي/

Margaret Maruani (مارغرِت مارُواني) – مديرة أبحاث في المركز الوطنيّ للأبحاث العلميّة.

العالم الدبلوماسيّ، حزيران/ جون 2003.

(http://www.mondiploar.com)

[...] في مطلع القرن الحادي والعشرين هناك في فرنسا 3،4 ملايين شخص يتقاضون مرتّبات تقلّ عن الحدّ الأدنى للأجور. لكنّ الصمت يلفّ الظاهرة، فهؤلاء ليسوا من العاملين الفقراء، فغالبيّتهم من النساء اللواتي يسعين للحصول على راتب إضافيّ في العائلة(...). هذا هو الاعتقاد السائد وهذا هو السبب في التستّر المشبوه على المسألة على الأرجح. /في مقدّمة الخاتمة اتّجاهان متضاربان، بالمعنى الإيجابيّ للكلمة: فبدايتها إخباريّة موضوعيّة- أو على الأقلّ مؤشّراتُها تدلّ على الموضوعيّة- نظراً إلى تعيين الزمان، والمكان، والعدد. من هنا، لا يبدو هذا الكلام غير صحيح. إلّا أنّ ربط التحديد بتحديد غير دقيق هذه المرّة (ما هو الحدّ الأدنى ؟ وما هو دونه=لادقّة البتّة). بيد أنّ هذا اللاتحديد لا يعكس اللاواقع. فالكاتب يصف الواقع، أو قُل هو يلاحظه إذ وصفُهُ سريعٌ للغاية ولا يحوي أفعالاً وصفيّة، وهذا

ما يؤكّد أفضليةَ اعتبار هذا الاتّجاه التقريري[1]. وكلامه يدور حول المرتّب، سواء كان دقيقاً أو غير دقيق. إلى جانب هذا الاتّجاه، اتّجاهٌ وصف الواقع، ولكن ليس من باب الصحّ أو الخطأ هذه المرّة، بل من باب إخفاق النيّة، وهو ما ولّد حزن الملفوظ. فأداة الربط «لكن» أتت للاستدراك، وكأنّ الخبر الصحيح السابق، لم يأتِ ما يعارضه، بل ما يصوّبُ صحّتَه. هذا التصويب أتى من خلال الخلل الجشعيّ، حيث إنّ مَن يظُنّ أنّه فقيرٌ هو بالحقيقة جَشِعٌ (يسعين) أو متطلّباتُه في تزايد (العائلة) (راتب إضافيّ). ولعلّ كلماتٍ مثل «اعتقاد وتسترّ ومشبوه» تدعو إلى ابتعاد الواقع عن الحقيقة، أي الملفوظ الأوّل التقريريّ اللَحظيّ الذي أساسُه عند أوستن الصحّ والباطل (Vrai ou faux)، عن الملفوظ الثاني الإنجازيّ الذي أساسُه سعادةُ الملفوظ أو حزنُه، أي أن يكون موفَّقاً أو غير موفّق *(Heureux ou malheureux)*[2].]

ليس من البديهيّ التمكّن من تقديم أرقام دقيقة عن البطالة لكن هامش الخطأ معروف، [أتى اعتراف الكاتب بنفسه أنّ الوصف هو مجرّد ملاحظة. والملاحظة أمكنَ الرجوعُ عنها. فبعدَ الأرقام، ها هو يتراجع! إنّه يجعل الاتّجاه الأوّل هذه المرّة حزيناً، ليس من جانب محتوى التوصيف، بل من جانب شكله المكتوب به. هو يشكّك في ما أكّده! أو يُسلِّم بأنّ ما يتكلّم عليه الآن هو فقط الجزءُ المتعلّق بالحدّ

(1) Austin, p.39.

(2) Cf. Ibid., p.89.

الأدنى غير المتعيّن. هذا يحوّل الملاحظة إلى عرضٍ. والفعل العرضيّ هذا، مرتبطاً بالتعذُّر (ليس من البديهيّ) والاحتمال (التمكّن)، قد حوّل الوصف إلى تقديم لا أكثر، وهذا ما يعادل فعلَي «*J'illustre، je pose*» لدى أوستن، وهما من ضمن لائحة أفعالٍ صنّفها بالعرْضية[1].

إنّ سيرل يساعد خطابَ الكاتب على عدم الظهور في ثوب المعلومة اللادقيقة أو اللاثابتة، وبالتالي يمكّن القارئ من المتابعة، حين يَعلم أنّ عدم الدقّة هو في وجهه الآخر اتّجاهٌ علميّ أيضاً، وربّما كان، بوصفه دقيقاً إلى حدٍّ لا متناهٍ، قدّمَ المعلومةَ وكأنّه خائفٌ من إبراز دقّتها. هو يشكّك في الدقّة عموماً هنا. فشكّك في ذاته. هذا الشكّ ربّما كان طريق اليقين. وربّما كان رفضَ الدقّة التي ربّما لم تكن دقيقة. هذه هي أهمّيّة العبارة-المفتاح «هامش الخطأ». حين قال بهامش الخطأ، رابطاً إيّاه بالمعرفة (معروف)، فإنّما قد عرف ضمنيّاً حقيقةَ العدد، بما أنّ بإمكانه طرحه من الهامش المعروف. ما لم يحدّده هنا، هو غيرُ المحدَّد صراحةً، ولكنّه محدَّدٌ ضمنيّاً؛ ما يعني أنّ بإمكان الكاتب تحديده لاحقاً. هذا المرجع يسمّيه سيرل فعّالاً *(Référence effective)* [...] وهو مرجعٌ في حالِ عدم اكتماله بعدُ، هو على الأقلّ كذلك بشكلٍ كامن *(Au moins potentiellement)* إذا أمكننا القول. وحينها، لا يصحّ لنا أن نتّهم المتكلّم بأنّه لم يعد إلى مرجع – حتّى إذا لم يكن الموضوعُ متعيّناً بطريقة غير ملتبسة

---

(1) Cf. Ibid., p.154.

(Non ambigue) بالنسبة إلى المستمع- شريطةَ أن يكون المتكلّمُ قادراً رأساً على القيام بذلك إذا سُئل عنه[1].

وبناءً على نظريّة سيرل، إذا أخذنا أمثلته وطبّقناها على قاعدة البطالة، وجدنا أنّ أيّ تعديلٍ في قاعدِة تفصيلٍ *(Règle de détail)*- الأرقام التي قدّمها الكاتب سابقاً في إطارها- لا يشكّل «العبة» مختلفة؛ فسيكون دوماً في كلّ نظامٍ من القاعدات التأسيسيّة عناصرُ نوعاً ما هامشيّة *(Des éléments plus ou moins marginaux)*[2].

إنّ عبارة «هامش الخطأ» تُحاكي فعلياً هذه النظريّة. [أمّا العمالة بشروطٍ دنيا والعاملون الفقراء فهم الوجه الخفيّ لأزمة البطالة التي لا تترجم فقط بحرمان عددٍ كبير من الناس وظائفهم بل بالضغط الذي يمارس أيضاً على ظروف العمل وعلى الذين يعملون. [أهذا تعريف؟ شكليّاً نعم (العاملون الفقراء هم ...+حقيقة اعتبار أوستن التناقضَ *(Contradiction)* من جانبٍ آخر علاقةً معقّدة تفرض بذاتها تعريفاً وتفسيراً\ *Relation compliquée qui exige elle-même définition et explication)*[3] = تلاحَظ أدوات الربط «لكن، أمّا، بل»، وهي متلاحقة لاستدراك حقيقةٍ خفيّة تنسجم مع «الوجه الخفيّ»؛ كما تلاحَظ الأداتان «الفاء وكما» في المقطع اللاحق، تفسيراً أو توضيحاً أو الاثنين معاً، ما نتيجتهُ تعريف البطالة، لأنّ تعريفَ أزمتها هو تعريفٌ

---

(1) Cf. Searle, p.126.

(2) Cf. Ibid., p.74.

(3) Austin, p.75.

بها)، ولكن دلالياً لا: فبعد رابط التعريف بضمير الجمع «هم»، جاء مفردٌ(الوجه الخفي)، وبعد توقُّع التعريف الموضوعي، فوجئنا بتعريف ذاتي، كان جسرَ عبورٍ لتعريفٍ آخر هو البطالة من جديد (التي...). هذا يدلّ على تماسك الكاتب في مرجعه، فحتّى عناصرُ البطالة لا تعريفَ مفْرَداً لها، بل مُساقٌ ضمن التعريف-المرجع الأكبر. هذه الطريقة في التعريف ليست معادلة لـ س هي ع، بل س بوصفها ع، لأنّه من وجهة نظرٍ خاصّة، كأنّه، أكثر من ذلك، يقول: «أنا» أعرّف س بوصفها ع»(Je définis X comme étant Y)، وبذلك، عبرَ نحوَ تلفّظ إنجازي[1].[

فباسم البطالة تَضعف شروطُ العمل وضمانُه وتُرمى فئات من الأجراء في نوع من الركود الاضطراريّ أو الوظائف غير المتمّمة الشروط، كما يعاد النظر في الدوام وتقبل أجور تقلّ عن الحدّ الأدنى. [ما رأيك بما قاله أوستن: قد نصادف بعامّة أفعالاً حركيّة تُحقَّق تحت الضغط [...] أو سهواً(Soient effectuées sous la) (contrainte,ou du fait de telle ou telle méprise)، أو حتّى بدون أن تكون حصلت ثمّة نيّةٌ لإتمامها(Sans qu'il y ait eu intention) (de les accomplir)[2]؟ إنّه حاضرٌ هنا: فلاحِظ صيغةَ المجهول في القولين (Soient effectuées=تُرمى+فعل «يمارَس» أعلاه)،

---

(1) Cf. Ibid., p.88.

(2) Ibid., p.54.

والضغطَ (الاضطراريّ+كلمة «الضغط» أعلاه)، والسهوَ الذي يولّد سوءَ تفاهم ما (باسم البطالة=لا تسويغ منطقيّ ⇐ تضعف شروط العمل+الركود+تقلّ عن الحدّ الأدنى)، وغيابَ النيّة القاصدة (تقبّل أجور). إنّ هذه التفصيلات الأربعة أتت تعريفاً تلخيصيّاً للبطالة، وهو تعريفٌ غريبُ النوع (باسم البطالة=البطالة هي رمي...+تقبّل...). وأعتقد هذه المرّة أنّ الكاتب نجح في تعريف مرجعه الأساس، إذ إنّه ورد في خاتمة الخاتمة، واضحَ المعالم، ولا مجالَ للمستمع ألّا يفهمه في حالاتٍ طبيعية: فالمرجع يصير مكتملاً *(Une référence sera complète)* إذا كان الموضوع قد تحدّدَ بطريقةٍ غير ملتبسة بالنسبة إلى المستمع *(Identifié d'une façon non-ambigue pour l'auditeur)*، أي إذا نجح تبليغُ التحديد إلى المستمع[1]. لقد حصر المتكلّم إذاً خطابه بموضوعٍ واحدٍ متماسكٍ لا غير *(Un objet et un seul)*، وختمَ به، هو البطالة ككلمة-موضوع – وهذه إعادةُ تصييغ لمسلَّمة الوجود *(Reformulation de l'axiome d'existence)* – وعرف كيف يجعل المستمعَ يعيّن الموضوعَ بالانطلاق من ملفوظ التعبير الذي أورده– وهذه إعادةُ تصييغ لمسلَّمة التحديد[2].]

---

(1) Searle, p.126.

(2) Cf. Ibid., p.127.

خلاصة

في ختام هذا المبحث، لاحظنا أنّ فعل الكلام التأكيديّ ما كان ليكونَ في الخاتمة، فهذه الأخيرة تفتقد منطقياً للحجج والتفسيرات والعروض التوضيحيّة التي نراها تكثر في جسم الموضوع لأسبابٍ موضوعيّة تُسوِّق لاتّجاه القضيّة.

وقد أكّدنا، بناءً على مُجريات تحليلنا، أنّ الحَوسبة رديفٌ للأونطولوجيا في عصرنا الحديث، وباستكمال هذه المرحلة جذّياً، قد نتوصّل إلى تعريفاتٍ متقدّمة حاسوبيّة-أونطولوجيّة: ففي المعلوماتيّة أنّ الأونطولوجيا هي نظامٌ من تمثيل المعارف (Système de représentation des connaissances)[1].

تمثيل المعارف هذه لا يمكن أن يتكوّن بغير سبيل التعريف، أي بغير سبُلِ سبرِ غورِ دلالاتها عن طريق تحليل أفعال الكلام التي تؤدّي تحقّقها بدءاً من البنية اللغويّة التحتيّة لملفوظ التعريف. وهل من إثباتٍ لذلك، أكثر ممّا جاء على لسان سيرل نفسه؟ فيستتبعُ ذلك أنّ

(1) http://fr.wikipedia.org/wiki/Ontologie.

دراسةَ دلالة الجملة، ودراسةَ أفعال الكلام، لا تشكّلان ميدانين يستقلّ واحدُهما عن الآخر، بل ميداناً واحداً ليس إلّا، يمكن النظر إليه من منظارين مختلفين[1].

(1) Searle, p.55.

الفصل الثالث

منطق مغالطات التعريف الطبّيَة والأونطولوجيّة
في قبضة «النقد الجديد»

تمهيد

لقد قمنا بجهد كبير في سبيل التفتيش، داخل مدوَّنتنا نفسها، عن نصٍّ يناسب تطلّعات النقد الجديد المُغالطيّة. فالتعريف ليس عليه أن يُدرس من خلال عناصره التعريفيّة التي تزيده إيجابيّةً فحسب، بل من خلال عناصره التي تجعله ذا ريبة... أنواع المغالطات تجعلنا نتنبّه إلى عدم الوقوع في أفخاخها، ما يعني أنّ التعريف هو معادلة: = عبارة – مغالطات ؛ أو = مغالطة1+مغالطة2... مغالطة ن . فالتعريف بمنظاره الصريح، أي بمنظار الكاتب، هو مجموع المغالطات. أمّا بمنظاره التعلُّميّ أي الإنتاجيّ لتعريفٍ من قِبَل القارئ مستقبَلاً، فهو ما تَداركَه القارئ من مغالطات الكاتب. وإنّ موجة التحليل بين المغالطة ومحاولة الخروج منها هي السيرورة المستمرّة للمغالطة/ اللامغالطة.

ونلفت النظر إلى أنّ النقد الجديد الذي اهتمّ بالشعر، آثرْنا نحن إلى تطبيقه على مقالات. وإذا كان النقّاد الجدد يصفون أحياناً الشعر بلفظة «خطأ أو غلط» حين يُسخّفون صورةً إلى تسطيحها فإسقاطها من مجال الواقع، فكيف يكون الحال في نصّ إبلاغيّ؟! فمشكلة الناقد

الجديد أنّه لا يكفيه إعطاءُ رأيه في العمل، بل يتعدّى ذلك إلى إعطاء رأيه بموضوع كلام العمل، وهذا ما لم نقم به، معتبرين أنّ للمبدع الحقّ باختيار أيّ موضوع، غير أنّه ليس له الحقّ باختيار أيّة بنية شكليّة أو معالَجة تقنيّة.

هذه المرّة لا تطويقَ لنوعٍ محدّد من المقالات، بل الوقوع على أيّ نصٍّ ملائم سواء كان أيديولوجيّاً أو طبيّاً. وكذلك ما كان التطبيق ليطالَ مقدّمةً، أو خاتمة، بل أيّ جزءٍ من النصّ يكون ملائماً. وهكذا نكون قد عملنا على المدوّنة في أقسامها كافّةً، الموجَّهة منها قبل اعتناق النقاط، والتلاؤميّة بعد اعتناقها.

ولمّا كان نقد «النقد الجديد» نقداً تطبيقيّاً عمليّاً عند ريتشاردز، اعتبرنا أنّ مادّته الأصليّة هي المقالة لا الشعر، إذ بهذه الطريقة لا يُحجِّم الشعر، بل يلبس النصُّ النقدَ الذي هو أصلاً على قياسه. لذلك متى استشهدنا بنقّادٍ جدد، استبدلنا مصطلح «القصيدة» بالنصّ أو النموذج بحسب طوله الجزئيّ، ومصطلح «البيت» بالسطر؛ علماً أنّ النقد الجديد عينه قد استبدل مصطلح «الناقد» بمصطلح «القارئ»، ما عكسَ أهمّيّةً هي أنّ النصَّ أيَّ نصّ بات شائعاً لأيّ مُتلقٍّ، ما عنى بدوره أنّ المغالطات تكثر، خصوصاً في مجال التعريف المُلقى أمام أعين الجميع، مع اعتبار أنّ النصّ الإبلاغيّ المتكوّن في المقالة الموضوعيّة شأن الاتّجاه الطبّيّ، أو المقالة الموضوعيّة-الذاتيّة شأن الاتّجاهات الايديولوجيّة، هو مضغوط في مجموع تعريفاته: تعريفاته=تصفيته.

مغالطاتُ تعريفاته=التباسه الكلّيّ. نقد من دون ناقد! نقدٌ بقارئ؟ أي نصٍّ مُغالطيّ... والمغالطات تتضاعف مع تضاعف القرّاء الذين يظنّون أنّ لهم الحقّ بنقد النصّ... وأيّ نقد؟ هو الحُكم!...

وحين انتقد إمبسون المغالطات في النصّ الشعريّ الأيديولوجيّ، جعلنا نهتمّ بشأنين اثنين: أنّ المقالة الأيديولوجيّة ليست مرفوضةً تطبيقيّاً في النقد الجديد، وأنّ الأيديولوجيا، على الرغم من شرعيّة حضورها في المقالات، هي هي من حيث المغالطات. ولمّا قال ريتشاردز: يمكن تطبيق الحجج أعلاه على الطبّ[1]، جعلنا نتأكّد أنّ الطبّ، كما الأيديولوجيا، هو من المحاور التطبيقيّة للنقد الجديد، وأنّ المغالطة والحجّة المنافية لها هما في علاقة ثنائيّة تعارضيّة تكامليّة دائمة.

المعرِّب كان القارئ الأوّل، ونحن لا نعرف ما إذا كانت ترجمته لأصل النصّ الفرنسيّ أو الانكليزيّ ناجمة عن نيّة أو عن موضوعيّة. وقراءتنا أصبحت بالتالي قراءة القارئ، أي انحرفت أكثر فأكثر عن كتابة الكاتب أي عن قراءة فكره. المغالطات إذاً أخذت طريقها إلى الاتّساع. وبات النصّ=المعنى-المعاني. وتالياً صارت قراءتنا هي قراءة متعدّدة، لأنّنا أُلزِمْنا بمغالطات النيّات الأصليّة، ومغالطات النصّ الزائف وتركيبه طبعاً.

---

(1) William Empson: Seven types of Ambiguity, London, Chatto and Windus, 3rd ed., 1949, p.248.

والجدير التنبيه إليه أنّني سوف أترك الأخطاء الواردة أصلاً في الإخراج الطباعيّ، أو علامات الوقف، أو الترقيم، أو النحو، أو الإملاء كالهمزات والشدّات...، على خلاف ما كنتُ أفعله في القسمين السابقين. فهنا يجب ذلك لسببين اثنين: الأوّل أنّني في معرض الكلام على الالتباس؛ والثاني أنّه ينبغي أن أُشير إلى أسلوب الكتّاب باللغة العربيّة الذين أحياناً لا يذكرون أسماءهم في التعريب، إلّا أنّهم يكتفون بتشويه أسلوب الكاتب الأصل، أو محتوى نصّه، ويبيّنون عن ضعف كتابتهم. وعملي التصحيحيّ، لو أكملتُ به هنا الآن أيضاً، لَكنتُ أُغطّي عيوباً ما كان ليتنبّه إليها القارئ، وبالتالي سيكون عملاً تخريبيّاً كناتِج...

وكلّما وقع القارئ على خطأ في النموذج، ليتذكّرْ أنه خطأ النصّ الأصليّ. تركت الأخطاء قصداً، لأنّ جزءاً من حكم القارئ هو الحكم على لغة النصّ، وتالياً الحكم على لغةِ مجموعة من النصوص، وتالياً الحكم على لغةِ مدوَّنة، وتالياً الحكم على لغة المعروف من شركات المطبوعات، وتالياً الحكم على تدهور اللغة العربيّة الفصيحة على يد المطبوعات الإلكترونيّة، وقياسُ ذلك على مطبوعةٍ مهمّة إلى هذا الحدّ هي «العالم الدبلوماسيّ»، لَهو مأساة! وقسْ على ذلك ما هو أدنى منها...

1. ⌠النقل⌡

⌠يقول إمبسون *(Empson)*: مجدّداً هي الترجمة [...] عندما يترجم، فإنّه كان ثمّة أمور أخرى كثيرة للتفكير فيها، ولقد تمّ الانزلاق في خسارة أشكال التركيب التي اعتادت عليها أداتهُ [...] وربّما بعض الالتباس *(Ambiguity)* يَظهر من المجهود لوضع ما تيسّر من النبر على آخر الفعل كتقليد للأصل *(Imitation of the original)*[1].

وقد عالج هذا النموذج خطورةَ الترجمة:

وكان لماكماهون، المفوض السامي في مصر، مراسلة صعبة مع الشريف حسين في دفعه إلى الثورة. وقد ازدادت صعوبة النص بسبب أخطاء في الترجمة وسوء فهم لبعض المصطلحات، مما عقد الأمور وأرجأ إيجاد الحلول[2].

إلّا أنّ مترجم النسخة الفرنسيةّ إلى العربيةّ لم يراعِ دقّةَ الترجمة، لا كمعرِّب، ولا كمتبنّ إلى المحتوى التحذيريّ للنموذج نفسه:

Le haut-commissaire en Egypte, Mac-Mahon, entretient donc une correspondance difficile avec le chérif Hussein pour le pousser à se révolter. Défaillances de traduction

---

(1) Ibid., p.75.

(2) هنري لورنس (Henry Laurens): الخريطة (كيف جرى تقسيم السلطنة العثمانيّة)، العالم الدبلوماسيّ، 4/ 2003.

et malentendus sur le sens des mots utilisés compliquent encore le texte, déjà ambigu, de la correspondance, créant ainsi un imbroglio dont la solution est remise à plus tard[1].

فبعيداً من التعريب الناجح في بعض المواقع، نسجّل ملاحظاتنا المتنوّعة كما يلي: أين «إذاً» كمعادل لكلمة «*donc*»؟ لماذا استخدم الكاتبُ الاشتقاقَ عينَهُ «صعبة/ صعوبة» في حين أنّ الكلمتين الفرنسيتّين لم تكونا ذات جذرٍ واحد *(difficile/compliquent)*- كان عليه أن يستعيض عن الصعوبة بالتعقيد؟ لماذا جعلَ «*pour*» التي تفيد الغاية مرادفاً لحرف الجرّ «في» وليس لحرف الجرّ «لـ»؟ هل مَن يقرأ، بشكلٍ تراجعيّ، النصَّ العربيَّ أوّلاً كان سيترجم إلى الفرنسيّة «أخطاء في الترجمة» «*défaillances de traduction*» أو «*fautes de traduction*»؟ لماذا دمج تعقيدَ النصِّ والتباسَه «*Compliquent le texte, déjà ambigu*» في كلمة «صعوبة»، فكما لم يدقّق في معنى التعقيد، غيّبَ الالتباس كليّاً مع أنّه وُضع بعدَ فاصلة تنبيهيّة إلى ضرورة ذكره؟ لماذا لم يتنبّه، تركيبيّاً، إلى أنّ «*dont*» تستوجب ضميراً عائداً في النسخة العربيّة، فاكتفى بذكر حدثين كأنّ واحدهما مستقلّ عن الآخر (عقّد الأمور وأرجأ الحلول- ليس التعريب حرفيّاً هنا لكنّه ناجح من حيث الدلالة والصياغة) في حين أنّ الثاني يتوقّف على الأوّل وكان ينبغي أن يكون التعريب «عقّد الأمورَ

(1) Henry Laurens: Les ravages d'une guerre arbitraire (Comment l'Empire ottoman fut dépecé), Le Monde Diplomatique.

وأرجأ حلولَها»)؟ وكيف حوّلَ الكلّيّة «sens des mots» إلى جزئيّة (بعض المصطلحات)، وهي جزئيّةٌ مزدوجة، بالعبارة «بعض» وباللفظة (مصطلح=جزء من الكلمات، اللفظة التي كان عليه أن يستخدمها).

بات الالتباس دلالياً وتركيبياً. والتعريفُ عن المراسَلة بات ملتبساً كمحتواها بحسب ما ورد في النصّ. التباس التركيب والدلالة حولَ التباس المحتوى النَصّيّ، جعل التعريف منحرفاً انحرافاً ليس ببسيط. في نموذجٍ-مثالٍ واحد، هكذا جرت أمورُ الترجمة؛ فكيف في نصٍّ كامل، وفي مدوّنة كاملة؟! نحن نعالج النسخة العربيّة لنصوص العالم الدبلوماسيّ، ولكنّنا بالحقيقة نعالج ما وردنا منها...، وليس حقيقتها التركيبية والدلاليّة الكاملة بأصالتها. ∫

2. ∫ المرجع وتقديمهُ والتباس الغموض الفضفاض ∫

∫أوّل ما ينظر إليه القارئُ العاديُّ متوسّطُ مستوى الذكاء، هو المرجع الذي يحيل إليه النصّ: هل العنوان يعكس الموضوع الأساس؟ هل الكلمات-المفاتيح والحقول المعجمية تحاكي الكلمة-الموضوع؟ هل الضمائر ملتبسة أو تعود إلى هذا المرجع؟

يسمّي إمبسون في هذا المقام عبارة التباس الغموض الفضفاض *(Ambiguity by vagueness)*[1]، أي كأنّه التباسٌ مضاعف. ويتحدّث إمبسون فيما يتحدّث عن المرجعِ غيرِ الواضحِ الصيغة في الصحُف،

(1) Cf. Empson, Ibid., p.26.

وهو أمرٌ نتبنّاه في مدوّنتنا المبنيّة على قاعدة العالم الدبلوماسيّ: من الغموض الفضفاض المتزايد، الإدماجُ *(Compactness)*، ونقصُ التمييزات المنطقيّة في الانكليزيّة، المثال الصارخ هو ترويسات الجريدة [...] والمعنى المخصوص *(Particular meaning)* يُعطى كما في النظام الصينيّ للكلمات-المفاتيح المسطَّحة بصيغة اسم-نعت، أو كلمة-عبارة واحدة كالإسكيمو[1].

هل هي حرب من أجل النساء؟[2]

عنوانٌ: علامَ يعود فيه ضميرُ الغائب المؤنّث «هي»، أللحرب أم لكلمة مؤنّثة باتت سبيلاً لهذه الحرب؟ لا ريب في أنّ العنوان لافت، ويجذب القارئ أو القارئة، ولكنْ إلى أيّ موضوع؟!]

تحيا البرازيل![3]

[عنوانٌ أيضاً: ينتهي بعلامة تعجّب. علامة الترقيم هذه هي التي تجذب القارئ، وليس عبارة «تحيا البرازيل» التي يذكرُها الشعبُ البرازيليّ في غير مناسبة. هذا الترقيم يشدّ القارئَ السياسيّ والتاريخيّ والقارئَ غيرَ المهتمّ بالسياسة والتاريخ، إذ هو يدلّ على نبرة فيتساءل: هل الكاتب يعني العكس؟ السخرية؟ التشجيع؟...]

---

(1) Ibid., p.236-237.

(2) تراجع كريستين دلفي (Christine Delphy): هل هي حرب من أجل النساء؟، العالم الدبلوماسيّ، 3/ 2002.

(3) يراجع انياسيو رامونه (Ignacio Ramonet): تحيا البرازيل!، العالم الدبلوماسيّ، 1/ 2003.

[من جهة مقابلة، يمكن للنصّ أن يكونَ موضوعُه واضحاً حتّى إنّه باستطاعة القارئ أن يستخلص العنوان الذي وضعه الكاتبُ بنفسه، كما في النصّ «الأدوية المغشوشة تغرق العالم..!!»:

ويتفق الكثير من الخبراء على أن الهند تشهد أسوأ حالة عالميا؛ فالتحدي الكبير هو وجود أكثر من 20 ألف شركة أدوية مرخصة على أراضيها! ويقدر ديليب شاه الأمين العام لاتحاد الصيادلة الهنود -الذي يجمع 12 شركة هندية كبيرة مصنعة للأدوية- نسبة المزيف من العقاقير المبيعة في الصيدليات الهندية بما يتراوح بين 15-20 % ، وأن النسبة ترتفع مع بعض الماركات في بعض المدن إلى ما بين 35-40 % ، ويشير خبير آخر من نيودلهي إلى أن ذلك هو «أخطر تحدٍ يواجه النظام الصحي في الهند»[1].

فهذا القسم المتعلّق بالهند، مع أنّه ليس النصّ بكامله، إلّا أنّه يعكس تلاؤمَ الموضوع مع العنوان «الأدوية المغشوشة تغرق العالم» (الشبكة المعجمية= أسوأ حالة، المزيّف، أخطر تحدٍّ يواجه النظام الصحّيّ)، حتّى إنّ مرادف «الأدوية» (العقاقير) هو صيغةٌ انحرافيّة للدواء. والمبالغة التي بثّها كلمة «تُغرق» رأيناها في القسم على شاكلة أفعل تفضيل (أسوأ+أخطر). بالتالي المرجع واضح ومناسب للعنوان تركيباً ومضموناً، وكما إنّ الكلام على الهند في هذا القسم

---

(1) صهيب جاسم: الأدوية المغشوشة تغرق العالم..!!، العالم الدبلوماسيّ، 19/ 02/ 2002 (هنا التاريخ مصرَّح عنه في المقال الالكترونيّ نفسه).

هو مجسّمٌ مصغّرٌ عن العالم، فمن الطبيعيّ أن يخصّصَ كلُّ قسمٍ لبلد من بلدان العالم، حتّى يصير مجموعُ البلدان هو رمز العالم. كما أنّ الترقيم حريصٌ أيضاً على أن يعكس حالة الغرق، دلالياً، وليس فقط لجهة دلالة انتظار ما سيجري (علامة الحذف) أو التعجّب المبالَغ فيه ممّا سيجري (علامتا التعجّب المتعاقبتان)؛ فعلامتا التعجّب، وهما تتّخذان شكل المجذاف، يصبحان أداتَي تجذيف ونجدة في مركب الأمان الذي يسير عرضَ البحر ويُحدِق به الخطر. ولكن أين البحر؟ إنّه في علامة الحذف التي في نقطتيها، إلى جانب نقطتَي علامتَي التعجّب أدناهما، باتت ترمز إلى نقاط المياه.

ولكنْ إذا كان ما من التباس بين العنوان والمتن، هل هذا يعني أنْ ما من التباس في المتن في حدّ ذاته؟ ماذا نقول عن «النسبة» التي ذكرُها علميٌّ فيما معطياتُها غير دقيقة في كلّ مرّة ذُكرت (بين 15-20%: بين 35-40%)؟ ولكنْ على الأقلّ كان الكاتب علمياً، فإن كانت نسبةُ الفرق 5%، إلّا أنّه حافظ على هذه النسبة في كلّ نسبة ذكرها. إذاً هو التباس، إلّا أنّه التباسٌ واعٍ، مبرمَج.]

[في هذه المقالة، يبدو العنوان سهلاً وذا مرجع واضح إذ هو عائد إلى موضوعٍ يهمّ الناس ويتواصلون بخصوصه، هو العين التي هي مضاف إليه لما يجعلها أكثر خصوصيةً «الجفاف»:

وتفرز الطبقة الزيتية الخارجية من الدمع من مجموعة من الغدد الصغيرة الموجودة على حافة جفن العين، والعمل الأساسي لهذه

الطبقة الزيتية هو تسهيل انزلاق الجفن على سطح العين أثناء الرفيف وتقليل نسبة تبخر الدموع.

الطبقة الوسطى وهي أكبر الطبقات الثلاث تكون ما يطلق عليه مجازاً (الدموع) وهذه الطبقة المائية تفرزها غدد صغيرة متناثرة على الملتحمة وهي غشاء دقيق يبطن جفن العين ويغطي مقلة العين، وتفرز هذه الطبقة أيضاً بواسطة الغدة الدمعية الرئيسية التي يطلق عليها الغدة الدمعية الكبيرة. وهذه الطبقة تغسل العين وتنظفها من الأجسام الغريبة. وتتكون الطبقة الداخلية من مخاط يفرز من خلايا أخرى في الملتحمة وتسمح هذه الطبقة بانتشار الطبقة المائية على سطح العين بانتظام وتساعد على بقاء العين رطبة وبدون المخاط لا يمكن أن تعلق الدموع بالعين[1].

يفترض إمبسون أنّه يترتّب، عند القيام بمرجعٍ غامض *(Obscure reference)*، أن يكون السطرُ قابلاً للفهم *(Intelligible)*، حتّى متى لم يكن المرجع مفهوماً[2]. في حالاتٍ يكون فيها المرجع غامضاً، فمسؤوليّة الكاتب الثانويّة الداعمة حينئذٍ تكون في إفهام الملفوظات، أي في عدم غموضها أيضاً. ليست الحالة كذلك هنا، فالمرجع مفهوم، والنصّ على الدوام يعود إلى الكلمة-الموضوع المتكرّرة «العين» التي تساندُها كلمة-موضوع أكثر دقّةً هي «جفاف»،

(1) ناهل فؤاد القره: جفاف العين، العالم الدبلوماسيّ.

(2) Empson, Ibid., p.167.

في علاقتها المعجمية، بطبيعة الحال، بما هو ضدّ الجفاف، «الدموع» لأنّ الجفاف هو اللادمع. لكن، مع وضوح المرجع، هناك غموض في الفهم: فبين المقطع الأوّل من النموذج والمقطع الثاني هناك تدرُّج في الصعوبات المصطلحيّة، وبخاصيّة حين يصبح هذا المرجع الجزئيُّ أو ذاك ضائعةً هويتُهُ في السياق الذي يعرّف به، فيصبح تعريفُهُ التباسياً بسبب ضمير لا يُعرف ما إذا كان عائداً إليه أو إلى عنصر آخر من الملفوظة. وإذ فهمنا من إمبسون ما معناه أنّ الشيء قد ينتمي إلى هذا أو ذاك[1]، فما أدراكَ إلامَ يعود الضميرُ الغائب المؤنّث «هي»، وهو للمفرد كما لجمع غير العاقل، في الجملة: هذه الطبقة المائية تفرزها غدد صغيرة متناثرة على الملتحمة وهي غشاء دقيق يبطّن جفن العين ويغطّي مقلة العين؟ فهل يعود الغشاء إلى الغدد الصغيرة، أو إلى الملتحمة؟ وهل من الضروريّ أن يفصلَ بين الالتباسين خبيرٌ طبّيّ؟ أوَليس من واجب الكاتب أن يفْهِم القارئَ من خلال تركيبه الواضح، بغضّ النظر عن نوعيّة القرّاء؟ فمَن كان يعرف الإجابة، لَما كان مهتمّاً أصلاً باستكمال قراءة النموذج إلى الحدّ الذي وصلْنا به.

ثمّ أين علامات الوقف، وأقلّه الفواصل؟ فقبْلَ «وتفرز هذه الطبقة» كان ينبغي أن تكون فاصلةٌ أو نقطة أو قاطعة، وإلّا أحسّ القارئُ أنّها معطوفة بواو العطف، في حين أنّ هذه الأخيرة استئنافية. أيضاً قبلَ

(1) Cf. Ibid., p.149.

«ومن دون المخاط» لم نجد لا رابطاً تركيبياً- بل فجائية دلالية- ولا حتّى رابطاً بالترقيم. هذه الأفكار باتت كما ذكره ريتشاردز *(Richards)* حول أحدهم: توصيل ذلك سيّئ. الأفكار معلّقة معاً[...] لا أظنّ أنّه سيخسر بالقدر الذي سيربحه بإعادة صياغة نثرية للمحتوى *(Prose paraphrase)*[1].»

3. «القاموس»

«ليس من الضروريّ أن نعرف كلمة «إكليليّة»، إذ يبدو من سياق النموذج أنّ هذا النعت للشرايين استُعيض عنه فيما بعد بالمنعوت الذي هو الشرايين، ما يعني أنّ القارئ كفاه أن يفهم أنّ موضوع الكلام هو الشرايين؛ على أنّ العنوان «الإكليليّ مرض الشرايين» هو التباس لما جاء في العبارة «مرض الشرايين الإكليليّة»، إذ في الأوّل يبدو أنّ الإكليليّ هو المرض بعينه، في حين أنّ في الثانية يبدو أنّه أحد أمراض الشرايين:

يتتج مرض الشرايين الإكليلية عن تضيقها، إذ تتوضع الدهون على جدران الشرايين؛ يؤدي هذا التضيق إلى نقص في كمية الدم

(1) I. A. Richards: Practical Criticism (A study of literary Judgement), London, Kegan Paul & Trench & Trubner, Edinburgh Press, 1930, 2nd ed.,p.88.

الواصل إلى عضلة القلب كما يزيد من خطر انسداد الشريان بواسطة خثرة دموية، مما ينتج عنه حدوث احتشاء عضلة القلب[1].

ولكن ما معنى «احتشاء»؟

لو كان هذا النصّ قد أُلقي شفهياً، لَفوجئ السامع بالكلمة، وما كان عرف معناها لا من القاموس الذي ما كان ليملكه ساعتئذ، ولا من السياق الذي ما كان ليستطيعَ طلبَ إعادته إلى الوراء! ولكن بما أنّه مكتوب، كان باستطاعة القارئ أن يُحضر المعنى من القاموس: احتشاء=امتلاء[2].

وفي السياق كان باستطاعته أن يلاحق ما سبقَ الكلمة من كلمات تُعتبر مُسبِّبَةً للاحتشاء، ما دام هذا الأخير هو النتيجة (ما ينتج عنه). فالفعل «ينتج» ذُكر في مقدّمة القضية، وهو طبعاً عليه أن يعكس الخاتمة في دائريّتها (ينتج). الاحتشاء إذاً قريب من التضيّق، ومن الانسداد والتخثّر (خثرة). فهل يتوافق المعنيان القاموسيّ والسياقيّ؟ إذا توافقا، فهما متقاربان وليسا متعادلين، كما أنّ الاكتشاف في السياق هو أمرٌ تقريبيّ. ونحن رأينا عند إمبسون كلمةً قد تعني كذا أو كذا، في سياق أو قاموس...[3]؛ كيف يكون الامتلاء تضيّقاً؟ ذاك، من جديد، سببٌ لنتيجة.

---

(1) الإكليلي مرض الشرايين، لا كاتب في المدوّنة، وهو التباس إضافيّ يُسقط أسلوب المخاطَبة الذي عاينّاه نحوياً.

(2) بطرس البستاني: محيط المحيط(قاموس مطوّل للّغة العربيّة)، بيروت، مكتبة لبنان، 1977، مادّة «حشا»: احتشى.

(3) Cf. Empson, Ibid., p.99.

[في النموذج الآتي:

الأنف كما نعرف عضو هام من أعضاء الجسم البشري، وله وظائف عديدة وهامة بسبب وقوفه كمدخل لجهاز التنفس بالكامل. فهو يحميه بتسخين الهواء وترطيبه وتنقيته من العوائق والغبار.

إن الجزيئات التي تدخل إلى الأنف عن طريق الهواء كثيرة. فالمواد المهيجة والطفيليات والتلوث، تسبب كلها التهابات مختلفة الأشكال في الأنف.

وتصنيف الالتهاب الأنفي حسب آليات تشكله - تحسس، إنتان - وآليات أخرى يسمح لنا بالتالي المعالجة الجيدة والناجحة لمثل هذه الأمراض[1].

ما من كلمات تحتاج قاموساً أو سياقاً، إذ إنّ كلاًّ منها أتى على شكلِ ثنائيّة اسميّة أو نعتيّة بالعطف، ما يعني أنّ كلمةً غيرَ مفهومةٍ من الثنائيّة يمكن اكتشافُها من معطوفها الذي يبدو إلى حدٍّ ما مرادفاً إمّا معجمياً وإمّا سياقيّاً، ويجعل التعريفَ مجزّأً على تعريفاتِ أسماء أو نعوت: عديدة≈هامّة (سياقيّ)؛ ترطيب≈تنقية (معجميّ وسياقيّ)؛ العوائق≈الغبار (معجميّ)؛ الموادّ المهيّجة≈الطفيليّات≈تلوّث (معجميّ)؛ الجيّدة≈الناجحة (معجميّ وسياقيّ). لا ريب في أنّ هذه الثنائيّات قد تبدو مرادفات، إلّا أنّ السياقيّ منها، يحتاج إلى النبر كي يكونَ التعويلُ على أقوى طرفَيِ الثنائيّة، ويُصارَ إلى تعليلِ اشتراكِهما

(1) فادي لوقا: ما يجب أن تعرفه من أجل أنف مريح، العالم الدبلوماسيّ.

ياسر عرفات، لكن من دون السير في سياسة مشتركة معه لأنه يحرص كما والده على عدم تعريض سوريا للتقلبات المتعددة وغير المتوقعة التي يمكن أن تطرأ على النزاع الاسرائيلي ـ الفلسطيني. وكان قد أعطى البرهان على ذلك بالامتناع عن أي رد يذكر على الغارات التي شنها الطيران الاسرائيلي ضد القواعد السورية في الأراضي اللبنانية. أخيراً سعت سوريا إلى تطوير الإجراءات السابقة والآيلة إلى تسهيل المبادلات المختلفة مع العراق عبر الحدود مع البلدين بما فيها الاستخدام المضبوط بعناية لخط الأنابيب الذي يعبر الاراضي السورية ويسمح بمرور قسم من الصادرات النفطية العراقية[1].

فكلمة «قِمّة» بكسر القاف تشتقّ من الفعل «قَمّ»[2]، وكذلك الكلمة عينُها مضمومةَ القاف. حينما تسمع بفشل مثل هذه الاجتماعات أو عدمِ جدواها في تقرير المصائر، تُحوّل نظرَكَ من قِمّة بمعنى الذروة والقيمة المتعالية، إلى القُمّة بمعنى القُمامة، في لحظة التلفّظ. يتطوّر الفكر، كما اللغة المعجميّة، من تسلسل المعاني المعجميّة من القِمّة إلى القُمّة التي تُذكر بعدَ الأولى[3]. فالإواليّة هي نفسُها عند إمبسون كتلك التي تطوِّر معنيَي الكلمة من خلال اشتقاقها *(Derivation)* [...]

(1) بول-ماري دولا غورس (Paul-Marie De La Gorce): منطق الحرب في الشرق الاوسط، العالم الدبلوماسيّ، 9/ 2001.

(2) يراجع محيط المحيط، مادّة «قمّ».

(3) يراجع الموضع نفسه.

معرفتنا بأنّ لهما الأصل عينَهُ *(Same origin)* هي مسألة ثانوية [...] هما من قَبِيل لعبة التورية *(Puns)*[1].

في النصّ نفسه نجد النمط الرابع من الالتباس بحسب تمييز إمبسون: في النمط الثالث *(Third type of ambiguity)*، صيغتان مختلفتان *(Two different moods)* تكونان كلتاهما منضويتين جنباً إلى جنب، وتُجعلان متناسبتين كما لو كان ذلك في التعميم *(Made relevant as if by generalisation)*؛ في النمط الرابع *(Fourth type)*، تتفاعل واحدتهما مع الأخرى لإنتاج شيء مختلف عن كلتيهما، وهنا التفاعل هو انفجار *(Reaction is explosion)*[2].

ففي ختام النموذج نجد الاسم «سوريا» مشتقّاً بناءً على معجم السياق، من المسألة-المفتاح وهي شقّان: واحدٌ صريح يتّضح بلفظ «آيلة» وهو الشقّ المتعلّق بالعلاقة السوريّة-العراقيّة، وآخَرُ ضمنيٌّ غيرُ ملفوظ، قوامُهُ شقّ العلاقة الفلسطينية-الإسرائيليّة، وهي بدون شكٍّ قضية الأسرى. لقد انفجرت لفظة «سوريا»، على طريقة أمثلة إمبسون[3]، في اللفظتين «أسرى+آيلة»- اللتين بعد تفجُّرهما أعادتا سماعُ تفاعلهما إلى لفظة «اسرائيلية» وهي الجانب الآخَر من تفجُّر الصراع مع سوريا- وأنتَ لا تزال تسمع صدى الانفجار في أصوات الحروف المناسبة لطاقة الانفجار!

---

(1) Empson, Ibid., p.105.

(2) Ibid., p.150.

(3) Cf. Ibid., p.129.

في ذلك التباسٌ لأنّ القارئ يخرج على الشأن السوريّ متّجهاً إلى الشأن الفلسطينيّ وهو الجانب الأكثر التباساً من الصراع.[

5.[سياق الجوّ: الكاتب والقارئ]

[إنّ جوّ النصّ يُعطي الكثير بشأن معناه؛ ولكنْ ذلك فقط متى كان ذا تعريف محدّد. وأمّا إذا كان بلا هويّة، التبسَ المعنى بطبيعة الحال. على سبيل المثال، يمكنك النظر إلى تعريف الجوّ في النموذج الآتي (من اللامبالاة)، وهو تعريفٌ جزئيّ لتعريف «منظّمة الوحدة الافريقيّة» التي توقّف عليها النصّ، ما يعني أنّ التعريف الأكبر سقط، وتالياً النصّ:

في القمة السابعة والثلاثين والأخيرة لمنظمة الوحدة الافريقية التي انعقدت في لوساكا في تموز/يوليو عام 2001 أنشىء اتحاد افريقي، في جو عام من اللامبالاة، مع أن الأصوات كانت قد ارتفعت عالياً مطالبةً به منذ بدايات عهد منظمة الوحدة الافريقية في العام 1963. وبذلك طويت الصفحة على قرن من التوجه الوحدوي الافريقي. فهل أن الاتحاد الجديد الذي عقد قمته في دوربان (في جنوب افريقيا) ما بين 8 و10 تموز/يوليو هو الرد الذي أراده القائمون به على نظام العولمة؟ وهل سيكون نقطة استقطاب لأشكال جديدة من حكم ما فوق وطني في وقت ينتقد معظم المراقبين عملية التهميش المتزايدة للقارة السوداء؟[1]

---

(1) موايلا تسهيامبي (Mwayila Tshiyemb): من الخلاص المنتظر إلى ضفاف العولمة، العالم الدبلوماسيّ، 7/ 2002.

من هنا، حين تحدّث إمبسون حول الاعتراض على أنّ ما يهمّ في النموذج هو الجو[1]، فذلك يعني أنّ بناء الحكم على المعنى من خلال الجوّ قد يدخلنا في التباسٍ متى كان من الأفضل الاستناد إلى غيره.

وبعيداً من الجوّ هناك استنتاج بحسب إمبسون أنّ الالتباس من النمط الثالث [...] يظهر متى ما قيل هو صالحٌ في، يحيل إلى، مواضيع علاجيّة مختلفة عديدة *(Several different topics)*، عوالمَ عديدة من الخطاب، صيغَ مختلفة من الحُكم أو الشعور[2].

فالموضوع التعريفيّ المرجعيّ الواحد يمكن مقاربَتهُ بالمعالجة الجغرافيّة (في لوساكا+في جنوب افريقيا)، والتاريخيّة (في القمّة السابعة والثلاثين+تمّوز عام +2001العام +1963ما بين 8 و10 تمّوز)، والحضاريّة (العولمة)، والاثنيّة (القارّة السوداء)، وذلك كلّه في عددٍ بسيط من السطور، وضمنَ بعضٍ من الأسئلة غير المحسومِ أمرُها.[

]في مجالٍ آخر، قد لا يكون الموضوع العلاجيّ مصرّحاً عنه، من خلال مؤشّراتٍ كلٌّ منها في عبارة، بل قد تكون مضغوطة في رمزٍ واحد، تنفلش منه أُطرٌ متنوّعة:

ففي العام 2001 كانت تمثل بالنسبة إلى الولايات المتحدة 31 في المئة من الناتج العالمي الخام مقابل 26 في المئة بالنسبة إلى

---

(1) Cf. Empson, Ibid., p.8.

(2) Ibid., p.111.

أوروبا و12 في المئة بالنسبة إلى اليابان. إنها المناطق الثلاث في العالم المهددة بشبح الانكماش في ظروف من تقلص الإنتاج والتجارة[1].

وعلى قول إمبسون، فالرموز *(Symbols)*، تالياً، مطبَّقة على وضعيّات مختلفة، ومن وجهة النظر هذه، تجعل النموذج ينتمي إلى الالتباس ذي النمط الثالث[2].

فعبارة «شبح الانكماش» لا يمكن فهمُها بسوى فهم أبعاد رمز الشبح، وهو أصلاً رمزٌ لأنّه اجتماعيٌ معمَّم على اللاوعي الجماعيّ، حتّى بغضّ النظر عن السياق، ولذلك يُكشف عن اختلافات دلالات هذا الأساس النموذجيّ *(Archétype)*، ومن ثمّ يتمّ ربطهُ بالسياق: فلكَم قرأ يونغ وسمعَ عدداً لا يستهان به من حكايات الأشباح [...] على سبيل المثال كتلك حيث ظواهرُ تتجلّى في غرفة حيث كانت جريمةٌ قد ارتكبت. وفي إحدى الحالات [...] كانت آثار الدم ما فتئت مرئيّة، منتشرةً تحت بساط، وبالطبع فكلبٌ ما سيكون قد اشتمّ الدم، لا بل عينَ جهةَ رائحة الدم الإنسانيّ. هنا معالجةٌ إحدى الحواسّ الخمس: الشم[3]. في السياق، إنّ شبح الانكماش الاقتصاديّ هو هاجس كلّ فرد وكلّ دولة إذاً، كأنّه يسكن مستقبل الإنسان وأمكنةَ وجوده، وحتّى إذا

---

(1) فريدريك كليرمون (Frederic Clairmont): الاستدانة عقيدة القوة العظمى في العالم، العالم الدبلوماسيّ، 4/ 2003.

(2) Cf. Empson, Ibid., p.120-121.

(3) Cf. C. G. Jung: L'Ame et le Soi (Renaissance et individuation), Trad. Maillard & Bourneuf, Paris, éd. Albin Michel, 1990, p240-241.

فكّر فيه الإنسان للحظة، فقد يشعر بقلق غير موصوف. إنّ الانكماش هو من أسباب الجرائم، إذ يتحوّل النظام الإنسانيّ المتوازن إلى غاية يأكلُ فيها القويُّ الضعيفَ لغريزة الجوع في نفسه. إنّه سببُ الحروب المخفيّ المتلطّي خلفَ مكافحة الإرهاب أو مساعدة الدول، والغاية المخفيّة تكون في الاستيلاء الحيوانيّ على مصدرٍ من مصادر الطاقة.

من الحواسّ أيضاً معالجة النظر، حيث يزعم يونغ أنّ الرؤية ما كانت لتدوم أكثر من ثانية واحدة أو ثانيتين اثنتين [...] وأنّ أحداً ممّن شاهد، وبعد أن هزئ كثيراً من مسألة جزعه من الأشباح، ما كانت لديه هو نفسُه الشجاعة لأن ينام في الغرفة المسكونة، بل فضّلَ [...] النوم في حديقة تحت المطر[1]. في السياق، إنّ الإنسان المتعرّض لشبح الانكماش الاقتصاديّ سيجد نفسه مُلقىً في العراء، حتّى بدون أن يكون له الخيارُ أن يختارَ النومَ في مكانٍ أكثر أمناً فيما لو كان أكثر شجاعةً. قد يذكر إنسانٌ أنّه يستطيع العيش في حال الانكماش الاقتصاديّ- متى لم يكن الانكماشُ قد أتت ساعتهُ بعد- غير أنّه في داخل الحالة واقعياً تَسقطُ مناعةُ تحمّله. لا بل قد يصير طعماً للكلاب وهو مرميّ في أحد الشوارع... وكم من إنسانٍ قتل أفراد عائلته وفرّ إلى اللامكان، فقط ليتنصّل من هاجس بيته الذي ما عاد يستطيع أن يوفّر له حاجيّاته، وبذلك تكون له شجاعةُ القتل، ولا تكون له شجاعةُ البقاء في بيته الذي تسكنه هواجسُ القلق إزاءه.

---

(1) Ibid., p.242.

والموضوع الثالث الأوسع هو معالجة البارإسيكولوجيا، وهي، كما حدّدها يونغ في سياق حديثه عن أنّنا لا نتوقّف عن الكلام على حكايات الأشباح، علمٌ قديمٌ قديمٌ وجدّيٌّ ما كان لجمهورٍ واسع أن ينكر وجوده...[1] في السياق إنّ الانكماش الاقتصاديّ، مع أنّه نقديٌّ أي ملموس، إلاّ أنّه تتحكّم به سيطرةُ الأحداث المعنوية والسياسيّة، أي انّها أحداثٌ ماورائيةٌ أو ذاتُ غرابة بالنسبة إلى الفرد الواحد.

الموضوع المعالج الملموس على الأرض، بعكس البارإسيكولوجيا، كان الشيطانيّة وأفعال السحر[2]. في السياق، إنّ الانكماش الاقتصاديّ هو لعنةٌ تحلّ على جماعةٍ، وقد تنقلبُ حالةٌ من الرخاء إلى حالة من العوز في لحظة. وكم رأينا مُفلسين سياسيّين كانوا في المراتب الأولى من أغنياء العالم!

وإنّ المعالجة النفسيّة هي الجزء، فهذا الأخير الذي تخشاه الأنا خشيةَ ما يغطّيها أو يخنقها، ويولّده هذا الشبحُ المتربّص، هو كبير جداً، حتّى إنّه علينا ألاّ نُلمح إلى حضوره، تحت مُطلَق أيّ عذر. وفي هذا المقام يحدّثنا يونغ عن جمجمة في المقصف[3]. في السياق إنّ لفظة «الانكماش» بذاتها، تدلّ على الاختناق، وعلى شحٍّ في الطعام

---

(1) Ibid., p.245.

(2) Cf. Ibid..

(3) Cf. C. G. Jung: L'Homme à la decouverte de son âme (Structure et fonctionnement de l'inconscient), préface Roland Cahen, Paris, éd. Albin Michel,1987, p.192.

والعزائم الاجتماعية. فالجماعة ستتفكّك إلى أفراد، حيث إنّ الفرد لا يعود باستطاعته إنشاءُ علاقةٍ بزميله الفرد، إذ سوف يوفّر علاقةَ فرد–فرد في علاقة فرد–ذات الفرد. المجتمع والفرد ينسلخ عنهما غطاءُ الحالة الماضية، فيبدو الجميع متشابهين، مَن كان غنياً ومن كان فقيراً. ومع هذا الانكماش/ الانكشاف، ثمّة ما يغطّي، بمعنى أنّه يحجب الرؤية الاقتصادية الصائبة، ويحجب الفردَ نفسَه. إنّه ما عاد يحتمل الظهور إلى العلن.

المعالجة الأشمل بلا شكّ هي الاتّجاهُ الدينيّ وعلاقةُ الله بتبديد هذه الأشباح[1]. في السياق، إنّ الإيمان هو ما يقوّي الفرد على تحمّل مرحلة الانكماش الصعبة، وانتظار الفرج. ومَن «لا يعبد ربّين: الله والمال» بالأساس، هو الذي سيكون مرشّحاً أكثر لتحمّل المحنة، إذ وكأنّ ما من شيء قد تبدّل في حياته (لم يعبد المال≈الانكماش)، بل بقيَ الثابتُ عنده هو الله.

ومع ذلك، نرى في قنواتنا الفضائية كـ«ديسكُوفري»، القيمةَ العلميةَ لأصول دراسة الأشباح. وهذا هو منذ الأساس في السياق رابطُ الصورة «شبح–انكماش»، إذ إنّ هذا المجهول ما هو إلّا الانكماش الاقتصاديّ، وهو علمٌ في حدّ ذاته في علم الاقتصاد.

أهذه جميعاً هي المعالجات المقصودة؟ أثَمّ غيرُها؟ هل بعضٌ منها هو المقصود؟ هل هي أصلاً صحيحة لتُطرَح كتأويل؟ هذه كلّها

---

(1) Ibid., p.244.

التباسات. والالتباس-المغالطة الأكبر هو التساؤل الذي ينفي وجودَ الأصل نافياً معه وجودَ عوالِم معالجاته المختلفة: لكن هل الشبح موجود فعلاً، أو أنّ ثمّة خللاً دماغياً حيوياً هو الذي يُنتجه؟ لو عُدتَ إلى رانسوم *(Ransom)*: الماركسيّون، خصوصاً، يتوقون إلى تقليص النصّ إلى ثوابته الاجتماعية-الاقتصادية من خلال دراسة أثر سياقه الاجتماعي"-التاريخي" فيه[1]، لأدركتَ أنّ هذا الجزء من النصّ هو بكامله مقلّص، إذ انّ التاريخ محدّد بالزمان والمكان (العام 2001 + الولايات المتحدة+أوروبا+اليابان)، ولأنّ موضوع الكلام التأريخي" مُستمَدٌ من ثوابتَ معجمية لحقل الاقتصاد (الانكماش +الإنتاج+التجار). وكما موضوع الكلام هو عن الانكماش، وقد تَبَتّ بلفظ «تقلّص»، فإنّ النموذج، عن حقّ، قد تقلّص إلى موضوع ماركسي" بامتياز، وألْهانا الكاتبُ عن بنية النصّ. فهل كان هو نفسُه في حالةٍ ما من التقلّص؟]

[يعمّم ريتشاردز: التنظيم المرتجف الخاطف في أذهاننا هو معرّض لتأثيرات غير مناسبة لا تُحصى: الصحّة، الاضطراب، الجوع، وغيرُها من التوتّرات الغريزية، نوعيّة الهواء الذي نتنفّس، الرطوبة، الضوء، جميعاً تؤثّر فينا (أنا مثلاً الآن، متأثّر في نقدي بالأوضاع الاقتصادية للبلد+أهوى مثل هذا الموضوع حديث الساعة وحديث

---

(1) Cf. John Crowe Ransom: Criticism as pure speculation (The intent of the critic), ed. Donald A. Stauffer, Princeton, Princeton UP, 1941, p.455-456; Critical Theory Since Plato, New York, Ed. Hazard Adams-Harcourt, Brace, Jovanovich, 1971, p.874-883.

الحالة النفسية كأستاذ جامعيّ في لبنان). لا أحدَ حسّاساً تجاه الإيقاع، قد يشكّ في أنّ زمجرة النقل المعاصر [...] في حلولها محلّ إيقاع قوائم الفرس، هي قادرة على التدخّل بطرائق عديدة في قراءتنا للسطر. فلا نُفاجأنّ لو وجدنا أنفسنا غالباً غير قادرين على الاستجابة بأيّة طريقة مناسبة ومتماسكة[1]. وهذا ما نراه في تعريف الطاعون كتمهيد، وهو تعريفٌ سيكولوجيٌ (فرد) أو سوسيولوجيّ (شعب) في مايلي، وليس تعريفاً طبيّاً فيزيولوجياً، ومرتبطٌ بتأثير غير صالح في الذهن (انحراف الفكر)، ثمّ بمشابَهة الطاعون بوباء الحمّى القلاعية (على غرار)- ما يعني أنّ تعريف هذا الوباء هو ذو عناصر الطاعون نفسها حتّى بدون الحاجة إلى القراءة- وهذا ما يتأكّد تأثيرُه بالقراءة المستكمَلة (الكثير من انحراف الفكر):

كتب أنطونان أرتو: «إنّ الطاعون انكشاف لقعر من القساوة الكامنة تتمركز بموجبه جميع احتمالات انحراف الفكر على فرد أو شعب»(1). وعلى غرار الطاعون فإنّ وباء الحمى القلاعية الذي يجتاح في هذه الأيام الريف البريطاني يكشف عن «قعر من القساوة الكامنة» والكثير من «انحراف الفكر». ذلك أنّ الوباء كما يؤكد المؤرخون ليس فقط سبباً بل نتيجة للحظة تاريخية محددة.

فليس بالصدفة إذن أن تتكاثر في بريطانيا، مختبر الليبيرالية المفرطة منذ 20 عاماً، محارق الموت القروسطية حيث تحرق -

---

(1) Richards, Ibid., p.317-318.

دون جدوى(2) – مئات آلاف الحيوانات وترتفع صيحات القنوط والخوف. وما يزيد من أسى البريطانيين أنّ هذا الواقع الأقرب إلى الكابوس جاء يتوج شتاء شهدوا خلاله كل انواع المصائب من «جنون البقر» إلى الفيضانات والمناطق المعزولة تحت الثلوج من دون كهرباء، إلى كوارث اصطدام القطارات الخ...[1]

فعلاً إنّ هذه الحالة المأسويّة المخربَطة حتّى على المستوى الماديّ، هي تحديداً حالةُ ريتشاردز الشخصية: الأكثر لفتاً للنظر، ربّما هي آثارُ المرض. عندما كنت أعاني انفلوانزا، فروايةٌ بلهاء ملأت عينيّ بالدموع مراراً وتكراراً حتّى لَكنتُ ما بوسعي أن أرى الصفحات؛ الانفلوانزا معروفة بأنّها عدم تنظيم للجهاز العصبيّ المستقلّ...[2]

وهنا، ليس القارئ هو الذي يعاني التباساً في القراءة، بل إنّ محتوى النصّ بعينه يحاكي هذا الالتباس؛ فكيف إذا كان القارئ نفسُه يعاني انحرافاً عصبياً؟ ∫

6. ∫الكلمة–المعنى | المعاني: أحجية الحيرة *(Puzzle)*[3]∫

∫تصوّروا أنّ ريتشاردز الذي يتكلّم على الالتباس في النصّ، يعبرّ في مكانٍ ما أنّه جميعه نقدياً مبنيٌّ على كلمة يستسيغها هذا بحقّ

---

(1) انياسيو رامونه (Ignacio Ramonet): أزمة مطلقة في انكلترا، العالم الدبلوماسيّ، 4/ 2001.

(2) Richards, Ibid., p.257.

(3) Cf. Empson, Ibid., p.24...; Richards, Ibid., p.16...

التباسٌ نقديّ، إذ يتغاضى عن التفسير، ويتيه في سكرة الكلمة! : قد يكون كافياً تفسيرٌ أكثر بساطةً. الكلمة [«كذا»] في ذاتها قد تكون كافية إلى حدٍّ كبير[1].

بالطبع في النصّ الآتي:

يبدو أن العرب مرغمون على مجرد الاختيار بين أشكال مختلفة للاستبداد.

يخلص البعض في الغرب إلى القول انطلاقاً من واقع الحال هذه، إلى أن الإسلام في حد ذاته يحمل بذور العداء للديموقراطية مستشهدين على ذلك بآيات من القرآن[2].

لفظ «القرآن» هو الذي يخطف الضوء. ويغضّ النظر عن حضوره في سياق، سواء كان مساعداً سلبيّاً أو مساعداً إيجابيّاً، فالمهمّ ذِكرُه! مع أنّ السياق يدلّ على أنّه ركيزةُ الاستشهاد باللاديمقراطية. إلى ذلك، فسيهتمّ القارئُ المُسلم بالنقص النعتيّ الذي لحقَ بالقرآن/ الكريم. اهتمامات القارئ حين يسمع هذا اللفظ هي اهتماماتٌ دينيّة، في حين أنّ اهتمام الكاتب سياسيّ.

فعلى الرغم من اهتمام القارئ بإعطاء المعنى الصحيح لكلمة «قرآن»، إلّا أنّ ذلك لا جدوى له أصلاً، بما أنّ النصّ يتّخذ اتّجاهاً مغايراً، وكان تعريفُ القارئ التباساً لتعريف الكاتب.

---

(1) Richards, Ibid., p.126.

(2) سليم نسيب (Selim Nassib): سعياً للتخلّص من العالم العربيّ، العالم الدبلوماسيّ، 3/ 2003.

[عموماً في غير الحالات الانفعالية، فالصعوبةُ الأصيلة لكلّ قراءة عند ريتشاردز، مشكلةُ استخراج المعنى *(Problem of making out the meaning)*، هي نقطة-البداية الجليّة[1].

أخيراً، التفوق الدائم، بمعنى آخر اللجوء إلى العلم والتكنولوجيا والموارد الاقتصادية تأميناً للغلبة الدائمة للقوات المسلحة الأميركية.

بالطبع ليست هذه الأفكار في مجملها جديدة. فهناك إدارات أخرى سعت إلى تفضيل هذه الركيزة أو تلك. لكن لم يصر قبل اليوم إلى بلورة هذه الركائز بهذا القدر من التماسك والحماسة، إلى درجة يمكن معها القول إننا نشهد انقلاباً في التفكير الاستراتيجي في الولايات المتحدة الاميركية[2].

فراقب عبارة «بمعنى آخر»، وهي تعرّف بمعنى «التفوّق الدائم». ففي المعجم، لا يمكن استيفاءُ المعنى السياقيّ هنا، وهو المعنى المناسب للظرف. لقد أوهمَنا الكاتب بأنّ معنى التفوّق هو اللجوء إلى العلم والتكنولوجيا والاقتصاد، وغيّبَ المرادف من المعجم، وكذلك جعل القارئَ يطمئنّ بأنّه أمام تعريف، فلا يعود يبحث لا في معجم، ولا في فلسفة، خصوصاً أنّ الإنسان المتفوّق، مثلاً، عند نيتشه، بعيدٌ جداً عن هذه المادية. لقد جعلَ الكاتبُ القارئَ يقتنع بهذا التعريف، وكأنّه خدّرَه، فحملَ المعنى بلا حولٍ ولا قوّة. كما عرف الكاتب كيف

(1) Richards, Ibid., p.180.

(2) مايكل ت. كلار (Michael T. Klare): مرتكزات الاستراتيجيا الأميركيّة الثلاثة، العالم الدبلوماسيّ، 7/ 2001.

يتلاعب بالتعريف ليَنجح معه التخدير: فعبارة التعريف المُتبَعة بنعت «الدائم» لم ينسَ أن يكرّرها في الجانب-الأساس (الغلبة الدائمة)، فكان ذلك لمصلحة نبرة القوّة القوّة.]

[فعند ريتشاردز أيضاً أنّ الكاتب الجيّد لكي يعبّر عن شعور، ويصوّب نبرةً ويبْدي غاياته الأخرى، قد يلعب شتّى وسائل الحيَل بمعناه. وقد يُذيب تماسكه معاً[1]. باستطاعة الكاتب إذاً أن يتلاعب بالكلمة التي هي أصلاً معجمياً، ذات حقل دلاليّ اختلافيّ. فبإضافة دلالات السياق إلى الحقل الدلاليّ المعجميّ، نصبح أمام تصوير ريتشاردز للكلمة: ما نعرفه فحسبُ عن الكلمات هو أنّها شبيهة الحرباء *(Chameleon-like)* في شعورها، وهي محكومة في بما يحيط بها في طريقة غير منتظمة. بهذه النسبيّة النفسيّة، للكلمات أن تُقارَن بالألوان... [2]

جاك شيراك ليس الرئيس الوحيد المطارد في العالم، يلاحقه القضاة وتنكده وسائل الإعلام. لم يعد ذلك بالأمر الغريب. ففي الانحاء كافة وفي أشكال مختلفة يتعرض الرؤساء الحاكمون والمنتخبون ديموقراطياً للمضايقة والاتهام والملاحقة من دون اعتبار لوظيفتهم التي كان ينظر إليها على أنها شبه مقدسة وتجعل منهم اشخاصاً لا يمسون. انتهى ذلك كله. لا يخطئ تماماً من يتحدث عن

---

(1) Richards, Ibid., p.190-191.

(2) Ibid., p.213-214.

«النهاية الأخيرة للعهد القديم» كوننا نشهد بأم العين نهاية ما يمكن اعتباره فخامة الوظيفة الرئاسية التي يقطع رأسها بالمعنى الحرفي[1].

فمع أنّ الكاتب شدّد على عبارة «يقطع رأسها» بعبارة «بالمعنى الحرفيّ»، إلّا أنّه لم يذكر ما هو المعنى الحرفيّ لهذا الفعل، خصوصاً أنّ المعنى الحرفيّ يعني تغييب المعنى السياقيّ، وتسليماً بذلك يتبقّى لنا المعنى المعجميّ، وهو ملتبس، لا بل حتّى تناقضيّ: فحرفيّة الفعل «يقطع» تعني «قَصَّ»، أو «عبرَ» كما «قطعَ الطريق»، أو «أغلقَ» كما «قطعَ الطريق» في معنىً مختلف. فمن قطع الطريق لا يعني أنّه شجّها إلى نصفين. فهل قطعُ الرأس يعني شجَّه، أو تَخطيه، أو ترهيبه؟ أو هذه كلّها أو بعضَها؟... بفعل أنّه عند إمبسون قد يكون للكلمة عددٌ من المعاني المختلفة المرتبط واحدُها بالآخَر، أو يحتاجُ واحدُها الآخر لاكتمال المعنى [...] فالالتباس بذاته بإمكانه أن يعني لاقراراً في ما تعني *(Indecision)*، نيةً لتعني عدداً من الأشياء، احتمالَ أن يكون واحدٌ من المعاني أو الآخر أو كلاهما هو المعنيّ...[2]

غير أنّ رانسوم لا يهتمّ للكلمة الواحدة، فيقترح تقسيم النصّ إلى قسمين أحدُهما اللُّبُّ الوسطيّ المنطقيّ *(Central logic core)* أو القابل لإعادة الصياغة *(Paraphrasable)*. ويعني بذلك طبيعياً معنى النصّ، أي ما هو النصّ أساساً بصدده [...] هذا اللبّ القابل

---

(1) انياسيو رامونه (Ignacio Ramonet): رؤساء مطاردون، العالم الدبلوماسيّ، 8/ 2001.

(2) Empson, Ibid., p.5-6.

لإعادة الصياغة قد يتضمّن وضعاً أخلاقيّاً، شغفاً، جبلَ أفكار، زهرةً، شيئاً..[1]؛ اهتمامه بالمنطق العامّ للمعنى يتيح لنا إعادةَ صياغته كالآتي، حيث ركيزة التحوّل «بات» هي المفصل: بما أنّ الرؤساء باتوا معرَّضين للمساس بهم، فبات من الطبيعيّ أنّ كثيراً منهم كجاك شيراك باتوا ملاحقين بشتّى أنواع الملاحقة. هذه الجملة الاختصاريّة هي ما يُبعد القراءة عن اللغط، لأنّ المنطق هو أساسُها.

7. الصدق

ليست القضية فقط أن يبثّ الكاتبُ التعريفَ، بل ما إذا كان صادقاً أو لا، إذ إنّ التعريف معرَّض لأن ينتفي عملاً بذلك.

إنّ التعريب الذي وصلَتنا نصوصه بهذه الطريقة جعلَنا بالنتيجة نتحدّث كريتشاردز: من الصعوبة بمكان أن نشارك الكاتب في موقفه، لأنّه على الرغم من أنّه صادق، إلّا أنّ تقنيّته سيّئة *(His technique is bad)*[2]:

انضموا إلى الفاتحين! إنها بعض الأصوات التي همّشتها الموجة الصادقة في أوساط الرأي العام الأوروبي المناهضة للمغامرة العراقية، تلك الأصوات التي باتت تحض «معسكر السلام» على الاعتراف بضلاله على أساس أنه انهزم بعد دخول القوات الأميركية بغداد. ...

---

(1) Ransom, Ibid., p.459.

(2) Richards, Ibid., p.45.

وقد لخص البروفسور العراقي شاكر عزيز شعوراً عاماً حين قال: «لقد رأيت بأم عيني كيف أنّ القوات الأميركية كانت تحض العراقيين على نهب جامعة التكنولوجيا وإحراقها. ... والواقع أنه كان يكفي بعض الدبابات لحماية هذا التراث للبشرية، عدد منها لا يكاد يصل إلى العدد الذي استخدم لإغلاق الساحة حيث نظمت واشنطن عملية إسقاط تمثال صدام حسين...»[1]

فالجملة طويلة ومعقّدة لجهة العناصر الاسمية المتشابكة (بعض الأصوات+الموجة الصادقة+أوساط الرأي العامّ الأوروبيّ+المغامرة العراقيّة)، وبُعد العنصر الأساس عن إعادة الكلام عليه بالتكرار المؤجّل، ما يلتبس على القارئ فلا يتذكّر عن أيٍّ من الأصوات ما زال يتكلّم (إنّها بعض الأصوات... تلك الأصوات)، وتكرار حرف الجرّ نفسه «على» بشكلٍ معجّل ولكنْ بسمتَين مختلفتين (تحضّ... على الاعتراف بضلاله على أساس)، مع توسُّط حرف جرّ «الباء» واستكمال الجملة بظرف (بعد دخول...)، ما كثَّر المتعلّقاتِ، أي، بطبيعة الحال، التباسَ معاينةِ أيٍّ من الأفعال تعود إليه شبهُ الجملة هذه أو تلك. وهكذا، إذا أعدتَ قراءة الجملة «إنّها بعض الأصوات... دخول القوّات الأميركيّة بغداد»، لَرأيتَ اللغط الواقع على موقف الكاتب

---

(1) آلان غريش (Alain Gresh): «حرب التحرير»: جرائم وأكاذيب، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2003؛ العنوان التباسيّ خصوصاً ما بين مزدوجين، إذ هو ينبئ بمرحلة لبنانيّة من الصراع بين العماد ميشال عون والجيش السوريّ.

الذي بدأ بما قبلَ هذه الجملة عن طريق الإيعاز الأمْرِيّ (انضمّوا إلى الفاتحين)، وبخاصيّة أنّ ثمّة نبرةً إشكاليةً تَسُودُه.

من جهة أخرى، إذا ربطْنا المحتوى حول الصدق (الموجة الصادقة) بصدق التعبير (بأمّ عيني... بأمّ العين=نقلٌ شخصيّ) المنقول عن رجلٍ ثقة يؤخَذ صدقُه على محمل الجدّ (بروفسور+اسم علم)، احتملْنا أن نعتبر أنّ هذا التركيب المعقَّد والطويل سببُهُ الانفعالُ الصادق للكاتب الذي بدا همُّهُ التكلُّم بصدق ونقْل ما هو صادقٌ أي مؤكَّد فقط. فالكلام المنقول بصدق، مهّد له الكاتبُ بأنّه شعور، مع أنّه في الواقع مشاهَدة، وهذا ما زاد من قوّة الصدق واجتذاب القارئ إلى موقفٍ ذاب في الشعور، فأثّرَ فيه طبعاً. وعليه، يمكن تطبيق مقولة ريتشاردز: «هذا النموذج هو نموذج جيّد لأنّه تعبيرٌ صادق عن مشاعر الكاتب [...] وأكانَ إيمانه صائباً أم خاطئاً، فإنّه يُحدث فينا أمراً عظيماً»[1].

لقد استطاع الكاتب أن يَضمنَ فوزَ المتكلّم على تعريف القوّات الأميركيّة في علاقتها بالعراق، بالصدق: فكلامه هو مرتكز على الصدق، والشعورُ الذي جعلَه الكاتبُ «عامّاً» بات صدقاً عامّاً. الشعور العامّ هو شعورٌ متكامل أي واضحُ المعالم، وكيفما كان محتوى كلامه، فسيكون تبعاً لذلك صادقاً غيرَ متكلّف («بأمّ عيني» عبارة تكاد تكون عاميّة، وهي عبارة شائعة شعبيّة). وفعاليّة هذه العاميّة وهذه التقنيّة غير المُحكَمة، صبّت في خانة الانجراف نحو التصديق. أوَلَم يقل ريتشاردز

(1) Richards, Ibid., p.69.

إنّ هذا يستتبع أنّ الناس ذوي الأفكار والمشاعر الواضحة المحدّدة، وذوي الدرجة العالية من الفعالية العملية *(Practical efficiency)*، قد يكونون لاصادقين بهذا المعنى؟ [...] عليه، كونُ الواحِد صادقاً هو أن يتصرّف، يشعر، ويفكّر بحسب طبيعته الحقيقية *(True nature)*؛ وكونه لاصادقاً هو أن يتصرّف، يشعر أو يفكّر بطريقة معاكسة[1].]

[في النصّ العلميّ، يتّخذ الصدقُ معالمَه من بساطِة بنيته، لأنّ صدقَه جزءٌ منه هو فهمُه. فالبساطة *(Simplicity)*، على ما يظنّ ريتشاردز، لها ما لها مع الصدق، بما معناه أنّ الأصليّ هو مضادّ للمتكلّف *(Genuine is opposed to sophisticated)*. الشعور الصادق هو واحدٌ قد تُرِكَ لحالته الطبيعية، ولم يُعمَل عليه أو تمّ تعقيدُه بالتفكير *(Complicated by reflection)*[2].

في فقرة «تعريف الحول» من النصّ الآتي:

تعريفه ببساطة هو عدم توازن حركة العينين حيث يستخدم الشخص المريض العين السليمة للتركيز على الشيء المراد رؤيته بينما تنحرف العين المصابة بالحول إلى الداخل أو الخارج أو لأعلى أو لأسفل.

وتبلغ نسبة أصابة الأطفال بالحول حوالي أربعة بالمائة. وقد يظهر الحول بصورة متقطعة في مراحله الأولى. فيكون واضحاً

---

(1) Ibid., p.288-289.

(2) Ibid., p.282.

أحياناً ويختفي أحياناً أخرى ولكن إذا لم تعالج هذه الحالة في الوقت المناسب فعادة ما تتحول إلى حول دائم[1].

نتلمّس البساطة من خلال لفظة العبارة التعريفيّة بعينها (تعريفه ببساطة)، ومن خلال الألفاظ المستخدَمة؛ فألفاظ الاتّجاهات (الداخل، الخارج، أعلى، أسفل)، تشير إلى وضوحِ نظرة العين، ووضوحِ النظرة إليها. غير أنّ عدم تأكيد المعارف جعلَ هذه البساطة التي كان عليها أن تخدم الصدق، خادمةً لالتباس الوضوح: فهذه الاتّجاهات فُرِّقَ بينها بالتخيير (أو)، ما جعلَ الاحتمالات واردةً في كلِّ حال، أي فراغاً في المعنى. عدم الدقّة هذا، وهو قد استُكمل بظروفٍ تقريبيّة (أحياناً×2، عادةً، حوالي)، والتقليل قبل الفعل المضارع (قد يظهر)، ذلك ما فتحَ معنى النصّ على جميع الاحتمالات- وهو نصٌّ ذو موقف طبيّ، يراد له أن يكون ثابتاً- وتالياً أمكننا إسقاطُه كليّاً. فعلى الرغم من كلماتٍ تشير إلى التأكيد (واضح+دائم)، إلّا أنّ هاتين اللفظتين جاءتا في سياقٍ احتماليّ (يكون واضحاً أحياناً+عادةً ما تتحوّل إلى حول دائم). إذاً حتّى الثباتُ احتماليّ!

من هنا، كان للقارئ أنّ يجعل نسبة 4 % (حوالي)، مثلاً 3 % أو 5 % ، كما كان بإمكانه أن يتّخذ أحدَ رأيين (وضوح الحول، أو اختفاء الحول؛ الداخل أو الخارج أو الأعلى أو الأسفل؛ الاستثناء بعدم التحوّل إلى حول دائم)، ما يشير إلى أنّ هذا النصّ العلميّ بات

(1) ناهل فؤاد القره: ما يجب أن تعرفه عن الحول، العالم الدبلوماسيّ.

جملةٌ من خيارات، وتالياً يُغرق القارئ في التباسات متى اختار الهامشَ الرقميّ الخطأ أو الاحتمالَ الخطأ. بكلمة، هذا النصّ موجود، غير أنّ القارئ يمكن ألّا يعتبره موجوداً على غرار معارف الكاتب التي حين تكون تخييريّة، فذلك يعني أنّ ما لا يُختار لا يُعتبر موجوداً. فبمعزل عن هذه الترابطات المنطقيّة، الفكرةُ ما هي بمُصدَّقة ولا بغير مصدّقة، لا هي مشكوك فيها ولا هي عُرضة للتساؤل. هي حاضرة ليس إلّا[1].

من وجهة نظر ويمساتّ *(Wimsatt)*: كم كان مناسباً لو كانت كلماتُ مرور المدرسة القصديّة «صدق، وفاء، عفويّة، أصالة [...]» متوازية مع ألفاظ مثل «تناسُب، وحدة، وظيفة *(Relevance, Unity, Function)* [...]»، وبعض الألفاظ الدقيقة الأخرى للتقييم باختصار[2].

لا يهمّ الصدقُ أساساً ككلمة أو موضوع، بل كبنية. وهذا ما قمنا به منذ قليل في ربط الصدق بالتركيب البسيط الذي يعكسه. وبدلاً من أن نقول إنّ الكاتب صادق، نقول إنّ النصّ يعكس صدقَه في القارئ، وهو وحدةٌ وظيفتُها متناسبة مع الصدق. المهمّ صدقُ الإرسال، وليس بالضرورة صدق المحتوى.

(1) Richards, Ibid., p.275.

(2) W. K. Wimsatt & Monroe C. Beardsley: The Intentional fallacy, The Verbal Icon(Studies in the Meaning of Poetry),Lexington,University of Kentucky Press,1954,p.9

8. [زمن النصّ = زمن التأويل]

في قائمة الاضرار الجانبية الناتجة من البطالة تبدو الزعزعة المتعددة الاشكال لظروف العمل (العمل الموقت، العقود المحدودة في الزمن، ورش التدريب من الانواع كافة) كتحصيل حاصل معروف ومعترف به من زمن طويل[1].

[حسناً فعلَت كاتبةُ هذا النموذج حين فهمَت أنّ عُقَد البطالة هي هي منذ زمن طويل، فأغرقَت العبارة الأخيرة بنعوتٍ تُحاكي المألوف (تحصيل حاصل+معروف+معترف به). كان لهذا النموذج أن يَسقط لو أكثرَت الكاتبةُ الكلامَ على هذا الموضوع. من هنا، وحسْبُ، واعتماداً على رأي ريتشاردز بأحد النماذج - إنّ المبالغات المُسرفة في الموضوع هي على أيّ حال اصطلاحية جداً *(Very conventional)*، وإنّ قيمةَ هذا النموذج ونُبوغَه يتوقّفان بشكلٍ كبير على الزمن الذي كُتب خلالَه [...] الكاتب ما أن يكون قد كتب بشكلٍ جيّد جداً نموذجاً كُلّيّ الصدق بطريقةِ عصرٍ مختلف، إلّا أنّ الاحتمال عموماً هو بقوّة مُعارضٌ لذلك. هذا ليس أكثر من احتمال، على أيّ حال، على الرغم من أنّه يكفي أن تُعتبر معرفةُ تاريخ النموذج عَوناً نافعاً على الحُكم[2] - يمكن الحكم على النموذج بالجيّد، ما دام زمنُه المتقدّم على زمن بداية

(1) مارغرت مارواني (Margaret Maruani): الفقر وفرص العمل الصعبة، العالم الدبلوماسيّ، 6/ 2003.

(2) Richards, Ibid., p.77.

مشكلة البطالة جعلَ كلَّ ما له علاقة بذلك الزمن أمراً عابراً، وإنْ بقيت أهميّتُهُ لم تتغيّر.[

]انظر الآن إلى النموذج هذا، حيث الأسف من ممارسات الزمن الماضي الذي أرفقَه الكاتبُ بلفتةٍ إلى الهوّة الزمنيّة الفائتة (زمن الانتداب+زمن استعماريّ- عُدْنا+مضى):

«إنه يوم عظيم للعراق»، قال الجنرال الأميركي جاي غارنر فور نزوله في بغداد المدمرة والمنهوبة كأن ظهوره المهيب سيعني النهاية العجائبية لمشكلات بلاد ما بين النهرين التي لا تحصى. والأكثر إثارة للذهول ليس وقاحة الإعلان بقدر ما هو الطريقة المنقادة واللامبالية التي غطت بها وسائل الإعلام الكبرى وصول من يجب تسميته «مندوب الولايات المتحدة السامي». كأن لا وجود لأي شريعة دولية، كأننا عدنا إلى زمن الانتداب [1] . كأنه في النهاية شأن طبيعي أن تقوم واشنطن في القرن الحادي والعشرين بتعيين ضابط (متقاعد) من القوات المسلحة الأميركية حاكماً على دولة ذات سيادة.

هذا القرار الذي اتخذ حتى من دون استشارة الأعضاء الأشباح في «التحالف» لتسمية «حاكم مدني» يدير بلداً مغلوباً، يذكّر للأسف بممارسات زمن استعماري مضى(1).

هذا المألوفُ المعرّفُ الغنيّ عن التعريف يجب إقصاؤه؛ ما يعني

---

(1) اتياسيو رامونه (Ignacio Ramonet): الامبرياليّة الجديدة، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2003.

أنّ عدم إقصائه هو أمر غير مألوف. لقد تنبّهَ الكاتب إلى هذا الأمر، فدعمَ الإسقاطَ بعدمِ عدمِ الإسقاط (كأنّه في النهاية شأن طبيعيّ في القرن الحادي والعشرين...)، في نبرة تهكّميّة تقلب المُقال إلى عكسه كان بطلّها الحرفُ المشبّة بالفعل «كأنّ» التشبيهيّ نحوياً والانتقاديّ سياقياً (كأنّ ظهوره...، كأن لا وجود...، كأنّنا عدنا...).

كلّ ما هو تهكّميّ على أنّه ينبغي إقصاؤه بما أنّه مُقصى زمانياً بالأساس، هو ما كان تاريخياً مهابةً وسلطاناً لا يمكن ساعتئذ لا إقصاؤه ولا الكلامُ عليه بهذه الطريقة! إنّ ما أدخلَه الكاتب في نصّه الإخباريّ لجهة الاستعمار، هو لمصلحة تعريف شذرات من معطياته، شذرات تاريخيّة، ولكنّها تقابُليّةٌ في آن، لأنّها موضوعة في زمنها المقلوب. لو كان ريتشاردز هو القارئ، لقال: هذا النموذج كان ليُرضي جمهور القراءة منذ بعض مئة من السنين، ولكنِ اليوم/ إلى -اليوم *(To-day)*، أنا لا أرى سبباً وجيهاً لكي يقرأ، إلّا لجهة فائدته التاريخيّة[1].

وإن لم يقرأ النصّ لأهميّة معلوماته التاريخيّة البحتة، فهو يقرأ لأهميّته التاريخيّة النقديّة.]

[في النصّ الآتي أتى التحذيرُ من طريقة الصحافة في كتابة التاريخ، وهو أتى ليخدم مقولة ريتشاردز: الموضوع المحكيّ عنه هو بعيد قليلاً عن المحتوى أو المسألة أو المادّة التي أثرناها للتوّ *(Content, Matter, Substance)* [...] الموضوع هنا هو المحتوى

(1) Richards, Ibid., p.36.

الذي ينظر إليه بتجرّد ومن بعيد *(From a distance)*[1]؛ حيث المُضمَر في عبارة «بعيد كلّ البعد عن الحقيقة» هو السبب=بسبب الزمن الآنيّ؛ فالكتابة الصحفيّة هي كتابةٌ لَحظويّة، ما يعني حُكماً أنّ الموضوع بعد طول الزمان يصير هو المحتوى عينه، لأنّ الموضوعيّة لا تعود متدخّلةً في محتوى الموضوع، بل تصير مجرّدَ وصفٍ بعد أن كانت نقداً.

يوم ينكب المؤرخون بعد عقود من الزمن على النزاع الاسرائيلي ـ الفلسطيني خلال حقبة التسعينات فسوف يتفقون بالتأكيد حول فكرة تقول ان قمة كامب ديفيد التي دامت أسبوعين (من 11 إلى 25 تموز/ يوليو 2000) والتي جمعت الرئيس الاميركي بيل كليتون ورئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات ورئيس الوزراء الاسرائيلي ايهود باراك مثلت المحطة الأولى في رحلة النزول إلى الجحيم التي يشهدها الشرق.الأوسط. واذ يفكون رموز محاضر هذه القمة والتي نقلتها وسائل الإعلام العالمية فإن هؤلاء المؤرخين سوف يحذرون طلابهم من أنّ التاريخ المكتوب من خلال الصحافة قد يكون بعيداً كل البعد عن الحقيقة.

ذلك أنه طوال أشهر انتشرت رواية مأذون لها لوقائع كامب ديفيد يمكن اختزالها بجملة واحدة: لقد رفض السيد ياسر عرفات «الاقتراحات السخية» التي تقدم بها ايهود باراك. فلم يقبل بدولة فلسطينية فوق 95 لا بل 97 في المئة من الضفة وغزة كلها مع القدس

---

(1) Ibid., p.58.

الشرقية عاصمة لها. وإن إصراره على المطالبة بحق العودة لملايين الفلسطينيين إلى داخل إسرائيل قد أدى إلى أحباط قيام سلام تاريخي بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

من أهم ميزات كتاب شارل اندرلان الأخير، «الحلم المكسور»[1]، أنه يقدم تكذيباً صارخاً لهذه الأطروحة. المؤلف مراسل محطة فرنسا 2 التلفزيونية في القدس منذ أكثر من 20 عاماً وقد صوّر يوماً بعد يوم ومع مسار مفاوضات السلام مختلف الشخصيات الرئيسية المشاركة مع التعهد بعدم استخدام شهاداتهم قبل العام 2001 [(1)].

في سياق تحليله الشعريّ يقول إمبسون: [للكاتب] أن يقدّره كلٌّ من أبناء جيله وأبناء [جيل لاحق]، وقد يشتبه واحدُنا بأنّ السبب عائد إلى أنّهم قادرون على قراءته بطرائق مختلفة[(2)].

يمكن تطبيق ذلك على مقالة غير أدبيّة، حيث تقديرُ الكاتب هو هنا في أنّ قراءته لا تحتمل التأويل، لأنّ القضيّة لم تعد مسألةً تستحقّ التأويل بعد انقضاء الزمن.

لكنّ مقدّمة النموذج عينه تدلّ على أنّ الكاتب طبّق عكسَ ما حذّر منه. فهو في هذه المقالة الصحفيّة، وإنْ شكلياً هربَ من آنيّة الحكم على قضيّة النزاع الفلسطينيّ-الإسرائيليّ، إلاّ أنّ مجرّد التلميح إليها

---

(1) آلان غريش (Alain Gresh): «الوجه الحقيقي» لأيهود باراك، العالم الدبلوماسيّ، 7/ 2002.

(2) Empson, Ibid., p.173.

في زمنٍ كتابةٍ متزامن لها، قد ولّد في القارئ تأويلاتٍ مختلفة، ليس حول الأسلوب كما في رمزيّة شاعر، بل في القضيّة نفسها التي تنقسمُ الآراءُ بشأنها، بغضّ النظر عن كتابة الكاتب بخصوصها. وما حاول أن يستبعده (بعد عقود من الزمن) ووضعَه في ذمّة المؤرّخين، هو في الواقع رأيُه هو (سوف يتّفقون بالتأكيد=أنا أرى ذلك بالتأكيد=ذاتيّة الحُكم في تعريف قمّة كامب-دايفيد). أفَليس بالتالي من الممكن أن يبدّلَ هو نفسُه رأيَه، فيكون بذلك قد ظلمَ جميعَ المؤرّخين الذين حكمَ على رأيهم جميعاً من قبْلِ أن ينبسوا ببنت شفة؟ فبشأن الثابت الذي لدينا لتمييز الجيّد من السيّئ، يمكننا فقط الأخذ بما يناسب حاجةَ الوقت الحاضر، والقول إنّه جيّد. حاجةُ رجلٍ ما ليست حاجةَ الآخَر، على ما يقوله ريتشاردز [...] ما نأخذ به نحكم عليه بناءً على حاجة الوقت الحاضر *(Need of the moment)* [...] والترتيبُ والأسبقيّة بشأن حاجاتنا يتبدّلان باستمرار إلى الأفضل أو الأسوأ[1]. إنّ الاتّفاق هو أحد التأويلات التي نصَّ عليها الكاتبُ، وأشعرَ بها القارئَ بأنّها ساريةُ المفعول لا محالة. قد يكون تأويلُه هو التأويل الأنسب، أو الأقلّ تدحرُجاً في المستقبل (سوف...)، إلّا أنّه بالتأكيد (وهنا نعارض عبارته «بالتأكيد») ليس التأويل -الاتّفاق الأوحد. هذا التأكيد، وإن كان أوحدَ، إلّا أنّه يثير اللغط عند القارئ الذي لا يوافق على وجهة نظر الكاتب، في لحظة القراءة. لا يهمّ ما إذا كان القارئُ إلى جانب الكاتب في رأيه

(1) Richards, Ibid., p.349.

هو القارئ الجيّد أو السيّئ، أو إذا كان القارئ المناهض للكاتب هو السيّئ أو الجيّد. كلٌّ يقرأ بحسب استجابته المباشرة، لأنّ الكلام على رأي يتّفق عليه في المستقبل ليس يعني أنّ هذا الرأي اعتُمد عليه اليوم وما عاد إشكاليةً. فحينما يُسيء شخصٌ ما قراءةَ نصّ، فلأنّه، في هذا الحين، هو يريد ذلك. التأويل الذي يضعه للكلمات هو الأكثر رشاقةً والأكثر حيويّةً *(Most agile and most active interpretation)* من بين تأويلات عديدة هي من بين احتمالات الذهن. كلّ تأويل يُحفَّز ببعض المصلحة *(Interest)* [...] مع الاستجابات الجاهزة *(Stock responses)* حيث المصلحة المهيمنة هي مألوفة إلى حدٍّ بعيد...[1]

على أيّ حال، قضيةَ التأويل تبقى محيِّرة أي ملتبسة، لأنّ ريتشاردز يسمّيها التلقّي؛ والتلقّي يصيب الكاتبَ إزاء الحدث، ويصيب القارئ إزاء نقل الحدث. وبين الحدث ونقله وضَمّ نقِله تأويلَ الكاتب، وضَمّ قراءة نقلِ الحدث تأويلَ القارئ، يبُعَد الحدث عن حقيقته زمانياً وتأويلياً، فتتضاعف هوّات الحقيقة بين الأصل والقراءة/ القراءات. فتلقّي معنىً ما، أي تأويله *(Reception or interpretation of a meaning)*، هو نشاط [...] في الواقع، هناك دوماً درجةٌ ما من الخسارة والتحريف في الإرسال *(Transmission)*[2].]

(1) Ibid., p.242.

(2) Ibid., p.180.

9. ʃ بين نبرة الكاتب ونبرة الناقد ʃ

ʃ نفتتح بقول ريتشاردز: يجب أن نسأل ما نبرةُ هذا النموذج في هذه النقطة *(The tone at this point)*، وماذا تفعل الكلمةُ [س] لهذه النبرة(1).

إنّ كلمات تعتمد على صوت السين، بعلاقتها بالسيادة والسخرية من جهة (السيدّ/ سخرية القدر)، وبالكلام المسؤول ومغالطته (مسؤول الأخبار/ لسوء الحظّ) من جهة ثانية، وبغُبن الناس والحقيقة المخالفة (الناس يحبّونه/ ليس حرّاً) من جهة ثالثة... تجعل هذا الكلام مبنياً على المباشر وعكسه، أو على إشارات تهكّمية، أي باختصار على نبرة السخرية:

ليس لدى الديموقراطيين الأميركيين إلا مرشح واحد مهم للانتخابات الرئاسية في العام 2004، إنه السيد طوني بلير. هذا هو على الأقل الرأي الذي يدافع عنه السيد توماس فريدمان مسؤول الأخبار في صحيفة نيويورك تايمس الذي يرى أنّ الرجل المعني «حازم في مجال الأمن القومي ورؤيته إلى الأمور مبتكرة والناس يحبونه فعلاً وهو خطيب بارع يوحي الثقة [2]». لكن لسوء حظ حزب ديموقراطي يفقد بعض اندفاعه فان رئيس الوزراء البريطاني ليس حراً، ومن سخرية القدر أن مقاربته للأزمة العراقية وللحرب على الإرهاب لم توفر له أصدقاء في الدولة التي انتخب فيها بقدر ما توفر له في الولايات المتحدة.

---

(1) Ibid., p.174.

فما هي استراتيجيا السيد بلير؟ من أجل فهم موقفه يجب النظر في الاطار المرجعي الذي يعتمده في تحليل القضايا الدولية. فالسياسة الخارجية والاستراتيجية العسكرية لداونينغ ستريت هما في موقف حائر ما بين التاريخ من جهة، أي بريطانيا العظمى، الجزيرة الاستعمارية التجارية التي تميل في اتجاه الاطلسي، وبين السعي من جهة أخرى إلى رفع هذه الدولة إلى مستوى القوة العظمى الأوروبية من عالم «ما بعد الحداثة» في القرن الحادي والعشرين.

ومنذ توليه رئاسة الوزراء في الأول من أيار/ مايو عام 1997 كان هدف السيد بلير أن يبرهن أن إدارة من وسط اليسار يمكنها أن تكون فعالة في تحقيق النتائج الجيدة. وفي موازاة ذلك هو يطمح إلى أن يكون قائداً بريطانياً كبيراً من طينة الزعماء التاريخيين وإلى إعادة رسم سياسة بلاده الخارجية في زمن العولمة، ولذلك حدد لنفسه أهدافاً ثلاثة:

- إحلال المملكة المتحدة في «قلب» الاتحاد الأوروبي السائر في تطوره[1].

[...]

ويفعل زعْم إمبسون: التهكّم *(Irony)* [...] الذي يجعلك تصدّق

(1) توم بنتلي (Tom Bentley): براغماتيّة طوني بلير، العالم الدبلوماسيّ، 2/ 2003؛ البراغماتيّة في حدّ ذاتها إنّما هي التباس، وإذا طبعَت الشخصيّة، كانت تعريفاتُ هذه الأخيرة جميعها التباسيّة.

أنّ الناس مذنبون وغير مذنبين، هو طريقة جدّ طبيعيّة وجوهريّة[1]، نصير أمام تساؤل: فهل السيّد طوني بلير حرٌّ أو غير حرّ؟!...[

[إذا كنّا مع النبرة صحيحةً من الممكن أن نلتمس محتوىً محيّراً، فكيف لو كنّا أمام نصٍّ ذي نبرة شائكة؟ فأخطاءُ النبرة عند ريتشاردز *(Faults of tone)*، بخاصيّة التشديدُ المفْرط *(Over-insistance)* [...] قد تهدم الأدب الذي لو لاها لكان قد امتلك قيمةً[2]:

«كانت مدينة تيتلموندي كلها مضاءة. مشاعل فخمة كأنما اشتعلت بجنون المسكونين السلفي وقد انبعثت فيهم بغتة، لتشفي غليلها، غريزة الإنسان الأولى: الهدم»....

ولا مفر، فالزمن لن يمهل من دبّر المجزرة. فهو سيحتفل بنصره على النعوش، ذاك أن أولى الغرائز البشرية ليست الهدم، بل عكسه. فهم سيسقطون دون أي مجد مستغربين كيف أن الكثيرين بالرغم من غشاوة القنابل التي رميت على الضمائر، يبقون مقتنعين بهذه الحقيقة. وعبثاً يبحثون عن المسدس والأصوات واستطلاعات الرأي. فهم سيندحرون دون نفع في مستنقع من البول ليدركوا في النهاية أن المؤرخين سيرذلونهم وأن الضمائر ستعطيهم أشكالاً مثيرة للاشمئزاز، وأن الناجين سيمحونهم من ذاكرتهم كما الكوابيس. سوف تخلد ذكراهم كقتلة ولصوص وكذابين، وكل ذلك في هالة من الصغارة

(1) Empson, Ibid., p.44.

(2) Richards, Ibid., p.208.

تصل إلى حد محو ضخامة الجريمة. فللساعة إنهم يحملون الموت، أما غداً فلن يكونوا سوى صفحة قذرة في كتب التاريخ.

ها إنّ آخر المحرمات تغادر الساحة ترافقها الكلمات الساخرة لارنست تولر، النقيض التام لفون سالومون. كلمات تنطبق بسهولة على السادة بوش وبلير وأسنار وبرلوسكوني وغيرهم من الذئابيين [4] في مفهومهم الوجودي:

«ها أنت تمثل موت اليوم. في وضع/ مطابق للحياة التي منذ زمن طويل ترقد آسنة تحت صفائح السيرك المنضدة./ الموت الرخيص! والنصر الماكر/ المحشو برطانة لغة الجنود!/ أحييك أيها السيد الاحترابي! ها ها! ها ها!! ها ها ها ها».

ولسوف يكفنون ليس في ضحكة مقهقهة وإنما في ابتسامة هازئة(1).

فالمبالغة التكرُّريّة «ها ها! ها ها!! ها ها ها ها»، المُتْبَعَةُ بعلامات تعجُّب، وبملفوظة تُعيد إثبات الضحك والسخرية لفظاً بعد أن جعلَنا الكاتبُ نحتسيهما شكلاً (ضحكة مقهقهة=ابتسامة هازئة)، أو بملفوظة سبّاقة مهّدت لِما بين مزدوجين من قَبْلِ أن تعيد تأكيدَ نبرتها (ترافقها الكلمات الساخرة)، هذا كلّه يزيد من حدِّ إفهام القارئ، فيقزِّزه وكأنّه يُشعره أنّه لا يستطيع أن يفهم المقصود الذي بين مزدوجين سوى تثبيت

---

(1) فاليريو ايفانجيليستي (Valerio Evangelist): غريزة الموت، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2003.

الكاتب المؤشّرات. إحساس القارئ هذا بأنّه مُستخَفٌّ به، ليجعله يرمي النصّ فلا يُكمّله، لا بل يرمي أيّ نصٍّ يعود إلى هذا الكاتب إذا صادفه من ضمن قراءاته يوماً.

10. بين النيّة المختبئة والتعريف المختار | النيّة

لا نيّةَ في أيٍّ من نصوص المدوّنة، أو على الأقلّ يمكن القول إنّها غير واضحة لفظاً في فقرة ما. ومع أنّ ويمسات بخصوص المغالطة القصديّة *(Intentional fallacy)* ذكر أنّ الشعر يختلف عن المُرسَلات العمليّة *(Practical messages)*، التي هي ناجحة فقط في حال استدلّينا إلى نيّتها بشكلٍ صحيح[1]، فهل في بعضٍ من هذه النصوص نسبةُ نجاحٍ في حالٍ من الأحوال؟

فصحيحٌ أنّ النيّة موجودة في النصّ الآتي كلفظٍ واضح (نيّتي)، إلّا أنّها لا تتعدّى ذلك إلى وضوح المحتوى؛ فالكاتبُ يُظهر اللانيّة (ليس في نيّتي القول)، أي إنّ النيّة باتت مزدوجة: النيّة ألّا تكون لديه نيّة؛ والنيّة في أن تكون نيّتُه عكسَ لانيّته (نيّتي القول إنّ ثمّة اتّفاقاً مع العرب الفلسطينيّين قد يكون وارداً):

«ليس في نيتي القول إن أي اتفاق مع العرب الفلسطينيين غير وارد إطلاقاً. طالما أنّ في أذهانهم شرارة أمل واحدة بإمكان التخلص

(1) Wimsatt, Ibid., p.5.

منا في يوم من الأيام، لن يثنيهم عن هذا الهدف أي وعد أو إغراء، وذلك بالتحديد لأنهم ليسوا شعباً منحطاً بل أمة حية. والأمة الحية لن تكون مستعدة لتقديم أي تنازلات حول مسائل حيوية إلا عندما تفقد الأمل في «التخلص منا» وعندما تسد آخر ثغرة في «الجدار الحديدي» في صورة نهائية» [1][1].

عند ريتشاردز: الكاتب، كما نرى، قد أعطى القارئ فهماً كاملاً لـ [الذي آرجا وصفه][2]. ما معناه أنّ ما أراد الكاتبُ وصفَه لم يكن بالفهم الكامل، إلّا بعد تحليل. وهذا إمّا غير ممكن لو كان النصّ شفاهياً، وإمّا يتوقّف على نوعيّة القرّاء. وليس هذا الأمر مستحسَناً في هذا النموذج، لأنّ الأسلوب فيما بعد جاء تأكيدياً بالكامل في ما خصّ تعريف الأمّة الحيّة (بالتحديد=عبارة تأكيديّة+بل=إضراب+تكرار مباشر=الأمّة الحيّة+إلّا=حصر+نهائيّة=نعت تأكيدي)؛ عدمُ الحسمِ في النيّة، والحسمُ في المحتوى الإفهاميّ (ذلك لأنّهم=تفسير ذو وظيفة إفهاميّة) لا يتّفقان: هناك نيّةٌ غير واضحة لإفهام واضح.

هذا الأمر يفتح مجالاً لإثارة مسألة الموقف؛ ليس جميعُ الكتّاب شجعاناً، ويبدو أنّ غالبيّةَ كتّاب النصوص الأونطولوجيّة في هذه المدوّنة- السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة- لم يُحسنوا إثبات

(1) دومينيك فيدال (Dominique Vidal): اسرائيل ضدّ إسرائيل، العالم الدبلوماسيّ، 1/ 2002.

(2) Richards, Ibid., p.149.

الموقف في تعاريفهم، أو لم يكونوا قادرين على الجهر بها. نحن نقول إنّ النيّة جزءٌ من التعريف، فهي ذاتيةٌ الموضوعيّة، أي لكأنّها «دعايةٌ لإعلان»، تشدُّ القارئ نحو التعريف-المُنتَج، فهي عند ريتشاردز للتأثير في مستمعه، وهي شيءٌ آخَر عن المعنى. فبمعزل عمّا يقوله الكاتب=المعنى *(Sense)*، وعن موقفِه *(Attitude)* إزاء ما يتكلّم بخصوصه=الشعور *(Feeling)*، وعن موقفه إزاء مستمعه=النبرة *(Tone)*، هناك نيةٌ المتكلّم *(Speaker's intention)*، غايتُه، الواعية أو اللاواعية، التأثيرُ الذي يحاول تعزيزه. عادةً ما يتكلّم لغرضٍ ما، وغرضُه يُعدّل كلامه *(His purpose modifies his speech)*[1]. فهل فقد الكاتبُ غايةَ موضوعه الذي يعرّف به، وعند ريتشاردز أنّ الغايةَ أساس التفكُّر؟ لقد خاف من تعديل كلامه، لئلّا ينحرفَ عن الكلام المنقول، ولئلّا يخسر شريحةً من قرّائه، ونحن في عصر الاصطفافات السياسية!

الموقف من التعريف أهمّ من التعريف بعينه، ويتساءل ريتشاردز: ما الفكر؟ ما الشعور؟ *(?What is thought? What is feeling)* كيف لنا أن نفصل موقف الكاتب عن نيّته؟ وما هو الموقف، أو ما هي النيّة *(?What is an attitude or what an intention)*[2]؟

في النصّ الآتي وردت كلمة «موقف»؛ وإذا كان يمكننا أن نغفر

---

(1) Ibid., p.182.

(2) Ibid., p.329.

للكاتب عدم وضوح نيّته لأنّ النيّة في حدّ ذاتها يمكن ألّا تكون معْلَنة، إلّا أنّنا لا يمكننا أن نغفر له إيرادَ لفظة «موقف» بدون أن يكون صريحاً:

إن الرقم الذي حققه السيد جان ماري لوبن في الدورة الأولى من الانتخابات الرئاسية الفرنسية قد طرح مجدداً على بساط البحث مسألة النوعية الأيديولوجية للاحزاب القومية الشعبية المعتبرة من «الموجة الثالثة» والتي لا تزال الحركات المناضلة المعادية للفاشية كما الاختصاصيون المطلعون، يصنفونها بين حركات اليمين المتطرف التقليدي، وحتى الفاشي [2].

لكن هذا الموقف خاطئ، فنحن بالأحرى إزاء نجاح يمين متطرف لا مثيل له، تخلى عن عقيدة الدولة لمصلحة الليبيرالية القصوى(1).

هناك موقفٌ فموقفٌ مضادّ فموقفٌ صريح، وهذا لمصلحة تعريف اليمين المتطرّف، ولمصلحة متتالية منطقيّة للانتهاء إلى موقف: لكنّ هذا الموقف خاطئ=ورود موقف سابق لا دخلَ للكاتب فيه، أتى ليعارضه؛ فنحن بالأحرى إزاء نجاح يمين متطرّف=تفسير الموقف الصائب، وعدم الاكتفاء بالموقف اللاخاطئ، أو الموقف الخاطئ الذي يعني أنّه يعتمد على القارئ كي يكشف نيّةَ الكاتب التي هي عكسُ الموقف الخاطئ. الموقف صريحٌ إذاً، ولم يعتمد لا على نيّة مبيّتة، ولا على قارئ ليكشفها، وهذه نقطة إيجابية تُدوّن لصالح الكاتب.[

(1) جان-إيف كامو (Jean-Yves Camus): من الفاشيّة إلى القوميّة-الشعبيّة (تطوّر اليمين المتطرّف في أوروبا)، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2002.

11. المعتقدات ومراوَغة الكاتب وتعليق الحُكم بالخبرة

يقول ريتشاردز: لَطالما أحسست أنّني منجذب للشعر الدينيّ، وقِلقٌ للاستحصال منه على أفضل ما يكون[1]. النصّ الذي يلي هو خطابٌ دينيّ، ولكنّه أيديولوجيّ أيضاً (عقائديّ+عقيدتهم)؛ لأنّه لا يتوقّف عند الإخبار، بل يتعدّاه إلى الإقناع، مع أنّ ضمير المتكلّم الذي يعبرّ عن وجهة نظر هذا المتكلّم غيرُ موجود. إلّا أنّ أداةَ تعارض مفصليّةَ مثل «بيد أنّ» و«أمّا»، وأدواتٍ أخرى متواترةً مثل «لكن» يمكن أن تعكس النمط البرهانيّ. كما انّ كلمةَ «هاجس» المتكرّرة، وعبارةَ «موقف نقديّ» لم تأتيا في سياق الخبر، بل في سياقِ طريقة وضع الخبر، هي ملْك الكاتب، ما يعني أنّه يتقصّدها لإبداء موقف والدفاع عنه:

من مدارس «طالبان» القرآنية في جنوب افغانستان إلى المواقع الإسلامية على الانترنت مروراً بالتلفزيون السعودي والعديد من المساجد في ضواحي باريس ولندن، تنتشر رؤية موحدة للإسلام المعروف بـ«الوهابي» لدى المسلمين الأكثر اعتدالاً (أو التقليديين منهم). ويرفض المعنيون التسمية مفضلين عليها «السلفيين»[2] . والمقصود هنا ليس حركة منظمة بل رؤية للإسلام تعطي الأولوية إلى قراءة حرفية وصارمة للقرآن وتتخذ موقفاً نقدياً من التاريخ الإسلامي نفسه الذي تلى المجتمع المثالي في زمن الرسول والصحابة.

---

(1) Richards, Ibid., p.66.

وتسعى هذه الأصولية الجديدة[3] إلى فرض الشريعة كمعيار لكل أشكال السلوك الإنساني والاجتماعي رافضة بالتالي أي مرجعية ثقافية أخرى ترافق أو تتجاوز الثقافة الدينية البحتة كالفنون التشكيلية والموسيقى والفلسفة والأدب والعادات الوطنية من دون ذكر الاستعارة من الثقافات الأخرى (الاحتفال بالسنة الجديدة وتزيين شجرة الميلاد). كما أنها لا تقيم مع العلوم سوى علاقة استخدام، فتوافق على الحاسوب وترفض العقلانية العلمية. وتتعارض صيغة الإسلام هذه بشدة مع المسيحية واليهودية (وعرضاً مع المذهب الشيعي)، من اغتيال رهبان تيبيرين (1996) إلى رفض تشييد الكنائس فوق الارض السعودية (مقابل انفتاح الإخوان المسلمين المصريين على الأقباط[4] أو غياب التوتر في ايران بين المسيحيين والمسلمين).

ويبقى هاجس هذه الأصولية الجديدة رسم خط أحمر بين الدين والكفر، وهو خط يخترق الأمة الإسلامية نفسها، فهي ترفض بالتالي كل المساومات الدينية وأيضاً الثقافية مع الثقافة الشاملة المهيمنة والتي هي اليوم ثقافة الغرب. كل الامور مصنفة ضمن قاعدة المعروف والمنكر بما في ذلك التفاصيل التافهة من نوع طريقة حلاقة الذقن («طالبان» الافغانية) أو تنظيف الاسنان. ويصبح النشاط الرئيسي للعلماء أو الواعظين المتطوعين إصدار الفتاوى لتحديد شرعية السلوك، من استخدام البطاقات المصرفية إلى وهب الاعضاء.

بيد أنه يمكن هذه الأصولية الجديدة أن تتطور ضمن ظروف

اجتماعية وسياسية متنوعة. فـ «جماعة التبليغ» (المعروفة في فرنسا باسم «الايمان والممارسة» (Foi et Pratique) مثلاً هي منظمة شرعية تماماً وليست سياسية. لكن الأئمة في مساجد الاحياء الصغيرة في اوروبا يشددون على ارتداء الفتيات الحجاب وعدم المشاركة في دروس الرياضة البدنية ويحرّضون المسلمين لعدم التسليم على النساء باليد أو الرد على بطاقات المعايدة في رأس السنة. في المقابل، فإن الدعاة في لندن، من امثال ابو حمزه وعمر بكري، يوزعون اللعنات ويدعون إلى الجهاد. فحزب التحرير المتمركز في لندن والذي يجند الشبان المسلمين من الجيل الثاني يعتمد خطاباً بالغ التطرف (كالدعوة المباشـرة إلى بعث خلافـة [5] المسلمين وإدانة أي مشاركة في حياة البلدان المضيفة الاجتماعية والسياسية) لكنه يحاذر الإشارة إلى الجهاد ويمتنع عن أي لجوء إلى العنف.

تبالغ الوهابية السعودية التي أسسها محمد بن عبد الوهاب (1703–1791) في تمسكها بالنص المقدس وترفض أي مساومة مع كل ما ليس من الإسلام الحنيف، إلى حد اقدامها على تدمير قبر الرسول كي لا يتحول مركزاً للتقديس. وكانت الوهابية قامت لمواجهة غيرها من المدارس الإسلامية وليس ضد الغرب الذي تحالفت معه بدفع من آل سعود. لكن يبقى هاجسها التصدي لأي تأثير، غربياً ثقافياً كان أم دينياً، وهذا ما يفسر التوتر الذي يخلقه وجود قوات اميركية في السعودية. فالتلفزيون السعودي الموجه إلى المسلمين المقيمين في

الغرب يعارض أي شكل من أشكال الاندماج في وقت يؤيد سياسة العائلة المالكة المناصرة للغرب.

أخيراً وبالطبع فإن حركات مثل الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر أو تنظيم «القاعدة»، تدعو إلى الجهاد، فتستهدف الاولى مسلمين آخرين (بدءًا بأعضاء جبهة الإنقاذ الإسلامية الذين لم يلتحقوا بصفوفها) مع الرغبة في القضاء على أي وجود مسيحي في الجزائر، في حين تركز الثانية على محاربة الولايات المتحدة الاميركية. ولا تتردد هذه الحركات في الاختلاف في ما بينها وتكفير بعضها البعض حيث ينتقد السلفيون «البدع» التي جاءت بها «جماعة التبليغ» (مفهوم «الخروج» التبشيري) بينما يناصب أنصار ابن لادن الملكية السعودية العداء ويرفض حزب التحرير استجابة دعوة الجهاد التي اطلقها ابن لادن. يختلفون حول الجهاد لكنهم يتشاركون في رؤية للإسلام ترتكز على التطبيق الصارم للشريعة ورفض وجود حيز ثقافي مستقل والعودة الفردية إلى ممارسة الفروض الدينية من خلال معيار المعروف والمنكر.

إنّ هذه التيارات قديمة قدم الإسلام، فحركة «طالبان» الافغانية تذكّر بالموحدين في المغرب إبان العصر الوسيط حين اتحدت القبائل الباشتونية هنا والبربرية هناك وراء زعيم شعبي لكي تفرض على أهل المدن إسلاماً صارماً قائماً على الشريعة وحدها. والسؤال المطروح هو سبب تطور هذه الظاهرة اليوم ضمن أوساط تعيش الحداثة في الواقع بدءًا بالمسلمين المقيمين في الغرب.

أما محور التوصيل فيمر عبر المدارس الدينية كالمدارس القرآنية في باكستان أو العديد من المؤسسات الإسلامية في السعودية أو دول الخليج. من هناك تخرج العلماء والواعظون الذين يفتحون المساجد في الغرب أو تستدعيهم الجاليات المحلية للقيام بمهام الدعوة التي جعلت منها «جمعية التبليغ» منهجاً تمارسه فرق دولية تنتقل من بيت إلى بيت في أوساط الجالية المنتمية سوسيولوجياً إلى الإسلام. وقد بدا واضحاً في باكستان طغيان الطابع الوهابي على التعليم الديني وخصوصاً على المدرسة «الديوبندية» الحاملة في الماضي هوية ثقافية مطبوعة بالميراث اللغوي والأدبي الفارسي والتي تحولت خلال عقدين إلى الوهابية تحت تأثير الممولين والدعاة السعوديين المؤيدين للجهاد الافغاني ضد السوفيات. وقد أدى السعوديون دوراً حاسماً في انتشار الأصولية الجديدة. وفي سبيل قطع الطريق على التيار القومي العربي أو الاتجاه الشيعي الايراني أو الشيوعية، شجعوا على الصعيد الديني قيام اتجاه سني عقائدي محافظ ولكنْ معاد أيضاً للغرب (يجدر التذكير بأن للسلطة الدينية في السعودية استقلالاً نسبياً عن آل سعود).

وحرص الوهابيون السعوديون على نشر عقيدتهم في حد ذاتها مكتفين بفرضها على أنماط التعليم في بقية المدارس وتهميش كل ما يتصل بثقافات العالم الإسلامي الكبرى مشددين على كل ما يذهب في الاتجاه الحنبلي (وهي المدرسة الأكثر تمسكاً بحرفية النص من بين

المدارس الشرعية الأربع الكبرى). وقد تقلص المضمون التعليمي لمصلحة كتيبات صغيرة الحجم تدور حول الفقه والعبادات[1].

ولكن متى قال ريتشاردز: معظم المعتقدات *(Beliefs)*، بالطبع، تلك التي تمتلك أيّةَ قوّة أو مثابرة، هي خلطات من المعتقَدين العقليّ والانفعاليّ[2]، بات بإمكاننا أن نُسقط النصَّ بأكمله، لأنّه، علمياً، غيرُ موضوعيّ، وإن حاولَ كاتبُهُ أن يجعل بناءه موضوعياً. فالموضوعيُّ هو الذي اختاره بنفسه، أي هو الذاتيّ في مطلق الأحوال؛ أو هو البناء الإقناعيّ والتفسيريّ الموضوعيّ، والمحتوى موجَّه بدافعٍ شخصيّ أو انفعاليّ.

وبما أنّ أُسَّه دينيّ، سقط بشكلٍ مزدوج! سواء كان الرأي صائباً أو خاطئاً. هو سواء في كلتا الحالتين. أوَلم يزعم ريتشاردز أنّ اللواصق العقائدية *(Doctrinal adhesions)* إشكالٌ آخر؟ فكثيرٌ من النماذج الدينيةَ يبدو محتوياً أو متضمّناً رؤىً ومعتقدات، صحيحة أو خاطئة، بما خصّ العالَم [...] لهذه الصعوبات في هذه النقطة أن تكون مصدراً خصباً للتشويش المرْبك والحُكم الشاذّ *(Confusion and erratic judgment)*[3].

ولنفترضْ أنّ هذه المقالة في آرائها صائبةٌ موضوعيةٌ، إلّا أنّها لا

---

(1) أوليفييه روي (Olivier Roy): وهم العودة إلى الجذور (الإسلام الحرفيّ)، العالم الدبلوماسيّ، 4/ 2002.

(2) Richards, Ibid., p.275.

(3) Ibid., p.16.

تكون كذلك من وجهة نظر القارئ/ القرّاء؛ إذ لا ينتهي الحكم على مقالة دينيّة بالموضوعيّة بعد التأكّد من موضوعيّتها، بل ما بعدَ كلّ قراءة يقرأها قارئٌ من بين قرّاء محتمَلين. وهنا سقوطٌ ثانٍ للنصّ. ففي النصّ السابق، قد لا يوافق قارئٌ ما على طريقة معالجة هذه الأركانِ أو أحِدها أو بعضِها بشأن الأصوليّة: الهاجس، الفرض، التطوّر، المدارس، المصدر، المكان، الجماعات، التوصيل، الحرص. لا بل حتّى قد يرفض موضوع الكلام برمّته، فيُسقط النصَّ ليس لأنّه طرح معالجةً مخالفة، بل بكلّ بساطة لأنّه طرح موضوعاً مخالفاً لاهتماماته وتوجّهاته. وهنا سقوط ثالث للنصّ! ففي الواقع معظم القرّاء، وتقريباً جميع القرّاء الجيّدين، هم بعضَ الشيء منزعجون حتّى من تعارضٍ مباشر بين معتقداتهم الخاصّة ومعتقدات الكاتب [...] عندما يختلف القرّاء، فإنّ انشعاباتهم *(Divergences)* لن تكون نتيجةَ مواقفهم المختلفة بالنظر إلى معتقدات الكتّاب، وإنّما ستأتّي أكثر من أسباب أخرى في مزاجهم وخبرتهم الشخصيّة[1].]

[إنّ قراءة القارئ التوجّهيّة تنبع من خبرته، ليست خبرته العامّة، بل خبرته حول الموضوع في حدّ ذاته، بمعنى ما خَبِرَه، أي ما حصلَ معه في موضوعٍ على أرض أحداث حياته مماثلٍ لما كُتب على ورقة الكاتب:

مهما كانت الحجج التي تتذرع بها أميركا لمهاجمة العراق (وفي

---

(1) Ibid., p.271-272.

السياق إرساء «الديموقراطية في المنطقة» فإن هذه الحرب ليست ممكنة الا بسبب الحالة المذرية للعالم العربي. انهار جدار برلين، تحول الاتحاد السوفياتي رجع صدى، دخلت الكرة الارضية عصراً جديداً وبقي هذا العالم العربي على حاله الميئوس منها. هو لا ينفرد كثيرا بالانظمة الاستبدادية المتحكمة به إلى حد بعيد، فمناطق أخرى من العالم عانت ولفترات متفاوتة من الديكتاتورية. لكن هنا، تمر السنون من دون أن تولّد المجتمعات العربية حركات واسعة في سبيل الحرية والديموقراطية والحداثة. ولا تزال ملكيات من زمن مضى وأنظمة عسكرية مموهة باللباس المدني تمسك بزمام السلطة ولا تواجه معارضة فعلية سوى من الحركات الإسلامية. فيبدو أن العرب مرغمون على مجرد الاختيار بين أشكال مختلفة للاستبداد.

يخلص البعض في الغرب إلى القول انطلاقاً من واقع الحال هذه، إلى أنّ الإسلام في حد ذاته يحمل بذور العداء للديموقراطية مستشهدين على ذلك بآيات من القرآن. وبحسب هذا المناخ السائد في أوساط تتجاوز إلى حد بعيد الدوائر العنصرية، فإن «تأخر» العرب هو من صنع العرب أنفسهم[1]

فبما أنّ هذا النصّ كُتب في زمن العذاب العراقيّ، وبما أنّ قراءته تجري معنا اليوم في زمنٍ لم تنتهِ فيه هذه الأزمة من التقتيل والتشريد،

(1) سليم نسيب (Selim Nassib): سعياً للتخلّص من العالم العربيّ، العالم الدبلوماسيّ، 3/ 2003.

خصوصاً للمسيحيّين، فنحن كمسيحيّين لا يمكن ألّا نطلق انفعالاً لحظةَ سماع العبارة الأولى أو حتّى جزء منها (...أميركا لمهاجمة العراق)، ويكفي لنا أن نسمع «مهما»، لنفهم أنّ الكاتب يعارض أيّ منطق (حجج)، أي إنّه يكتفي بالانفعال. ومَن حالتُه من القرّاء مثل حالتنا، في العراق أو في وطننا لبنان قد اختبر هذا الأسى بوضع اليد على بلاده، فسيحكم على النصّ إلى جانب الكاتب، فيعتبره جيّداً، وبإمكانه، بما أنّ عقيدته وعقيدة الكاتب تتشابهان منذ العبارة اللغويّة الأولى، أن يستكمل النصَّ بنفسه، ناظراً إلى أعلى أو إلى أسفل، متأمّلاً المُحتمَلَ من التتمة... فإذا اعتبرنا مع ريتشاردز كيف تتكوّن الاستجابات عموماً، نرى أنّ السبب الرئيس لنماذج ردّاتِ الفعل المُقَولَبة *(Stereotyped reactions)* المريضة، ينسحب من الخبرة *(Withdrawal from experience)*[1].

طريقةٌ وحيدة يمكن الكاتب أن يتعمّدها ليكسب الشريحةَ النصفيةَ الأخرى من القرّاء، أي الذين هم ليسوا مع العراق لسبب أو لآخر، أهمُّها أنّهم يلومون العرب (تأخُّر...)، وهذا اللوم شبيهٌ بالموقف المناهض. فما ذكره الكاتب في المقطع الأوّل فيه من التأكيد ما ينفّرُ بعضَ القرّاء (مهما=تعميم ... فإنّ=تأكيد ... ليست ممكنة إلّا=حصر). لذلك تجد التدرّج صوب التخفيف من حدّة التأكيد باتّجاه المراوغة (يبدو أنّ العرب؛ يخلص البعض). وحتّى إذا كانت العودة إلى التأكيد (إنّ

(1) Richards, Ibid., p.246.

تأخر... العرب أنفسهم=حرف مشبّة بالفعل للتأكيد+توكيد معنويّ)، فلا مشكلة، إذ هذا التأكيد أتى غيرَ موقِّعٍ توقيعاً شخصياً (قول بعض الغربيّين، وليس «أنا»)، وأتى ضمنَ توقيعٍ تخفيفيّ، فكان التأكيدُ تحت عباءة القول التخفيفيّ، ومجدّداً، تعمّدَ الكاتبُ أن يتنصّلَ من مسؤوليّة رأيه في الخلاصة (يخلص البعض في الغرب)، فأكّد ذلك بكلمة نكرة: أوساط...

فالأقوال الدينيّة عند أحدهم بالنسبة إلى إمبسون كانت مُلْخبَطة أو مُراوِغة حتّى لا يُزعج الناس من مختلف أطياف الرأي الدينيّ[1].[

12. [التهيّؤ والشيوع وأنواع الإسقاطات]

[إذا قرأ أحدُ المقاومين العرب ما عرّف به اليهوديُّ حول إمكانيّة اتّفاق إسرائيل مع العرب الفلسطينيّين، فسوف يُسقط عليه الشتائم، وسيكون إسقاطُ النصّ بأكمله بسبب هذا القول المنقول المباشر بين مزدوجين، أي بما شعره المقاوم من انفعال إزاءه. هذا القارئ مهيّأ لإسقاط هذا الموضوع، وقد انحرف به صوب نفسه، بدلاً من أن يدعوَ نفسَه إلى حقيقة النصّ. علينا مع ريتشاردز أن ننبّه إلى التأثير القويّ والمقنع جداً للّاعلاقيّة الذاكِريّة *(Mnemonic irrelevances)*. هذه تأثيراتٌ توّاهة للقارئ الذي يُذكِّرُ بعضَ مسارح الأحداث الشخصيّة أو

(1) Empson, Ibid., p.190.

المغامرات، التوافقات الشاذّة، تدخُّل الأصداء الانفعاليّة من ماضٍ ما قد لا تكون له أيّة علاقة بالنموذج(1).

«ليس في نيتي القول إن أي اتفاق مع العرب الفلسطينيين غير وارد إطلاقاً. طالما أن في أذهانهم شرارة أمل واحدة بإمكان التخلص منا في يوم من الأيام، لن يثنيهم عن هذا الهدف أي وعد أو إغراء، وذلك بالتحديد لأنهم ليسوا شعباً منحطاً بل أمة حية. والامة الحية لن تكون مستعدة لتقديم أي تنازلات حول مسائل حيوية إلا عندما تفقد الأمل في «التخلص منا» وعندما تسد آخر ثغرة في «الجدار الحديدي» في صورة نهائية»[1] .

كتب زئيف جابوتنسكي هذه السطور عام 1923 في مقال بعنوان «الجدار الحديدي (نحن والعرب)». وبعد عشر سنين أقدم مؤسس الصهيونية المسماة «تحريفية» على الانشقاق عن المنظمة العالمية بعدما اتهمها بعدم السعي إلى إقامة دولة يهودية على ضفتي الاردن وعدم إنشاء جيش يهودي قوي لهذا الغرض. ويتحدر حزب ليكود الحالي من الحركة التحريفية هذه عبر الايرغون وليهي ومن بعدهما حيروت فيما يعتبر السيد أرييل شارون (بالرغم من انتسابه في الأساس إلى حزب العمال) ومن قبله مناحم بيغن واسحق شمير، خليفة جابوتنسكي. لكن فكرة «الجدار الحديدي» لم تلهم فقط أحفاد من

---

(1) Richards, Ibid., p.15.

وجد فيه بنيتو موسوليني قائداً «فاشياً»[2]]، بل قامت عليها ولمدى طويل استراتيجيا يهود فلسطين (اليشوف) ومن ثم الدولة العبرية[1].

ثمّ إنّ ذِكر موسوليني في النهاية بثّ فينا نحن حماسةً لا ندري عقلانياً سببهَا! ربّما لأنّ عند الإنسان نفَسَ قيادةٍ ينتظر أن يتفجّر فيه، وربّما لأنّ سلبيةً قام بها هذا القائدُ لا تعنينا مباشرةً كعرب.

في وسط النموذج تكرّر «الجدار الحديدي»، وكما أنّ الغيوم تُدهش ريتشاردز[2] فتؤثّر في إعجابه بالنماذج المتضمّنة ذلك، فنحن نهوى الصناعة الحديدية، ونمقت الصناعة الليفية والبلاستيكية البديلة، كالسيّارات التي تزداد فيها أنظمةُ الأمان إلّا أنّ الحوادث المؤسفة تكثر مع ذلك! وأمّا الجدران فلا نحتملها لأنّها تُسبّب فينا انفعالاتٍ رَفْضيةً للعوائق التي تعترض حريّتنا. هكذا فكّرْنا منذ طفولتنا. يا قارئي، أين النصُّ الآن؟ ألَم تلاحظ أنّك دخلتَ في هواجسي، انسجمتَ مع عالمها، ونسيتَ أنّنا نحلّل نصّاً، لو لم أُذكّرْكَ بذلك للتوّ؟! على أيّ حال، ربّما القارئُ تركني وشأني، وذهب إلى عالمه هو، منذ لحظةِ سماعِه لفظةَ «جدار»، إلى «جدار برلين»...[

[مايلي هو نموذجٌ أشدُّ خطورةً لجهة الإسقاطات، لأنّه حيٌّ بَعْدُ: بما أنه بات من المتعارف عليه أنّ حوادث 11 ايلول/ سبتمبر

---

(1) دومينيك فيدال (Dominique Vidal): اسرائيل ضدّ إسرائيل، العالم الدبلوماسيّ، 1/ 2002.

(2) Cf. Richards, Ibid., p.132.

المأسوية كانت فاتحة حقبة جديدة في التاريخ المعاصر، نسأل أي حلقة أغلقتها هذه الحوادث وما هي نتائجها؟

بدأت المرحلة المنتهية في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989 مع سقوط جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفياتي في 25 كانون الاول/ ديسمبر 1991. وقد جرى الاحتفاء من دون انقطاع بأهم ميزات تلك الحقبة ـ التي شهدت من جهة أخرى ازدهار العولمة الليبيرالية ـ وهي: تمجيد النظام الديموقراطي والاحتفال بدولة القانون وتعظيم حقوق الإنسان. وقد اعتبر هذا الثالوث الحديث على صعيد السياستين الداخلية والخارجية بمثابة أمر واجب يشار إليه باستمرار. وبالرغم مما يعتري هذا الثالوث من تناقض (هل يمكن فعلاً التوفيق بين العولمة الليبيرالية والديموقراطية الكونية؟) فإنه حاز تأييد المواطنين الذين رأوا فيه تقدماً للقانون على البربرية.

يمثل الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر قطيعة واضحة. فباسم «الحرب العادلة» ضد الإرهاب تبدو جميع التجاوزات مباحة فجأة. من البداية، وفي سبيل شن الحرب في افغانستان، لم تتردد واشنطن في عقد تحالفات مع زعماء لم يكن من اللائق التعاطي معهم: الجنرال الانقلابي برويز مشرف في باكستان أو الديكتاتور الأوزبكي إسلام كريموف. اما صراخ الرئيس الباكستاني الشرعي السيد نواز شريف وكذلك اصوات المدافعين عن الحريات في أوزبكستان فلم تنجح في تجاوز جدران السجون...[1]

---

(1) انياسيو رامونه (Ignacio Ramonet): وداعاً للحرّيات، العالم الدبلوماسيّ، 1/ 2002.

فحينما يقرأه قارئٌ معاصر لأحداث ١١ أيلول/ سبتمبر، ربّما لأنّه كان أميركيّاً، أو من أتباع بن لادن، أو ممّن يتأثّرون للأموات، أو ربّما لمجرّد أنّه عاصرَ هذا الحدث الموصوف بالمأسويّ، فقد يتأمّل ويعود بالصورة الأولى إلى ارتطامِ الطائرة فانهيارِ المبنى فعويلِ الناس فالعمل على نجدة مَنْ هم تحت الأنقاض، ولَسوف «ينسى» استكمالَ قراءة النصّ في حينه. ولو قمنا بإحصاءات، لَوجدنا نسبةً قليلة تستطيع التركيز على محتوى النصّ، إذ إنّ تركيزها سيتشتّت عنه ليتركّز في صور الواقع أو التلفاز أو الذات. وكما اعتبرَ ريتشاردز في موقع مشابه، فترافُق الشخصيّ *(Personal association)*، اللاعلاقيّة الذاكريّة، يُتوقَّع أن يهدّدا هذا النموذج بدرجات لافتة[1]، ما يُثمر استجاباتٍ نفسيّةً أكثر ممّا يثمر إجاباتٍ حول إشكاليّات النصّ. هذا من قَبيل الأفخاخ النقديّة *(Critical traps)* التي تحيط ما يمكن تسميته الاستجابات الجاهزة؛ لهذه فُرصتُها في كلّ مرّة بدَا [النصُّ] - أو هو - يحوي رؤىً وانفعالاتٍ كانت للتوّ قد تحضّرت تماماً في ذهن القارئ، بحيث إنّ ما يَحدث يَظهر وكأنّه يعني القارئ أكثر ممّا يعني الكاتب[2].

اللافت في الأمر أنّني الآن بالذات، أقوم بتحليل النصّ على هذا المنوال وأنا في مكتبي بتاريخ ١١ أيلول/ سبتمبر! يا للمصادفة! أبرأيكم ستجدون تحليل النصّ موضوعياً من قِبَلي؟! ولكنْ يُطمئننا ريتشاردز

---

(1) Richards, Ibid., p.59.

(2) Ibid., p.15.

بأنّنا قد نوافق على أنّ الاستجابات الجاهزة هي أفضل بأشواط من اللااستجابة إطلاقاً. فإنّ مستودَعاً واسعاً من الاستجابات الجاهزة هو من الضرورات[1].ʃ

13.ʃالميزان-التداخل بين الفكر والشعورʃ

ʃلاحِظ التساؤلات «مَن...؟، من أين...؟، كيف...؟»، وهي، كتساؤلات، تدلّ على وعيٍ كلاسيكيّ في البحث عن أجوبة، كما أنّها، كصِيَغ، تبحث عن الهويّة، والمصدر، والتوضيح. وذلك كلُّه تقدِّمَه ما يدعمه من نمطٍ برهانيّ متداخِلٍ مزدوج «لو=إذا..فـ=إذاً»/ من أجل... فإذاً علينا...»، وتفسيريٍّ ممهِّد للتوضيح (من أجل=لماذا؟)، ضمنَ موضوعٍ للكلام يخصّ الفكر دلالياً (الاقتصاد+الكساد+البنوك +التجاريّة=حقل معجميّ لخبير ماليّ)، ويؤسّس لفرَضيةٍ قبل إشكالية التساؤلات (افترضنا) في وجهة نظرٍ شخصيةٍ بضمير المتكلّم المُدرِك، أي يخصّ معاييرَ بناء المقالة:

ولو افترضنا أنّ الناس يصنعون الاقتصاد فعلينا من أجل فهم الكساد الحالي أن نتعرف في صورة أفضل على أبناء الأرجنتين. من هم؟ من أين جاؤوا؟ كيف وصل هذا الشعب إلى هذه الحال من اليأس والحنق والإحباط، مما يجعله يقف في الصف أمام البنوك وهو مطأطىء الرأس أو يغير على المحال التجارية لسرقتها؟

(1) Ibid., p.241.

منذ البداية نظر إلى الأرجنتين على أنها محطة انتقالية. فقد جاء الغزاة الأسبان الأوائل وفي ذهنهم حمل الذهب والعودة به من حيث أتوا وعدم الترجل عن صهوة الحصان لحراثة الأرض حتى ولو كانت من الأكثر عطاء. وقد ورث هذه العقلية من سمّوا «الغوشو» أي فرسان الأسطورة الأحرار والقساة الذين لم يكونوا في زمن الاستعمار سوى خلاسيين فقراء وعزيزي النفس[1].

غير أنّ التوضيح، كبنية فكريّة، محتواه شعوريّ (اليأس+التحنق+الإحباط) مهّدَت له كلمة «حال». باختصار، الفكر يفكّر في المشاعر. وهذا ما استكمله الكاتب حين ربط «العقليّة» بـ «القساوة وعزّة النفس». الكاتب، في طريقة عرضه إذاً (بناء فكريّ لمحتوى شعوريّ)، ينقل بأمانة صورةَ المحتوى المنقول (شخصيّات تربط العقل بالنفس). وها إنّ إمبسون يقول إنّه غالباً ما لا يمكنك معرفة واحد من الفكر والشعور بدون معرفة الآخر، فتفهَمُ جملة ما يشمل الاثنين معاً بدون التمييز بينهما[2].

وعندما أكملَ إمبسون أنّ ما يُشعَرَ به أو يفكَّرُ فيه هو سيّان لكنْ مختلف *(Similar but different)*، وهو يتطلّب تدريباً للقيام بالاثنين معاً في آنٍ واحد، وأنّ هذا القول قد يعني أنّ هناك تشويشاً للحواسّ *(Confusion of the senses)*، غير أنّه قد يعني شيئاً أكثر أهميّةً يشمل

---

(1) بيار كالفون (Pierre Kalfon): ما عاد الله ارجنتينيّاً، العالم الدبلوماسيّ، 2/ 2002.

(2) Empson, Ibid., p.2.

التمييز بين الحسّ والشعور، وأنّ ما ينقله الكاتب هنا ليس تجميعاً لمعانٍ نحوية قابلة للتحليل، بل هو مزاج، جوّ، شخصية، موقف إزاء الحياة، طريقة كينونة[1]، فقد ركّز على جوٍّ وموقف:

هناك إحساس قوي بأن شيئاً ما جوهرياً يجري في قضية العراق هذه. فإشارات الانعطاف تشتغل في كل مكان، فإذا هندسة العالم في مجملها تتقوض والأمم المتحدة ممزقة والاتحاد الأوروبي منقسم على ذاته وحلف شمال الأطلسي مفكك... وهناك عشرة ملايين شخص مقتنعون بأن آلة إنتاج المآسي قد عادت إلى العمل فنزلوا في 15 شباط/ فبراير 2003 إلى شوارع المدن في العالم ليعبروا عن احتجاجهم... رافضين مشاهدة عودة وحشية السياسة الدولية بأقصى ما فيها من عنف وهوس وأحقاد.

ويجري التعبير عن هذه المخاوف الجماعية عبر طرح بعض التساؤلات المقلقة: لماذا ...؟ لماذا... ؟ ...[2]

فكلمات مثل «قضية، انعطاف، هندسة، مقتنعون» اختلطت بكلمات مثل «إحساس، مآسٍ، عنف، هوس، أحقاد»، والشبكتان متعادلتان تقريباً لجهة عدد العناصر، فاختلط الفكر بالشعور، وعُبِّرَ عن هذا الترابط كي لا يَصعبَ التمييزُ بينهما، في الاستعارة (آلة إنتاج المآسي =عقل+شعور)، في العبارة (ليعبّروا عن احتجاجهم=الفعل

(1) Ibid., p.16-17.

(2) انياسيو رامونه (Ignacio Ramonet): الحرب المستمرّة، العالم الدبلوماسيّ، 3/ 2003.

«عبرّ» يُستخدم للفكر وللأحاسيس=التعبير عن هذه المخاوف)، وفي المبالغة (وحشيّة السياسة=انفعال+الإدارة العقلانيّة والدهاء).

لماذا في هذين النصّين اللذين اخترناهما، كمنَت أهميّةُ الاختيار؟ لأنّ الحكم على الفكر وحدَه جافٌّ، ولأنّ الحكم على الشعور وحده فضفاض. جفاف الفكر يبدو عند ريتشاردز في اعتبار الذهن كميّاً بشكلٍ فضوليّ في بعض عمليّاته (The mind is curiously quantitative in some of its operations)[1].

الكميّة وردت في النصّ الأوّل عبرّ جدليّة «غنى | فقر» (ذهب، بنوك، فقراء)، مروراً بعطاء الأرض الذي ورد في سياق أفعل التفضيل (أكثر عطاءً=كميّ=جدليّة مع «أقلّ عطاءً»). ووردت في النصّ الثاني عبر رقم صريح (عشرة ملايين). إلّا أنّ إطلاق المشاعر جعل النوعيّةَ واردةً في تعريفات أبناء الأرجنتين أو المحتجّين. الجانب الإنسانيّ مهمّ إذاً. فالمطالبة بالحقوق ليس مصدرها الجشع. والبناء الذي يبدو المغلّفَ الفكريّ للحالة الانفعاليّة يتبدّى حتّى في التساؤلات «المقلقة» أي «الوعي الشعوريّ» إذا صحّ القول. فاللُّبّ أو المنعطَف (Core or Turning-point) لهذا النموذج هو في التأثيرات الانفعاليّة لهذا الفكر-الذروة كمتحقّقة (In the emotional effects of this culminating thought as realized)[2]- لاحِظ في محتوى النموذج الثاني عبارة «إشارات الانعطاف».

---

(1) Richards, Ibid., p.268.

(2) Ibid., p.64.

لكنْ بفعل هذا الاختلاط، فسنصدّق تخوُّف ريتشاردز: سيكون صعباً التأكيدُ أنّ الفكر في هذا النموذج هو أخّاذٌ أو أصيل، أو إذا كان شعوره استثنائياً[1]. هذا التباس، فالقارئ ينتظر إمّا عقلانيةً نهائيةً، وإمّا شعوراً موحّداً صانعَ نتيجة. فالوعي ظلّ شكّاكاً غير ثابت في النصّ الأوّل (لو افترضنا=نظام عقليّ غير جازم بأداة الشرط لغوياً، وافتراضيّ معجمياً؛ تساؤلات)، وكذلك في الثاني (إنّ شيئاً ما=مبهم مزدوج في الإبهام بسبب كلمة «شيء» التي لا تعرّف عن ماهية معيّنة، و«ما» النعتيّة التي يراد بها الإبهام؛ تساؤلات مقلقة/ مفتوحة=مُغلّقة؛ كلمة «إشارات»=عدم الوضوح=ليست الأشياء في ذاتها بل ظلالها إذا صحّ القول)؛ أمّا الشعور فمركّز إمّا بالتكرار المتلاحق بالعطف الترادفيّ تقريباً للتأكيد (يأس وحنق وإحباط- عنف وهوس وأحقاد=ثلاثيّتان وكأنّ في النصّين «الثالثة ثابتة»، والصيغ ثلاثيّة الحروف في الغالب). في الأوّل تأكيد للحالة باسم الإشارة المتكرّر (وصل هذا الشعب إلى هذه الحال=بالذات) أو بالحصر (لم يكونوا سوى عزيزي النفس)، وفي الثاني نعت للإحساس بأنّه «قويّ». أفَلم نصل من دون الرجوع إلى إمبسون، إلى أنّ هناك اختلافاً بين درجات الالتباس المنطقيّة والنفسية *(Difference between logical and psychological degrees of ambiguity)*، لأنّ الفكر معقّد أو على الأقلّ شكّاك، في حين أنّ الشعور مباشرٌ جدّاً *(The thought is complicated or at*

(1) Ibid., p.206.

(least doubtful,whereas the feeling is very direct[1]؟ إنّ الخلط بين الاثنين باعتدال، من دون أن نحسّ بأنّ أحدهما يخطف الضوء من الآخر، هو في ظاهره جيّد، إلّا أنّ النسبتين المتعادلتين ليستا متعادلتين من حيث الصيغة: فالشعور الثابت عادلَ شكَّ الفكر، وليس الفكر، وإنّ ثبات الشعور هو ثباتُ الانفعاليّ أي اللاثابت، ما يعني أنّ الالتباس قد فرض ذاته!

وكيف إذا لاحظنا أنّ النصّين لم يُبنَيا على فكرة واحدة، بل على أفكار عديدة بات على القارئ استنتاجُ خلاصتها؟ فالأوّل بُني على الفقر والغنى؛ والثاني معقّدٌ فكرياً في تتالي أفكارٍ مباشرةً (والأمم المتحدة ممزّقة والاتّحاد الأوروبيّ منقسم على ذاته وحلف شمال الأطلسيّ مفكّك)، وهي في ذاتها ثلاثيّةٌ ملتبسةُ القاعدة (ممزّقة+منقسم+مفكّك). فالالتباس ذو النوع الرابع عند إمبسون (Ambiguity of the fourth type) يظهر متى اثنان أو أكثر من معاني قولٍ ما لا تقبل في ذاتها، بل تتضامُ لتوضّح حالةً ذهنيةً أكثر تعقيداً لدى الكاتب Combine to make clear a more complicated state) (of mind in the author[2]. الحالة الذهنية الناشئة من هذا الاتّجاه المزدوج أو المثلّث في هذا النصّ أو ذاك، يمكن للقارئ الذكيّ أن يحلَّ عقدتَها من خلال الجدلية: فبدلاً من أن يقول إنّ هناك موضوعين أو

(1) Empson, Ibid., p.47-48.

(2) Ibid., p.133.

ثلاثة، يقول إنّ هناك جدليةً فتجمع المتنافرات (فقر/ غنى؛ جوهري/ منقسم...).

تصوّروا أنّنا مع إمبسون توصّلنا إلى أنّ الفكر لا يستطيع الوصول إلى ثابت؛ لقد أثبتنا نحن ذلك بالتعقيد الفكريّ، فكأنّه من المستحيل أن يوجّه الفكرُ انتباهَه إلى أمرٍ واحد من دون أن يزاوج بين أكثر من فكرة واحدة، أو أن تتداخل فيه فكرةٌ قد تكون كامنة.[

[يمكن إثبات هذا الأمر بطريقة أخرى، حيث الفكرُ نفسُه، يمكن للقارئ أن يقلبه إلى شعور، فينتفي الفكرُ حين يكون النصُّ في النقد الجديد مُلكاً للقارئ. فإذا بثَّ الكاتبُ فكرةً، قد يتلقّاها القارئُ إحساساً. فالشعور لدى ريتشاردز هو شيءٌ بريءٌ وغير مُغالِط *(Innocent and unfallacious thing)*، بالمقارنة مع الأفكار والنيّات، وقد يظهر عبرْ تحفيزٍ مباشر بدون تدخُّل أيٍّ من الفكر أو النيّة. الأصوات الموسيقيّة، الألوان، الروائح، قشر الخوخ، شحذ المقصّ، هذه كلّها قد تثير المشاعر بدون أن تكون أذهانُنا موجَّهة صوب أيّ شيء[1]. هذا ما نلتقطه من هذا النصّ:

وما يزيد من أسى البريطانيين أنّ هذا الواقع الأقرب إلى الكابوس جاء يتوج شتاء شهدوا خلاله كل انواع المصائب من «جنون البقر» إلى الفيضانات والمناطق المعزولة تحت الثلوج من دون كهرباء، إلى

(1) Richards, Ibid., p.331.

كوارث اصطدام القطارات الخ... وليس وراء هذه النكبة أي لعنة إلهية ولا أي سوء طالع(3).

فالقرارات التي سهلت وقوع هذه المآسي قد اتخذت بوعي كامل وبالارتكاز على مبادئ دقيقة مستقاة من الانجيل النيوليبيرالي. هكذا فان التوسع المذهل للحمى القلاعية والذي لم يصل بعد إلى ذروته رغم انه يبدو «خارج السيطرة»(4)، عائد إلى الرغبة في المردودية التي دفعت بأطراف الإنتاج إلى الاقتصاد في الأكلاف، أي في معايير الأمان، من أجل توسيع هامش الأرباح. وباسم التحرر من القيود في الثمانينات ادارت حكومات السيدة تاتشر ظهرها لمبدأ الوقاية ووصلت إلى القضاء على شبكة الاطباء البيطريين في كل انحاء البلاد. بالاضافة إلى ذلك ومن اجل توفير مليار يورو وتشجيع التصدير اتخذ منذ العام 1991 قرار مشؤوم آخر وهو منع تلقيح الحيوانات[1]

حيث، وإنْ برزَ العقلُ في المقطع الثاني (القرارات+ وعي كامل + مبادئ دقيقة)، إلّا أنّه مُطعَّم بالإحساس (القرارات سهّلت وقوع المآسي- المآسي اتّخذت بوعي... القرارات= المآسي= الوعي= دائريةُ هيمنة العقل ولكنّ العقل هو الشعور؛ الفيضانات+ المناطق المعزولة+ الكوارث= فكر؛ في ربطها بالأسى... هذه الأحداث المصوَّرة في الواقع= إطار نفسيّ).

---

(1) انياسيو رامونه (Ignacio Ramonet): أزمة مطلقة في انكلترا، العالم الدبلوماسيّ، 4/ 2001.

حتّى أنّك لو فصلتَ العبارات عن سياقها، لاستشفّيتَ أنّ القارئ سيتشرّبها انفعالاتٍ حتّى من دون ربطها بالأسى: فأمام «كلّ أنواع المصائب=جنون البقر+فيضانات+مناطق معزولة تحت الثلوج+دون كهرباء+كوارث اصطدام»، سيتدفّق في القارئ شعورُه بالشفقة، إذ سيحوّل الحقل المعجميّ، بتدرّج عناصره، إلى شعورٍ صِرف (جنون+اختناق+وحدة+برد+خوف+موت)، بعدَ رابطٍ صوتيٍّ ضمنيّ (صوت الاصطدام، صوت الاختناق، صوت الأسنان بسبب الارتجاف من البرد)، أو اشتماميٌّ ضمنيّ (رائحة الأجساد الميتة، رائحة الموادّ المعزولة تحت الثلوج)، أو لونيٌّ ضمنيّ (دون كهرباء=ألوان ضمنية غير ظاهرة). ⌊

14. ⌊مفترَقات الفكر التداخُليّ وعلامات الوقف: الكاتب والقارئ⌊

⌊هذا النصّ:

هناك إحساس قوي بأن شيئاً ما جوهرياً يجري في قضية العراق هذه. فإشارات الانعطاف تشتغل في كل مكان، فإذا هندسة العالم في مجملها تتقوض والأمم المتحدة ممزقة والاتحاد الأوروبي منقسم على ذاته وحلف شمال الأطلسي مفكك... وهناك عشرة ملايين شخص مقتنعون بأن آلة إنتاج المآسي قد عادت إلى العمل فنزلوا في 15 شباط/ فبراير 2003 إلى شوارع المدن في العالم ليعبروا عن

احتجاجهم... رافضين مشاهدة عودة وحشية السياسة الدولية بأقصى ما فيها من عنف وهوس وأحقاد.

ويجري التعبير عن هذه المخاوف الجماعية عبر طرح بعض التساؤلات المقلقة: لماذا هذه الحرب على العراق؟ ولماذا في هذا الظرف بالذات؟ وما هي الأهداف الحقيقية التي تسعى وراءها الولايات المتحدة؟ ولماذا تعارضها فرنسا وألمانيا بكل هذه القوة؟ وما الذي ينم في هذا النزاع عن معطى جديد في مجال السياسة الخارجية؟ وما الذي ينبئ به من تغييرات في التوازنات الكبرى في العالم؟

يظن الكثير من الناس أن الأسباب الفعلية لهذه الحرب تبقى في باب الألغاز. وحتى وإن حسنت نياتهم فإن الذين يتمعنون في الحجج التي تقدمها واشنطن يبقون مشككين[1]

يتوافق مع ما قاله إمبسون: بطبيعة الحال على المعاني الكامنة أن تكون مناسبة، إذ أيُّ شيء كالجملة أو القصيدة معنيّ باعتباره وحدةً ينبغي أن يكون وحدوياً، ينبغي أن يقف على ترتيب وحيد للذهن. في أوضاع معقَّدة، هذه الوحدة تكون مهدَّدة *(This unity is threatened)*: أنت تفكّر في أشياء عديدة، أو في شيء واحد بوصفه مُظهِّراً بأشياء عديدة، أو في شيء واحد بطرائق عديدة. ثمّة نوع من الوحدة قد تهبهُ معرفةُ المخطَّط الذي به جميعُ

(1) انياسيو راموته (Ignacio Ramonet): الحرب المستمرّة، العالم الدبلوماسيّ، 3/ 2003.

الأشياء تظهر، بحيث يصبح المخطّطُ عينهُ الشيءَ الواحد الذي يمكن اعتباره. بشكلٍ عامّ، واحدُنا يمكنه القول إنّه في حال كان لالتباسٍ ما أن يكون وحدوياً *(If an ambiguity is to be unitary)*، فيجب أن تكون هناك ثمّة قوىً تحمل عناصره معاً[1].

فالوضع المعقّد بدأ مع «الإحساس القويّ بأنّ شيئاً ما جوهرياً يجري في قضيّة العراق هذه»، أي ثمّة غموضٌ ذهنيّ استبُدل بقوّة الشعور (إحساس قويّ)، وهذا الشعور، وهو معاكس للذهن، بات أكثر من قُطبه العكسيّ، لأنّه غامض (لفظة «شيء»+ما النكرة المبهمة+هذه=اسم إشارة لكن ليس للتعريف النعتيّ، وإنّما لنبرة تبيّن إبهامَ التعريف بخصوص قضيّة العراق المحيِّرة التي نفذَ الصبرُ من تحليلها). ولمّا لم تأتِ هذه العناصر متباعدةً متفرّقة، كان هذا التعقيدُ التباساً تَوحّدَ بعناصر التعقيد.

الآن لا بدّ من أن يكون الغموض ضباباً نقديّاً *(Critical fog)*: ثمّة شكلٌ زائف من الغموض اللُّغزيّ *(Spurious form of mysteriousness)* يَظهر فقط بسبب أنّ تفسيراتنا مشوّشة *(Our explanations are confused)* أو أنّنا ننسى دلالةَ ما فهمناه للتو[2]. وقد ورد كلامُ ريتشاردز حرفياً في هذا النصّ حول اللغز المرتبط بتفسيرات القرّاء الملتبسة (يظنّ الكثير من الناس=الظنّ قويٌ

---

(1) Empson, Ibid., p.234.

(2) Richards, Ibid., p.346.

ملتبس+الأسباب الفعلية=تفسيرات+تبقى في باب الألغاز+يتمعّنون في الحجج=تفسيرات+يبقون مشكّكين=لغز دائم).

ومن التعقيد الضبابيّ تقارُبُ الكلمات الشعوريّة بالعطف (وحشيّة السياسة=عنف+هوس+أحقاد). إنّه تعريفٌ ثلاثيّ العناصر لوحشيّة من نوع مختلف. ولكنّ هذه العناصر الثلاثة هي نوعاً ما متقاربة ضمن حقل معجميّ واحد، ونوعاً ما متباعدة بما يميّز كلّاً منها من سواها. فهل تعاقُبُ هذه العناصر الشعوريّة يعزّز التعريف، أو يشتّت الذهن؟ على قول ريتشاردز، في مستوىً ثالث، يفترض الفهمُ درجةً ما من التمييز التفكيريّ *(Intellectual discrimination)* [...] الكلمات قد تعني هذا وليس ذاك[1].

كلّ هذا التعقيد من ضبابيّة وتفسيرات ملتبسة، يعني حُكماً غير قابل للبتّ أيضاً. فكثُرَت الأسئلة (لماذا؟... ولماذا؟... وما؟... ولماذا؟... وما؟... وما؟...)، وبات النصّ تساؤليّاً أكثر ممّا هو إخباريٌّ نقديّ، إلى درجة ذكّرتنا بما قاله ريتشاردز في أحد النصوص: عددُ علامات الاستفهام كافٍ في القطعة لجعلِ واحدنا سقيماً[2]. ويجري التعبير عن هذه المخاوف الجماعية عبر طرح بعض التساؤلات المقلقة: لماذا هذه الحرب على العراق؟ ولماذا في هذا الظرف بالذات؟ وما

---

(1) Ibid., p.326.

(2) Ibid., p.167.

هي الأهداف الحقيقيّة التي تسعى وراءها الولايات المتحدة؟ ولماذا تعارضها فرنسا وألمانيا بكلّ هذه القوة؟ وما الذي ينمّ في هذا النزاع عن معطى جديد في مجال السياسة الخارجية؟ وما الذي ينبئ به من تغييرات في التوازنات الكبرى في العالم؟|

|هذا السقم لا يتعدّى كونَه إحساساً لدى القارئ؛ فقد لا يكون كذلك عند قارئ آخر. ولكنّ ثمّة ما يتوافق عليه جميعُ القرّاء، وهو أنّ غياب علامات الوقف هو السقمُ بحقّ:

تتسلق القراديات على الأعشاب الصغيرة أو العالية، وحين مرور الإنسان بجانبها فإنها تعلق عليه وتدخل حيزومها الفموي في جلده وتبدأ بأخذ الوجبة الدموية التي تستمر عدة ساعات أو أيام تحرض إناث اللبود بلدغتهن شللاً متصاعداً يتطور حتى يبلغ الجهاز التنفسي وأحياناً يصل إلى مرحلة تودي بحياة الإنسان، لكن نزع القرادة قبل هذه المرحلة يؤدي إلى الشفاء[1].

فقبلَ الفاصلة التي بدا لنا أنّ الكاتب| المعرِّب قد مَتّنا بها، يمكن للقارئ أن يكتشف كم من فاصلة أو على الأقلّ كم من قاطعة كان ينبغي وضعُها، حتّى تتسنّى له إعادةُ قراءة تَسمح له بفهم المعنى التامّ| المعاني الجزئيّة، وإعادةُ القراءة هذه هي في الحقيقة إعادةُ فرز العناصر التركيبية بشكلٍ ترابطيّ. فإذا كان التركيب يبدو ملتبساً عند إمبسون، فذلك لأنّ

(1) محمد طاهر اسماعيل: داء لايم، العالم الدبلوماسيّ.

بعض قواعد علامات الوقف [الانكليزية] تثق بذكاء القارئ، أو كانت تهتمّ بالبلاغة أكثر من النحو[1].]

[أحايينَ أخرى، قد يضع الكاتب علامةَ وقف، يلتبس بشأنها القارئ: أهي زائدة كخطأ طباعيّ، أم لها وظيفةٌ دلاليّة؟

كتب جان بيار برلان، الباحث في المؤسسة الوطنية للأبحاث الزراعية: «يحاول صاحب العمل أن يضمن باستمرار وجود يد عاملة تكفيه للقطاف مهما تقلبت الظروف المناخية أو الاقتصادية. هنالك حاجة إلى جيش احتياطي من العمال الزراعيين لا تؤمّنه سوى اليد العاملة السرية المهاجرة. هناك ترابط وتكامل بين الهجرتين السرية والرسمية».ويستشهد بـ«النموذج الكاليفورني» الذي أقيم في القرن التاسع عشر لكن المعاينة تنطبق أيضاً على أوروبا اليوم، مع فارق بسيط أنه يمكن بشكل عام التحدث عن «عمل غير مصرح به» يقوم بهالوطنيون كما المهاجرون.

ويتأكد ذلك من خلال إحدى الدراسات الاوروبية النادرة التي أجراها نقابيون على الارض في ستة بلدان: «تؤكد المعلومات المتنافرة وجود أشكال من العمل غير الشرعي أي الأسود والنصف الشرعي أي الرمادي والعمل المحلي والمتغاير وهي ظواهر تنمو وتتكثف وتتسع[2].

---

(1) Empson, Ibid., p.133-134.

(2) نيكولا بلّ (Nicholas Bell): أوروبا تنظّم العمالة السرّيّة، العالم الدبلوماسيّ، 4/ 2003.

فإذا أمكن لأحدهم أن يقول إنّ الفاصلة بعد [الكلمة] هي خطأ طباعيّ، أو تنوي لفت الانتباه للكلمة..[1]، فالجملة الأولى المؤلّفة من عبارتين «كتب جان بيار بر لان+الباحث في المؤسّسة الوطنية للأبحاث الزراعيّة» هي بالأساس مبنيّة على اسم علم ثمّ على بدل. لو كانت الجملة مقلوبة العبارتين «كتب الباحث في المؤسّسة الوطنيّة للأبحاث الزراعيّة جان بيار بر لان»، لكان اسم العلم عطفَ بيان، وهو نوعٌ مخصوص من البدل حيث البدل أهمّ من المبدل منه. إلّا أنّ هذا القلب لم يَجرِ، فكان الكاتب يبدو أنّه يودّ التركيز على أنّ المتحدَّث عنه باحثٌ (باحث+أبحاث) أكثر من التعريف عنه. غير أنّ النحو لا يساعده في التركيز لأنّه من غير الممكن أن يصير عطف بيان. فما كان منه إلّا أنّ وضع فاصلةً تنبيهيّة.]

[في تعريف المصرف كالآتي، كان باستطاعة الكاتب أن يركّز على جزئه التعريفيّ التاريخيّ، بوضع فاصلة قبل الاسم الموصول «الذي». إلّا أنّه لم يفعل ذلك، فكان هذا لمصلحة الفاصلة التي قبلَ الفعل «باتت»، ما ينبّه إلى التركيز على السواد الأعظم من المؤسّسات:

فعلى غرار مصرف «سيتيبنك» الذي انشأ منذ 1996 فرعه الإسلامي الخاص في البحرين، بات السواد الأعظم من المؤسسات المالية الغربية ملتزماً هذا النوع من النشاطات على شكل فروع أو

---

(1) Empson, Ibid., p.135.

«شبابيك إسلامية» أو منتجات مالية موجهة إلى الزبائن المسلمين[1].

هذا «السواد الأعظم» هو التباس من النوع السابع عند إمبسون، إذ إنّ السواد الأعظم يعني أن هناك بياضاً قليلاً، أي إنّ هناك نسبةً عالية من المؤسّسات يمكن أن تُترجَم بالنسبة المئوية الملتزمة بالشبابيك الإسلامية (80–90 % منطقياً)، والنسبة المئوية المتبقّية غير الملتزمة (10–20 %). النسبة نحن الذين حدّدناها تقريبياً، فهذا التعريف استلزم مشاركةَ القارئ لتبيينه. وتالياً، بحسب اقتراب النسبة من حدّها الأدنى أو حدِّها الأقصى أو ما بينهما، تُعاد ترجمةُ النسبة المئوية الاحتماليةَ إلى لونٍ مائل إلى الرماديّ القاتم تدريجاً بحسب المطلوب، أو إلى لونٍ أبيضَ مائل إلى الرماديّ الفاتح بحسب المطلوب أيضاً.

هذا هو الالتباس ذو النوع السابع *(Seventh type of ambiguity* [...] يظهر متى كان معنيا الكلمة، قيمتا الالتباس *(Two values of the ambiguity)*، المعنيين المتضادّين اللذين يحدّدهما السياق، بحيث إنّ التأثير الكامل هو إظهارُ شقاقٍ جوهريّ في ذهن الكاتب *(Fundamental division in the writer's mind)* [...] وعلى الرغم من أنّ ما من نقطتين متضادّتين في ذاتهما، وليُصار إلى قدرٍ أكبر من الدقّة يمكن أحدهم القول 2 % أبيض، وهو يعني ظلاًّ أسودَ كبيراً من الرماديّ. أو يمكن أحدهم تقبُّلُ أن يكون المعيارُ في هذا النوع يصبح

(1) إبراهيم ورده (Ibrahim Warde): المبادىء الدينيّة أمام تحدّي العولمة (الإسلام والمال)، العالم الدبلوماسيّ، 9/ 2001.

نفسياً أكثر منه منطقياً [...] تناقضٌ من هذا النوع يمكن أن يكون لا معنى له، ولكنّه لا يمكنه أن يكون البتّة بياضاً *(Can never be a blank)*[1].

فما معنى هذا السواد الأعظم في الواقع؟ يرمي الكاتب، بالسواد الحَرْفيّ، إلى أن يؤكّد قول إمبسون بأنّ المعنى لا يكون بياضاً. وحتّى البياض هو مائلٌ بعضَ الشيء إلى سواد. التعريف بالتالي لا يكون دقيقاً، حتّى في حال كانت النِسبُ مُعطاةً بشكل دقيق، لأنّ اللون في نهاية الأمر لن يمثّل هذه النسبة بشكلٍ دقيقٍ فعلياً.

داخلَ الالتباس ذي النوع السابع وجدنا أنفسنا أمام التباس من النوع الخامس، تحقّقَ من خلال عطف التخيير، أو من خلال عبارة «على غرار» التي تفعل فعلَ أداة التشبيه وتجعل الذهن بين المصرف والسواد الأعظم، أو عبارة «على شاكلة» التي تُماهي النشاطات بما يليها من عناصر تخصيصية (هذا النوع من / النشاطات/ على شكل / فروع/ أو / «شبابيك إسلامية»/ أو / منتجات ماليّة/)؛ فكأنّ الكاتب كان يبغي فكرةً من الفِكَر الأربع، إلّا أنّه قام بكتابتها جميعاً، إمّا تلافياً لعدم الإفهام، وإمّا أملاً باقتناعه بأنّه استطاع التعبير عن ذاته، وإمّا تمهيداً لاختيارِ إحداها بعد إنهاءِ النصّ بشكلٍ متكامل والعودةِ إليها منقّحاً مشذّباً ما هو أقلُّ تناسباً مع السياق العامّ. أو كأنّ الكاتب أراد أن يُبرِز الصريحَ (منتجات ماليّة)، وكذلك المضمرَ الذي وضعَه بين مزدوجين (شبابيك إسلاميّة)، أي الماديَّ وكذلك ذا النبرة والموقف.

---

(1) Empson, Ibid., p.192.

فالالتباس ذو النوع الخامس *(Ambiguity of the fifth type)* يظهر متى يكون الكاتب مكتشفاً فكرتَهُ في أثناء فعل الكتابة *(Discovering his idea in the act of writing)*، أو ما كان ليُمسك بها جميعاً في ذهنه في وقت واحد، بحيث يكون على سبيل المثال ثمّة تشبيه *(Simile)* لا يُطبَّق على أيّ شيءٍ بدقّة، وإنّما يتراوح على مفترَق طرق بين شيئين متى كان الكاتب متنقلاً من واحد إلى آخر[1].

غير أنّ ذلك بالنسبة إلى ويمسات ليس بالملتبس، أو قُل، برأينا، هو الملتبس الظاهر، في حين أنّ النيّة المضمرة هي غير ذلك، نظراً إلى أنّها صادقة، أتت في لحظتها كتابياً كما أتت في لحظتها ذهنياً. وذلك أفضل من التنقيح الذي قد يحدّد المقصد، ولكنّه قد يشوّه أصالةَ النيّة. فالكاتب، بالمراجعة التنقيحية *(By revision)*، قد يُنجز بشكلٍ أفضل نيّتَهُ الأصلية [...] لقد رمى إلى أن يكتب عملاً أفضل [...] والآن أنهى ذلك. إلّا أنّ ما يستتبع ذلك هو أنّ نيّته المحسوسة السالفة ما كانت لتكونَ نيّتَهُ *(His former concrete intention was not his intention)*[2].]

[إذاً هذه الالتباسات هي فعلاً التباسات، سواء في النيّات أو في مادّة فعل الكتابة. لكن، من دون إمبسون، مَن كان ليُدرك أنّ في ما يلي التباساً؟

لمنع انتشار التهاب الرّئويّ الغامض من المهمّ جدًّا أن يبقي

---

(1) Ibid., p.155.

(2) Wimsatt, Ibid., p.5.

المرحاض نظيف . واستخدام المعقمات المنزلية على الأقلّ مرّة كلّ يوم (بخلط 1 جزء من المعقم ب99 جزء من الماء)؛ كلّ مستخدم مرحاض ينبغي أن يهتم بالنّظافة الشّخصيّة الجيّدة[1]

فعنده نقطةُ التضارب *(Point of the paradox)* هي أيضاً ادّعاء الاختلاف داخلَ لفظٍ مُكرَّس لوحدة *(Difference within a term dedicated to unity)*– يعطي مثالاً «جزء منّي مثُبت فيك...»[2].

وتيمّناً بذلك المثال، نعتبر أنّ لفظَ «خلط» هو لفظُ الوحدة التي جمعت بين جزأين هما المعقّم والماء، بحيث اختلط 1 % مع 99 % مكوّنَيْن بذلك 100 %، أي الوحدة. الالتباس لا يبدو عند القول في حدّ ذاته، بل بعد تنفيذ الخلطة، حيث لا يعود ممكناً تمييزُ المعقّم من الماء، خصوصاً أنّ نسبة 1 % قليلةٌ جداً كي يصار إلى معاينتها إلّا بأدوات متطوّرة– وحتّى هذه الأدوات قد لا تعطي فعلاً نسبةَ 1 % بل ما هو تقريبيٌّ لها. عليه، بات الماء معقّماً، والمعقّم ماءً؛ لأنّ واحدهما بات في الآخَر. ʃ

15. ʃمعنى الشعورʃ

ʃ كلّما دقّ ناقوسُ الشعور، كان القارئُ أمامَ لقاء مع المغالطة العاطفيّة *(Affective fallacy)*.

---

(1) ماذا يعني الالتهاب الرئوي الغامض (SARS)؟، لا كاتب في المدوّنة، التباس المرجع، أي التباس التعريفات بكاملها.

(2) Empson, Ibid., p.179.

لم يحصل قط في تاريخ فرنسا الإعلامي أن يحدث برنامج تلفزيوني هذا القدر من الإثارة والسحر والاضطراب والضياع والعصبية والغضب مثل ما يحدثه منذ 26 نيسان/ ابريل[1]

هو تعريف عن برنامج تلفزيونيّ بعنوان «لوفت ستوري»، لكنّه تعريفٌ عن طريق المشاعر. إنّه تالياً تعريفٌ ملتبس بواقع الحال. فكيف إذا كانت هذه المشاعر في ثنائيّات متآلفة (إثارة≃سحر؛ اضطراب≃ضياع؛ عصبية≃غضب) ظُنّ أنّها وحّدت التعريف، إلى حين اكتشاف تنافرُ الثنائيّات بعينها (إثارة+سحر ≠ اضطراب+ضياع ≠ عصبيةّ+غضب)؟ من هنا فعدم ثبات الشعور هو عدم ثبات الحقيقة التعريفيّة. ونتساءل أيضاً: وكيف بالحريّ إذا كان أحدُ هذه المشاعر التباساً بحدّ ذاته، لا بل التباساً مكثّفاً (ضياع+اضطراب=ضياع×2)؟ عند إمبسون، هذا الشكل من الالتباسات قد ينقل تشكيلةً من المشاعر حول الموضوع بين يدينا[2]. وإذا ما كان من ريتشاردز إلاّ أن قال رابطاً التعميم بالتخصيص: بالطبع انّ واحدنا يجب أن يحكم على نموذج ما بالانفعال. الانفعال في النموذج قويّ وصادق[3]، فالحكم ملتبس إلى أجلٍ غير مسمّى... ، خصوصاً أنّ ويمسات اعتبر أنّ الفرق بين المعادلات الانفعاليّة القابلة للترجمة *(Translatable emotive formulas)* وتلك الأكثر فَضْفضةً

---

(1) انياسيو رامونه (Ignacio Ramonet): الأخ الأكبر، العالم الدبلوماسيّ، 6/ 2001.

(2) Empson, Ibid., p.99.

(3) Richards, Ibid., p.56.

نفسياً وفيزيولوجياً *(More physiologically and psychologically)* هو نظرياً ذو أهميّة كبرى[1]. ألا ترى أنّ من بين الانفعالات *(vague)* الستّة (الاثارة والسحر والاضطراب والضياع والعصبية والغضب)، جُعِلَ الانفعالان الثالثُ والرابع في موقع الوسط، ليكونَ كلٌّ من الانفعالين السابقين والانفعالين اللاحقين متأثِّراً بذوبانه بالانفعالين الوسطيّن اللذين لا يدلّان على شيء محدّد (الاضطراب والضياع)؟ فاللذان يَسبقان تَخفتُ خصوصيتُهما بذوبانهما في اللاتحديد، كما انّ اللذين يليان لا يَسطع نجمُهما بسبب بقاء القارئ في تأثير أفق اللاتحديد.

كيف نحلّ المسألة؟ يزعم رانسوم: المشاعر هي إجمالياً لامَفْصِلية *(Inarticulate)* فيما لو حاولنا استخلاصها [...] علينا أن نُعنى بموضوع النصّ، وندع المشاعر تهتمّ بذاتها[2]. فانطلاقاً من هنا، لا يعود الانفعالُ الملتبس في ذاته، أو كثرةُ الانفعالات المختلفة التي تُحدث التباساً لكثرتها واختلافها، هما اللذين يشكّلان الأمرَ ذا الأهميّة القصوى. فالمعنى الأصيل للموضوع هو أنّ هذا البرنامج التلفزيونيّ استثنائيّ ومتميزّ - سواء إيجاباً أو سلباً -، ومن هناك، لا يعود همّنا أن نتعرّف إلى الانفعالات التي يثيرها هذا السلبُ أو ذاك الإيجاب؛

---

(1) W. K. Wimsatt & Monroe Beardsley: The Affective Fallacy, The Verbal Icon (Studies in the Meaning of Poetry), Lexington, University of Kentucky Press, 1954, p.353-354.

(2) Cf. Ransom: Ibid., p.454.

فالانفعالات الستّة المذكورة ليست هي التي بغرض التعريف الكامل، ولا هي الوحيدة في هذا الصدد. بل يمكن للقارئ أن يتصوّر الشغبَ، والتأثيرَ في المراهقين، والجنونَ، واتّباعَ شريحة كبيرة من الناس مظاهرَ البرنامج، وتقليدَ الأولاد أو النساء ملابسَ الإعلاميّين...

لا بل إذا تبعنا رأيَ ويمسات في أنّ المغالطة العاطفية هي تَشوُّش بين [النصّ] ونتائجه *Confusion between the [text] and its results)*، بين ما هو وما يفعل [...] حالةٌ تبدأ بمحاولة اشتقاق ثابت النقد من تأثيرات النصّ النفسية، وتنتهي في الانطباعية [...] حتّى إنّ النصّ عينه كموضوع لحُكم نقديّ مخصوص، يتوق إلى الاختفاء[1]، فإنّ هذا الجزء من النصّ يُعتبر غير موجود بالأساس، ولا داعيَ للعمل على الحكم عليه!

وإذا تبعنا حُكمَ ريتشاردز على أحد النصوص: لا يوُقظ فيَّ انفعالات. أنا أفهم ما يقول ولكنّي لا أشعر باهتمام إزاءه[2]، فغالبيةّ النصوص الطبيّة، وهي موضوعيةٌ بعيدة كلّ البعد عن الذاتية، ستسقط!

16.] التركيب والمنطق=الإيقاع+النحو: الحُكم بالشكل [

[إذا كان عند إمبسون أنّ المخطَّط العروضيّ يفرض على النحو نوعاً من شدّة التأويل *(Intensity of interpretation)*...[3]،

---

(1) Wimsatt,Ibid., p.345.

(2) Richards, Ibid, .p.148.

(3) Empson, p.28.

ففي النثر نموذجٌ صوتيّ يعادله. وعليه، ففي أيّ نوعٍ من النصوص هذه مغالطة؛ إذ في نصٍّ طبيّ:

أسباب غير معروفة(أولية): أحياناً لا يوجد أي سبب معروف وخاصة في النساء ذوات العمر المتوسط، ويعاد الفحص الموضعي والمنطقي والعام بشكل مستمر حتى لا نهمل إصابة بدئية أو مخفية ويجب أن نبحث باستمرار حتى نجد السبب[1]

تأثّر بريتشاردز القائل إنّ جناس الصوامت الصوتيّ في النموذج *(Alliteration)* هو فعّال جدّاً ويعطي واحدَنا فكرة حول فكرة ما[2]. وتصبح فعّاليةُ صوت السين التي تبدو معزِّزةً للعنوان الفرعيّ (أسباب...)، هي في الواقع مؤثِّرةٌ فيه بشكلٍ ضديّ، إذ إنّ سيرورة الصوت في تكراره (سبب+النساء+المتوسّط+مستمرّ+استمرار+ السبب)، بما في ذلك من تكرار للكلام أو تضعيف للحرف، تعني المواظبة على إيجاد السبب، كما أنّ الصوتين الشبيهين المرافقين الثاء (نبحث) والصاد (خاصّة+الفحص+إصابة) يتأرجحان بين صعوبة المرض المستعصي وخشونته لخشونة الصاد المتكرّرة، وبين احتمالِ جعلِ ثقله خفيفاً على المريض عند اكتشافه، وهو أمرٌ نسبتهُ قليلة لورود الثاء مرّةً واحدة لا غير. فهل بقيت هكذا الأسبابُ غير معروفة، أو بات المتنُ يشير إلى احتمال معرفتها؟ لقد أثّرت الأصوات في المحتوى،

(1) نبيل نذير الوتار: وذمات الأجفان، العالم الدبلوماسيّ.

(2) Cf. Richards, Ibid., p134.

وقوّت من قيمة احتمال الشفاء، فإذا كان المحتوى يشير إلى نسبة ضئيلة منه، والعنوانُ يستبعدُه، جاء الصوت ليؤكّد حصولَ الشفاء بعد الجهد.

ولئنْ كان هذا النموذج هو الفقرة الأخيرة من النصّ، فإنّ تأثيره كان التأثيرَ الأقوى لأنّه النهائيّ. وعلى قول ريتشاردز: لن أنزعج البتّة بشأن المعنى [تعريف الأسباب]؛ الصوت يكفيني [(1)]. الصوت يريح المريض. أقلّه هو يشعر بالأمان. يتحوّل المضمون إلى شعور، فيُحوِّزُ المريضُ المعنى مع أنّه ليس غريباً عن المعنى المقصود، إلّا أنّه يساعده على تضخيم الناحية الإيجابية منه. وكما الأصوات منظّمة، لتدرّجها وتماسكها، هكذا يبتعد القارئ من التوتّر النفسيّ المشتّت. فعند ريتشاردز أنّ صوت كلمة ما له بكلّ وضوحٍ الكثيرُ مع الشعور الذي يثيره، إذا ما ظهر في سياقٍ منظّم *(Organized context)* ... [(2)]]

[هذا الالتباس النمطيّ معنى-شعور يمكن أن ينسحب على نصٍّ آخر من دون النظر إلى محتواه بعد الآن! فتأثيرات الافتراضات التقنيّة *(Effects of technical presuppositions)* يجب أن تُدوّن. متى كان ثمّة شيءٌ قد تمّ مرّةً بطريقة جيّدة ويتشكّلُ ما، فإنّنا نتوق إلى توقُّع أشياء مماثلة سوف تتمّ في المستقبل بالتشكّل عينه، وهي مُخيِّبةٌ أو لا نتعرّفُها إذا تمّت بشكلٍ مغاير [...] كلّ مرّة نرمي إلى الحكم على النموذج من الخارج عبرَ تفصيلاتٍ تقنيّة، فإنّما نحن نضع الموارد قبل الخواتيم،

(1) Ibid., p.49.

(2) Ibid., p.209-210.

وهذا هو جهلُنا للسبب والتأثير في النموذج [...] علينا أن نتحاشى الحكم على عازفي البيانو من خلال شَعرهم[1].

ففي هذا النموذج ذي العنوان «ارتفاع ضغط الدم البدئي»:

معظم المرضى المصابين بارتفاع ضغط الدم لديهم هذا النوع منه، الذي هو مجهول السبب وهو يسمى أيضاً ارتفاع الضغط الأساسي أو المجهول السبب، ويعتقد أن عوامل متعددة تساعد في تطوره غير أن السبب المباشر غير قابل للتحديد عند مريض معين[2]

نجد أنّ السين أيضاً تكرّرت (السبب+يسمّى+الأساسي+السبب +تساعد+السبب)، وهي أيضاً مضاعفة في كلمة، كما جاءت في كلمة متكرّرة (السبب). إذاً، قياساً على التقنيةَ السابقة، يفْترض أن يكونَ البحثُ عن السبب بشكلٍ مستمرّ. وأمّا الصاد فبذكرها مرّةٌ واحدة لا غير (... المصابين)، فهذا يعني أنّ صعوبة المرض تنتفي بسرعة، وأنّ المرض غيرُ مُستعصٍ، ويرتاح المريض أكثر متى تأكّدَ أنّ صوت الثاء يجب أن يغيب لأنّ الصاد أصلاً خجولة، فلا داعي بعدُ لتأكيد خفّة المرض بالثاء، ما دام هو غيرُ ثقيل. بيدَ أنّ هذا الافتراض التقنيّ أوقعَ المريض في التباسٍ دلاليٌّ كبير، إذ إنّه تعارضَ مع واقع المحتوى، حيث هذه المرّةَ السببُ مجهولٌ كلَّ الجهل (مجهول السبب+أو المجهول السبب+السبب غير قابل للتحديد). هو إذاً مستعصٍ، بشكلٍ

---

(1) Ibid., p.17.

(2) مازن اللجمي: ارتفاع ضغط الدم، العالم الدبلوماسيّ.

عكسيّ تماماً عمّا كان المريضُ قد اعتقده. كما نلفت إلى أنّ النتيجة التي توصّل إليها المريض من حُكمه بالافتراض التقنيّ غير ملائمة للعنوان الفرعيّ أيضاً. وهذا التباسٌ جديد بين العنوان ومحتوى الفقرة حيث لا إشارةَ البتّة في العنوان إلى استحالة الشفاء أو حصوله.

هل يفقد المريضُ تشكُّلَ الحكم على النماذج بناءً على نتيجة التواتر الصوتيّ الأوّل؟ في الواقع، لو قرأ هذا النموذج، وكان قد حرّمَ على نفسه الحكم على النموذج من خلال افتراضٍ تقنيٍّ مسبق، إذ إنّ صدمةَ إخفاقه في الحكم السابق قد أثّرت فيه نفسياً فبات عنده «رُهابُ الافتراض التقنيّ»، على أنّ صدمةً واحدة قد تُلغي نجاحاتٍ كثيرةً لحكمٍ مماثل، فإنّه سيكون على خطأ، إذ إنّ تطبيقه التشكّلَ التقنيّ الأوّل الناجح سينجح أيضاً لو أعاد الكرّة على أرضيّة هذا المقطع من النصّ عينه:

ارتفاع ضغط الدم الثانوي

يسمى ارتفاع ضغط الدم ثانوياً عندما يكون من الممكن تحديد سبب مباشر له، وأكثر أسبابه شيوعاً هي أمراض الكليتين أو الأمراض الأخرى التي قد تؤثر على وظيفتهما. هناك أمراض أخرى قد تؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم الثانوي إذا تم علاج المرض المسبب بشكل تام، فإن ارتفاع ضغط الدم يمكن أن يشفى كما أن هناك بعض الأدوية التي

يمكن أن تؤثر سلباً على ضغط الدم، مؤدية إلى ارتفاع ثانوي فيه[1]

فالسين والسبب موجودان (يسمّى+سبب+أسبابه+المسبّب+سلباً)، ولا وجودَ للصاد، بل الثاء وحدها بكثرة هذه المرّة في كلمات متكرّرة أو في حرف مضاعف، ما يعني أنّ ثقل المرض سيتبدّد بسهولة، ما دام المرض غير مستعصٍ (ثانوياً+أكثر+تؤثّر+الثانويّ+تؤثّر+ثانويّ). وبالفعل إنّ توليفة الصوت-المعنى-الشعور هي متماسكة: فما اعتقده المريضُ حولَ الصوت هو ما جاء فعلياً في المعنى، خصوصاً أنّ الحلّ مباشرٌ وغيرُ مخفيّ وممكن: من الممكن تحديد سبب مباشر له+أكثر أسبابه شيوعاً..+إذا تمّ علاج المرض المسبّب بشكل تامّ=إمكانية معالجته+يمكن أن يشفى.

لو طبّق المريضُ رُهابَه من الافتراض التقنيّ، لَضيّعَ فرصةَ التأويل النفسانيّ الصائب؛ ولو طبّق ثقتَه بالتوصّل إلى نتيجة مماثلة للمرّة الأولى، غيرَ معتبِر أنّ أيّة نظريّة لابدّ من تركِ نسبة للغلط فيها، لوقعَ في ما أسماه ريتشاردز «الإيقاع الجاهز *(Stock rhythm)*» الذي قد يؤتى به بسهولة الإتيان بفكرة جاهزة *(Stock idea)*...[2]]

[ننتقل الآن إلى التشكّل النحويّ، ولم يُهمل إمبسون قيمتَه حتّى في المقالات المسطّحة أسلوبياً: لقد اختزلَت الانكليزية [فكيف المنقول منها إلى اللغة العربية؟] التي يتكلّم بها المتعلّمون، قواعدَها في

---

(1) مازن اللجمي، المصدر نفسه.

(2) Richards, Ibid., p.243.

السنوات الأخيرة بدرجات هائلة [...] إلاّ أنّ هذا التسطيح الصحفيّ لا يعني أنّ الكلمات لها معانٍ بسيطة، أنّ الكلمة هي مستعمَلة فقط لتمثّل كتلةً فضفاضة ومعقّدة من الأفكار والأنظمة التي ليس للصحافيّ الوقتُ ليعيَها..»[1]، فالالتباسات يمكن أن تتفشّى في درجة الخربطة المنطقيّة أو النحويّة (Degree of logical or grammatical disorder)، الدرجة حيث تفهَّم الالتباس يجب أن نكون واعين إزاءه»، ودرجة التعقيد النفسيّ المعنيّ (Degree of psychological complexity concerned)[2].

من هنا فدراسةُ الروابط المنطقيّة، والتركيب المنعكس على المعنى، وتبسيطُ النموذج قبل فهم تركيبه، من الأمور الضروريّة؛ تصوّروا أنّه في مدوّنة النصوص الطبيّة جميعاً، وردت أداة الربط المنطقيّة للاستنتاج «هكذا» مرّة واحدة! كيف لا تكون النصوصُ العلمية غيرَ ملتبسة إذاً؟ وعموماً، على أيّ منطق علميّ بُنيت، والاستنتاجُ فيها ضعيف؟:

أما الحول غير الشللي فتكون حركة العينين فيه حرة غير محددة رغم وجود الحول مثل الحول الخلقي أو الحول الناجم عن خلل في الانكسار مثل مد البصر أو حسر البصر والذي قد يؤدي إلى ما يسمى بالحول الأنسي عندما تنحرف العين إلى الداخل أو الحول الوحشي عندما تنحرف إلى الخارج.

---

(1) Empson, Ibid., p.236.

(2) Ibid., p.48.

أول مايجب على الطبيب المتخصص عند فحص مريض الحول هو ما اذا كان هذا الحول حقيقياً أم أنه حول كاذب. ففي الحول الكاذب يوحي الشكل الظاهر للعينين بوجود الحول، ولكن الطبيب يكتشف بعد إجراء الفحوصات اللازمة أن العينين سليمتان، وأن المريض يرى بهما بصورة متوازية. وقد يكون الحول الكاذب نتيجة لكبر أو صغر فتحة العين أكثر من المعتاد، أو أن المسافة بين مركزي الحدقتين في العينين أصغر أو أكبر من المعتاد أيضاً، ولا تحتاج حالات الحول الكاذب لأي علاج وقد تختفي تلقائياً لدى الأطفال عند بلوغ سن السابعة أو الثامنة من العمر، وقد تبقى أيضاً مدى الحياة، وفي كل الأحوال فهي لا تحتاج إلى علاج معين[1].

إذا كان «ما يجب أن تعرفه عن الحول» لن تعرفه لأنّك لا تفهمه!، فإنّ عليك قبل كلّ شيء، تبسيطَه، بمعنى البحث عن معنى مصطلح في قاموس (الانكسار≠الكسر بل *Refraction* في الفيزياء البصرية؛ الحول الأنسيّ=؟)، أو تجزيء الجمل إلى ملفوظات بغيةَ تفهُّمِ كلٍّ منها على حدة كخطوة أولى، وهذا ما سنقوم به في الفقرة الأولى:

الحول غير الشللي تكون حركة العينين فيه حرة غير محددة/ وجود الحول مثل الحول الخلقي أو الحول الناجم عن خلل/ الانكسار (معنى القاموس لدعم الفهم السياقيّ=مثل...) مثل مد البصر أو حسر البصر/ الحول الأنسي (الاستزادة من معنى القاموس لدعم

(1) ناهل فؤاد القره: ما يجب أن تعرفه عن الحول، العالم الدبلوماسيّ.

الفهم السياقيّ=عندما...) عندما تنحرف العين إلى الداخل/ الحول الوحشي عندما تنحرف العين إلى الخارج .

لقد فصّلْنا منظومة التعريف الأكبر إلى عناصرَ تعريفيّة كلٌّ منها يبدأ بعد الخطّ المائل مباشرةً. منظومةُ تعريف «الحول غير الشلليّ» تمرّ بفهم التعريفات الجزئيّة هذه. ولكن بعد فهم كلٍّ منها على حدة، أي باعتبارات إمبسون، بعد هذا التبسيط، لا يزال عليك تأويل الجملة كوحدة تركيبية *(Interpret the phrase as a syntactical unit)*[1]؛ فنركّز على الروابط التي عليها الآن أن تعود لتحلّ محلّ الخطوط المائلة لتجمع بين الملفوظات من جديد، ولكنْ على قاعدة استيعابية جزئيّة هذه المرّة، لتصيرَ قاعدةً استيعابيةً كليّة، كروابط التعارض ومنها «رغم»، وحروف الجرّ ذات سمة التخصيص ومنها «في»، وحروف التخيير للاستزادة في الأمثلة ومنها «أو»...

بما أنّ الروابط سليمٌ استخدامُها، استطعنا فهمَ النموذج بعد تشريحه وإعادة هيكلته. إلّا أنّ الاسم الموصول «الذي»، وبسبب أنّه سُبق بواو (والذي)، فإنّنا ما عدنا نعلم أهو يعود إلى الانكسار أم إلى حسر النظر. الأرجح أنّه عائد إلى الانكسار، ولولا الواو لَتأكّدت إحالتُه إلى حسر البصر. المشكلة ليست بكبرى بالتالي. ولكنْ ماذا لو كان النصّ بسيطَ اللغة لا يحتاج إلى تشريح، فيما الروابطُ المنطقيّة لم تُستخدم استخداماً منطقياً؟

(1) Empson, Ibid., p.91.

ومن الأعراض الشائعة كذلك لدى الأطفال المصابين بالحول هو اتخاذ الطفل لوضعيات مختلفة برأسه في اتجاه معين لكي يستطيع توجيه العين المصابة بالحول في الاتجاه المعاكس، فيتمكن بذلك من رؤية الأشياء بصورة متطابقة ويتخلص من رؤية الأشياء مزدوجة، وخطورة ذلك أنها تؤدي على المدى الطويل إلى تشنج في عضلات الرقبة ويكون العلاج عسيراً إذا أهملت الحالة[1].

ففي هذا المقطع ما من كلمة صعبة، والملفوظاتُ مقسّمة أساساً إذ يبدو كلٌّ منها مفصولاً عن الآخر، والتوازي التركيبيّ التضاديّ مساعد (يتمكّن من رؤية الأشياء بصورة متطابقة/ يتخلّص من رؤية الأشياء مزدوجةً)، إلّا أنّ حرف الواو استُعمل أربع مرّات، كلٌّ بشكلٍ مختلف، بعكس الشائع الذي هو واو العطف كما قد يظنّ القارئُ السطحيُّ لا بل العاديّ، ما يجعل التعريف ملتبساً عليه: (ومن الأعراض الشائعة...=واو الاستئنافية؛ ويتخلّص... =عطف؛ وخطورة ذلك=لكن خطورة ذلك=تعارض واستدراك لحالة سلبيّة بعد حالة إيجابيّة؛ ويكون العلاج عسيراً إذا...=إذاً يكون ...=استنتاج)؛ ألَم ينبّه إمبسون إلى أنّ الكلمة «و» قد يمكن أن تكون «إذاً» أو «لكن»، وأنّ هذه الأشكال اللغويّة هي الأنسب للتشديد على شكلٍ ترابطيّ غير محدَّد بين الكلمات، ويتيح لك ببساطة أن تعبر من شكل إلى آخر[2] ؟!

(1) ناهل فؤاد القره، المصدر نفسه.

(2) Cf. Empson, Ibid., p.88.

[بعيداً من النماذج الطيّبة، نلفت إلى نموذج تاريخيّ ايديولوجيّ نواتُه فعلُ القول، ويجعل ريتشاردز من هذا الفعل قضيةً حين يذكر أنّ الفعل «يقول» *(To say)*، عندما يُستخدم للنصّ، هو دوماً ملتبس. قد يكون معادلاً لـ «تواصَل»...[1]

«إنه يوم عظيم للعراق»، قال الجنرال الاميركي جاي غارنر فور نزوله في بغداد المدمرة والمنهوبة كأن ظهوره المهيب سيعني النهاية العجائبية لمشكلات بلاد ما بين النهرين التي لا تحصى.

هذا ليس صحيحاً، يقولون، بل المطلوب مقارنة هذه «المرحلة الانتقالية في العراق» بتجربة الجنرال ماك ارثر في اليابان بعد 1945 [2].

فقول الجنرال الأميركيّ هو ذو نبرة متعالية، تُثبتُها سخريةُ الكاتب من تعاليه الفارغ (كأنّ ظهوره سيعني النهاية العجائبية...=ظهوره المهيب (تعالٍ) لن يعني النهاية العجيبة (فراغ التعالي))، وقد يعني الكاتب أنّ الجنرال ينوي التواصل مع أتباعه؛ وقول الجماعة غير المتعيّنة (يقولون) يعني الزعمَ غيرَ المبنيّ على بيّنات، أو يعني الإلحاح في إثبات الرأي...]

---

(1) Richards, Ibid., p.295.

(2) انياسيو رامونه (Ignacio Ramonet): الأمبرياليّة الجديدة، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2003.

17. [الصورة بين التصوير والبلاغة والعِلْمية والتسخيف ونوع الخطاب]

[إذا كان التشبيه :

«مثل النار في الهشيم ذاع الخبر ما بعد ظهر الأحد 24 أذار/ مارس متخطياً جميع الحواجز والعوائق، منتقلاً عبر الهواتف الخلوية والكومبيوتر، وتولته النصوص والرسائل الألكترونية فاحتل موقعه على شبكات الانترنت العالمية ليفحم في النهاية المشككين الأكثر يأساً من إمكانية التغيير»[1]

على سبيل الاستعارات الانكليزيّة، ما هو بميت ولكنّه نائم، فهذا النائم *(Sleeper)* ينبغي أن يعالَج باحترام[2]. الإشكاليّة تقع في قول إمبسون نفسه، وكيفيّة انسحاب قوله على قول الكاتب؛ فالنار في الهشيم مشبَّهٌ به ميت، لأنّه شائع وقد أتى على هيئة مقولةٍ شعبيةَ كما هي؛ غير أنّ الصورة نائمة، لأنّ الناقد هو الذي يُخرج موتها من بين أنقاض السياق! فربطُها بمشبَّهٍ هو الخبر يجعل المرئيَّ مسموعاً، وبالتالي وجهَ الشبه ملتبساً، أي ليس سطحياً أبداً؛ وجعلُها في بداية القول يعني قلبَ التركيب التشبيهيّ ليصبح مقلوب التشبيه مع أنّه حافظ على عدم انقلابه في المحتوى، ما يجعل هذا الأخير مهمّاً

(1) آلان غريش (Alain Gresh): الرأي العام في السعوديّة (البدايات)، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2002.

(2) Cf. Empson, Ibid., p.25.

بما أنّه منتظَر بعدَ تشويق الصورة. أهميّة ذلك كلّه، أنّ الخبر الذي هو وظيفةٌ إخباريّة، بات مشابهاً للنار التي هي وظيفة جماليّة، وهذا إعتاقٌ من موت الصورة مرّة أخرى، إذ وجهُ الشبه التبس مرّة ثانية حين تداخلَ الموضوعيّ بالذاتيّ. والغريب أنّ التعريف، بدلاً من أن يكون في الجانب الموضوعيّ المعهود، أتى في الجانب الجماليّ، عن طريق التشابه: فمن خلال التشبيه، عرّف الكاتب بالمقولة الشعبيّة «النار في الهشيم» التي تُعادل مسار عناصر السياق الإخباريّ: ذاع = انتشار + التخطّي = القدرة + الانتقال= أهميّة الهشيم الذي يعجّل الاحتراق+عبرْ=قشّ الهشيم كشبكات التقنيّة الحديثة+إفحام=معنى يتضمّن صدى الفحم=صيرورة النتيجة الأكيدة.

وإذ أكملَ إمبسون أنّ للتشبيه استعمالين: الأوّل لإظهار أنّ شيئاً واحداً لديه أكثر أو أقلّ ممّا عند الآخَر من صفات؛ والثاني لإظهار أنّ الشيئين هما مقارَنان بالنسبة إلى هذه الصفة(1)، فلقد عادلْنا مسار العناصر في ركنَي التشبيه؛ ولكن هذا يفي بالغرض في التشبيه الزخرفيّ المستند إلى وجه الشبه. غير أنّه يبقى أن نسأل: هل النار في الهشيم هي التي قوّت معنى انتشار الخبر؟ وأيٌّ منهما هو الأقوى أساساً؟ وهل كنّا نعاين الخبر لنشهد ما إذا كان أقوى من النار المنتشرة، ما يعني أنّه ضعّفَ المشبّهَ به الذي هو أصلاً عليه أن يكون مركزَ القوّة فيقوى به المشبّهُ الضعيف؟!

---

(1) Ibid., p.117.

[يبد أنّ النار، كلفظة، لم تدخل ضمن نطاق خطابٍ طبيعيّ- بمعنى الطبيعة، ولذلك فتعريفه لم يكن شائعاً وإن كانت عناصره تبيّن هذا الشيوع بالتشابه؛ فالنتيجة شائعة، ولكنّها أُخذت عن طريق المقارَبة غير الشائعة بين خطابين طبيعيّ-تقنيّ، ما جعل رُكنَي التشبيه المشبَّه والمشبّه به هما خطابين أكثر ممّا هما عنصران، فكان وجهُ التشبيه معلوماً بتداخل نوعَي الخطاب. لاحِظ كيف أنّ صورة النار ليست النار، لأنّها أداة تصويريّة داخل نصٍّ إبلاغيّ. فكما يكون الالتباس أخفَّ وطأةً فيما لو حلّلت الجملة حول القطّة داخلَ محاضرة عن علم التشريح[1]، هكذا النار تُفهم أكثر في سياق خطابها الطبيعيّ. من الخطابات الطبيعيّة للنار الخطابُ الحربيّ:

وفي حين يؤدي تصاعد الانتفاضة ومعها القمع الاسرائيلي إلى شلّ جميع الجهود الآيلة إلى وقف فعلي لإطلاق النار[2] حيث حقلٌ معجميّ للحرب يغطّي نوع الخطاب: انتفاضة+قمع+إسرائيل+إطلاق+حرب؛ حتّى اسم العلم «إسرائيل» بات من كلمات الحقل المعجميّ لارتباطه رمزياً ومباشرةً بآلة الحرب. وبالربط بين هذا النموذج وسابقه، نفهم سبب كلمة «وقف» التي تُلغي النار: فقبلَ الوقفِ انتشارٌ، والجهود هي بسبب عجلة الاحتراق، والقمعُ هو شبيه الفحم كنتيجة سوداء متجمّدة لا حياةَ لحرارة الأجسام فيها.]

(1) Cf. Ibid., p.6.

(2) بول-ماري دولا غورس (Paul-Marie de La Gorce): منطق الحرب في الشرق الأوسط، العالم الدبلوماسيّ، 9/ 2001.

أ في هذا المثال:

فان السيد اسامة بن لادن وتنظيم «القاعدة» «قادران على الفوز في الحرب الحالية اذا تمكنا من حيازة الأسلحة الكيميائية أو النووية». فصار منعهما من ذلك، الهدف الأول للولايات المتحدة وحلفائها. كما أنه يجدر بحسب المنظّرين خوض الحرب بطريقة مختلفة، بطريقة حرب الشبكات أو Netwar.

يعرف الجميع الدور الحاسم الذي لعبته في أفغانستان الوحدات الصغيرة من القوات الخاصة الاميركية والمتصلة لاسلكياً بالقاذفات القادرة عند الطلب على إغراق الأهداف المتحركة بطوفان من النار[1]

النار في سياقها الطبيعيّ الحربيّ، ومع ذلك هي تدخل في نظام صورة: استعارة «طوفان من النار». الجامع بين المستعار والمستعار له هو الانتشار والعجلة. ولكنّ الالتباس سببّه الجامعُ المركّب من تداخل عنصرين متضادّين هما الماء والنار. حين قال ريتشاردز: الخليط *(Mixtures)* في الاستعارات وفي الصور الأخرى سيعمل جيّداً متى كانت المكوّنات المخلوطة قد حافظت على فعاليّتها، ولكن ليس متى يدعونا مثلُ هذا الانصهار إلى أن تُلغيَ الأجزاءُ العديدةُ واحدُها الآخر [...] على الخليط ألّا يكون من قَبيل النار والماء...[2]، فإنّ الاستعارة من هذا النوع بائدة! إلّا أنّها عندنا استعارةٌ ناجحة لأنّها جمعت بين

---

(1) فرنسيس بيزاني (Francis Pisani): عقيدة عسكريّة أميركيّة (حرب الشبكات ضدّ عدوّ منتشر)، العالم الدبلوماسيّ، 6/ 2002.

(2) Richards, Ibid., p.196.

المتضادّين كمتآلفَين. ولئنْ ذاب الماء في النار، أو النار في الماء، أي تبخّرَ الأوّل وانطفأ الثاني، إلّا أنّهما، في الصورة، قد تساندا. إذاً في الخطاب الحربيّ كانا ليُلغي واحدُهما الآخر، غير أنّ الخطاب الجزئيّ الجماليّ الذي لم يُلغِ الخطاب الإبلاغيّ الحربيّ لَهو صورة عن العنصرين اللذين زاد واحدُهما من قوّة الآخر في الصورة الجماليّة الواحدة ليعكسا خطاباً حربياً شديد القوّة والخطورة، وهذه هي الفعاليّة المرتقَبة.

لا بل أكثر من ذلك. إنّ ريتشاردز لا يجعل التباسَ الاستعارة متوقّفاً على التعاكس، بل إنّه يقوم باستغبائها، أي تسطيحِها إلى حدٍّ عدم اعتبارها صورة، وعدم التعامل معها كصورة. هو ينسى أنّها صورة، فيَسقط عنها المنطقُ حُكماً، وتصير بواقع الحال مرفوضة: [هذا] ليس صحيحاً [...] ما من أحد قد يكون مغفّلاً إلى هذا الحدّ ليخلط الثلج بالنبيذ[1]! وهكذا: إنّ الغباء الأكبر، بمنطقه، أن يكون الطوفان المائيُّ من نار! إنّ هذا التقزيم نافع للنصّ الإبلاغيّ، ويحيّد المقالة عن الذاتيّة. ولكن، تصوّروا أنّ كلام ريتشاردز هذا هو بالحقيقة في مقام الكلام على الشعر!

كيف نوازن بين استغباء الصورة بحرفيّتها، واستحسانِها في ذاتها، جماليّاً؟ باعتبارها مع ريتشاردز نفسه استعارةً انفعاليّة، لا استعارة معنى، أي برفع درجتها كقيمة جماليّة في حيّزها الجماليّ الصغير،

---

(1) Ibid., p.122.

بدلاً من إذايتها في مقام النصّ الإبلاغيّ، وجعلها حرفيةً لتتماشى والإبلاغيةَ: وفي الغالب، إذا نظرنا عن قرب، فالاستعارة تنتهي بشكلٍ قاطع ليس إلى أن تكون استعارةَ نثرٍ أو معنى *(Sense metaphor)*، بل إلى أن تكون استعارة انفعاليةً *(Emotive metaphor)* [...] الاستعارة هي تحوّل، إعمالُ كلمة من استعمالها العاديّ إلى استعمالٍ جديد. في استعارة المعنى، تحوُّل الكلمة هو مسوّغ بتشابه أو تماثل بين الشيء الذي تُطبَّق عليه، والشيء الجديد. في الاستعارة الانفعاليّة، يَظهر التحوّل عبرَ بعض التشابه بين مشاعر الوضع الجديد، والوضع العاديّ. الكلمة عينها قد تكون، في سياقات مختلفة، استعارةَ معنى أو استعارةً انفعاليّة. إذا دعوت رجلاً ما خنزيراً، فربّما لأنّ لديه ما يشترك فيه مع الخنازير، أو لأنّ لديك إزاءه بعضَ شعورٍ ممّا لديك إزاء الخنازير[1].

فربّما كان الكاتب لا يودّ استعارةَ الطوفان للنار، أو النار للطوفان، بقدْرِ ما كان يُبدي في لاوعيه الكامنِ صورةَ الخوف من طوفانٍ أو نار؛ أفَلا يمكن أن يكون لديه رُهابُ المياه الغامرة، أو الإحراق، فجمعَ في صورةٍ بيانيّة واحدة ما يجزع منه، وهو من قَبِيل جمع عنصرَي اللاوعي، بدلاً من اعتبار تنافيهما في الوعي العلميّ؟[

[إنّ القمع لفظٌ ليس قليلاً تكرارُه في الخطابات الأيديولوجيّة. وهو دوماً مرتبطٌ بمبالغة تصويريّة ما، لإظهاره على المستويين المعجميّ والتصويريّ كي يكون الكلامُ محسوساً حيّاً. وإذا كان على صورة

---

(1) Ibid., p.221-222.

تشبيه أو استعارة، فكلاهما مبالغة (نار في الهشيم؛ طوفان من النار)، ما يمكّننا من الاستنتاج أنّ المبالغة والتصوير هما الصيغة المشتركة لصورة القمع وانفجاره اللاحق. ألم يدّعِ ريتشاردز أنّه من السهل تبسيطُ نظرية نحوية للاستعارة، المبالغة.. واللغة التصويرية...[1]؟

على الرغم من ضراوة القمع الذي أوقع حتى الآن حو إلى ستين قتيلاً، فإن ثورة المواطنين الغاضبين آخذة في الاتساع في الجزائر. وكانت بدأت في 18 نيسان/ ابريل في منطقة القبائل إثر مقتل طالب شاب على يد رجال الدرك، يحمل اسماً ذا دلالة رمزية هو ماسينيسا[1] غرماح. لا عجب أن تنطلق هذه الثورة الجديدة من منطقة متميزة بثقافتها ومتمردة في تقاليدها. فهنا حدث عام 1871 التمرد القبائلي الكبير الذي أغرق بالدم على يد الجنرالات الفرنسيين أنفسهم الذين سحقوا كومونة باريس... هنا أيضاً دارت بين 1945 و1962 أهم معارك حرب الاستقلال، وهنا تجلى القمع الاستعماري في صوره الأكثر شراسة. وهنا أيضاً انفجرت في 20 نيسان/ ابريل 1980 خلال «الربيع البربري» التظاهرات الطالبية التي طالبت بالاعتراف بالثقافة الأمازيغية وكان نصيبها القمع الوحشي...[2]

إنّ كلمات مثل «ضراوة، الدم، سحق، معارك، شراسة، وحشي» هي شبكة معجمية لخطاب الغابة! واقتران سياقها بسياق كلمات مثل

(1) Ibid., p.193.

(2) اناسيو رامونه (Ignacio Ramonet): بلاد القبائل، العالم الدبلوماسيّ، 7/ 2001.

«ستّين قتيلاً أغرق، أهمّ، الأكثر، انفجرت» يجعل هذه الشبكة مبالَغاً فيها. وإنّ اقتران الجانبين بكلمات مثل «ثورة، آخذة في الاتّساع، تنطلق من، تمرّد كبير، انفجرت» يجعل الصورة بكاملها صورةَ نار، وهي مسبّبةٌ الانتشار والانفجار، والتمرّد الذي يذكّرنا بإبليس الذي بتمرّده المستكبر على ربّه بات رمزَ جهنّم مصير النار. تلك المبالغة بجوانبها جميعاً، نوى الكاتب أن نتلقّفها صورةً (في صوره الأكثر شراسةً)؛ المبالغة [...] قد يكون ثمّة شكٌّ قليل في أنّ فهماً كاملاً لها هو ضروريّ لقراءة النموذج[1].

أرادنا الكاتب ألّا نتصوّر الوظيفة الإخبارية التاريخية بل أن نتصوّر الوظيفة التخيّلية التي تقرّبنا من الحسّ بالقمع وليس من مجرّد التعرّف إلى واقعته. يجعلنا مشاركين بالإحساس والمسؤولية بطريقة إدراكية غير مباشرة، حيث عصبوناتُ الدماغ تتشابك في اتّجاهات ثلاثة مترابطة لتتواصل مع المحتوى والمتكلّم وحتّى الشخصيّات المقتولة.

ولكنّ ريتشاردز يربط هذه الصُوَرِيّة الفعّالة *(Imagery)* بالتباس الاختلاف: بما أنّنا أمام صور مرئيّة، لم يكن مفاجئاً أنْ رأى المتخيّلون المختلفون رؤىً مختلفة[2]. الشعراء بكلّيتهم قد يصوَّب عليهم أنّهم ذوو قدرة استثنائية على التصويرية، وبعضُ القرّاء [...] يعيرون انتباهاً كبيراً لذلك، وحتّى إنّهم قد يحكمون على قيمة الشعر

(1) Richards, Ibid., p.64.

(2) Ibid., p.125.

[الجزء الأدبيّ من النموذج] من خلال الصور التي تثيرهم. إلّا أنّ الصور أشياء مغالطة شاذّة [...] وهنا مصدرٌ مُربك للانحرافات النقديّة *(Critical deviations)* [...] بعض الأذهان ليس بإمكانها القيام بأيّ شيء أو الوصول إلى أيّ مكان بدون الصور[1].

فهل نحكم على النموذج من خلال صورته؟ هنا، أجل، فهو معتمد على الصورة لفظاً (صوره) وتصويراً. ولكنّ الحكم نفسَه يبقى ملتبساً، لأنّه اختلافيّ: فمن القرّاء مَن يُحيل ذهنَه صوبَ غابة، أو صوبَ نار، أو صوبَ مِلك الغابة، أو صوب انفجارٍ فعليٍّ فظيعٍ، أو صوب اللون الأحمر المُراق، أو صوب مشهد تصفية الشعب... وحتّى إن كانت لدينا القدرة على اكتشافها وتشابكها جميعاً، إلّا أنّ الاعتماد على التصوير وحده قد يجعل المشاعر انفعاليّةً انحرافيّةً تَحيد عن غاية النصّ الموضوعيّة: من الغاية إلى الغابة!!

لإنّ هذا النصّ هو انعكاسٌ لنصّ ريتشاردز النقديّ: قد يبدو للبصَريّين أنّ الكاتب يعمل من خلال الصُورَيّة، ولكنّ هذا الانطباع هو مصادَفَةُ تكوينهم الذهنيّ، والناسُ ذوو تكوينٍ مختلف لديهم طرائق أخرى لبلوغ النتائج عينها. البصَريّون، على أيّ حال، معرّضون لخطرٍ من نوعٍ خاصّ. الصور الحيّة والدقيقة التي تَظهر قبلَنا، تدين الكثير من طبيعتها وتفصيلها لمصادرَ هي نوعاً ما خارجَ نطاق سيطرة الكاتب. استعمالُها كخيطٍ رفيعٍ مهمّ في نسيج معنى النصّ، أو الحُكمُ على النصّ

(1) Ibid., p.14-15.

من خلالها، لإجراء محفوف بالمخاطر [...] فاستحقاق النصّ ليس في صوريته[1]؛ وهو يمثّل خطر الاعتماد على الصورة فقط، من خلال أداة التعارض «إلاّ أنّ» ذات الوظيفة التنبيهية، التي ترمي إلى التمييز بين اللاوجود والصورة: فاللاموجود لا يعني أنّه صورة فحسب، بل هو الموجود غيرُ الفاعل، أي الصورة التي تُظنّ صورةً. أفتكون مثلاً صورةٌ متحركة، أي رسوماً متحركة؟ ومن هنا، هل حُلَّ التعارض بين اللاوجود والصورة عن طريق النكتة الضمنية؟ فالالتباس ذو النمط السادس بالأقوال غير المناسبة *(Ambiguity of the sixth type by irrelevant statements)* [...] ليس قولاً ذا تضمُّنات متنوّعة، وإنّما هو قول ذو تضمّنات متنوّعة تتصارع *(Various implications which conflict)* [...] بطبيعة الحال التناقض قابل لأن يُحَلّ، وحلُّه على شاكلة نكتة، على حدّ قول إمبسون[2] - لا وجود لدولة عالمية+مجموعة الثماني +يشبه نقابة للمساهمين:

ولأنه لا وجود لدولة عالمية [2] فإن مجموعة الثماني ليست حكومة عالمية، إلا أن هذا يجب ألا يحملنا على الاستنتاج أنها مجرد صورة، إذ هي تضم زعماء الدول المسيطرة، أي الأكثر غنى ونفوذاً في العالم في ما يشبه نقابة للمساهمين الذين يشكلون الغالبية في الاقتصاد العالمي[3].

---

(1) Ibid., p.235-236.

(2) Empson, Ibid., p.184,185.

(3) غوستاف ماسيا (Gustave Massiah): نادي الأغنياء الثمانية عرضة للانتقاد، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2003.

فمن الطبيعيّ أن تتصارع الأفكار التي من ناحية تجمع بين اللاوجود والصورة (مجرّد)، ومن ناحية تفرّق بينهما (إلّا أنّ). ومن الطبيعيّ أيضاً أنّ تحليلنا بهذا الخصوص ما هو بالتحليل الأمثل ولا الوحيد ولا النهائيّ. [

[في ما يلي اعتبار "لمثال «الذهب» الذي حلّله إمبسون في معرض توصيفه للالتباس ذي النوع السادس:

خطيرةٌ أكثر هي الصور التي مرجعُها كناية: لكن إضافة إلى تمركز الجزء الأكبر من الذهب الأسود هنا فإن لهذه المنطقة خصوصية أخرى وهي أن غالبية أهلها من الشيعة[1].

هنا لدينا نوع من الاستعارة، حيث السواد استُعير للذهب، ولكنّ العبارة كلّها تحيل إلى النفط الخام. في هذه الصورة نتخيّل الثراءَ، أو الحسرةَ على فقرٍ شخصيّ إزاءَ تصوُّر حالة الثراء عند الآخرين، أو القلقَ من هيمنة اللون الأسود، أو البحرَ لأنّه مخزن البترول، أو العُقَدَ السياسيّة والحربيّة والاقتصاديّة الناجمة عن جشع الدول في الاستيلاء على النفط. هذا كلّه. فلدى تحليل جملة ما عند إمبسون، يمكن لواحدنا على الدوام أن يتعامل مع نوعٍ من الالتباس بموجب الاستعارات *(Ambiguity due to metaphors)* [...] لأنّ الكلمات

(1) آلان غريش (Alain Gresh): هل من مسألة شيعيّة في السعوديّة؟، العالم الدبلوماسيّ، 6/ 2003.

المستخدَمة كنعوت هي كلمات تُستخدم لتحليل قول مباشر، في حين أنّ الاستعارة هي خلاصةُ وحداتٍ عديدة من الملاحظة في صورة واحدة مسيطرة[1]. فالملاحَظ أنّ الجزء الثاني من العبارة هو نعت بشكله المباشر (الأسود)، إلّا أنّه بشكله الضمنيّ أحالَ إلى مجموعة من التصوّرات أو حتّى المفاهيم. ومَن يضمن أنّ القارئ الذي سيقع على النصّ هو راشدٌ كي يضع أساساً احتمالَ تصوُّر البترول، وليس تلوين الذهب بالأسود؟!

إنّ خلاصةَ جزأي العبارة هي أمرٌ إيجابيّ ككناية، ولكنْ كصورة ملوّنة، هي إردافٌ خُلْفيّ إذ كأنّك تلوّن الأصفر بالأسود، فلا يبدو ذهباً إطلاقاً، أو كأنّك تُطفئ الشمسَ بإسودادها. فهاتان القوّتان من الإرداف الخُلْفيّ والحشو الدلاليّ (These two forces of oxymoron and tautology) كلتاهما عمليّتان في إقران الاسم الأوّل بالثاني فالثالث؛ ولكنّهما لا تقرنانه عن قرب كما الثاني مقرونٌ بالثالث [...] هذا ينتج عنه التباس[2].]

[أكثر من ذلك، يمكن لكلمة «رسم» في حدّ ذاتها أن تكون ملتبسة، فيظُنّ أنّها صورة في حين أنّها اصطلاحٌ اجتماعيّ:

وجاء انهيار الشيوعية في العام 1991 ليفتح مجالات واسعة

---

(1) Empson, Ibid., p.2.

(2) Ibid., p.97.

للتبادل الحر. وفي تسعينات القرن الماضي وقّع العديد من المعاهدات الاقليمية المهمة ومنها معاهدة التبادل الحر لأميركا الشمالية (الينا) التي ضمت كلاً من كندا والولايات المتحدة والمكسيك. وتتويجاً لذلك كله كانت مفاوضات دورة الأوروغواي حول المعاهدة العامة الخاصة بالرسوم الجمركية والتجارية (الغات) والتي أقرت في مراكش في العام 1994 وأفضت إلى إنشاء منظمة التجارة العالمية في العام 1995[1].

فقارئ الرسوم الجمركيّة والتجاريّة يمكن ألّا يكون قد تعرّف بعدُ إلى الرسوم بمعنى الضرائب، فيجعل الرسومَ التجاريّة هي الشعار مثلاً *(Logo)*. كما يمكن أن يكون قد تعرّف إليها، ومع ذلك، فاللفظُ عينه قد يحيله إلى رسومات بمعنى الصور، فيغيب عنه مرادُ النصّ وينحرف عنه فيما لو أطال هذا الانحراف.

على أنّ هذا الالتباس، في كلا الحالين، يخدم تعريف الرسوم مكانياً وزمانياً في النموذج: فثمّة شعاراتٌ (تعريف ضمنيّ) وضرائبُ (تعريف مباشر) معاً.]

[وقد تكون الصورة مؤوّلة بطريقتين: فإمّا أخذُها كما هي، وإمّا تأويلُها على أنّها تهكُّم مثلاً. وهذا يعتمد على السياق. ففي:

تركّز الكاميرايات على مقدم البرنامج، وقد بدت في الإطار

---

(1) ها-جون تشانغ (Ha-Joon Chang): من نظام الحماية إلى التبادل التجاريّ الحرّ، العالم الدبلوماسيّ، 6/ 2003.

الخلفي صورة كاراكاس الممتدة على سفح جبل الأفيلا الخفيف الانحدار حيث أقيم الاستوديو المرتجل[1]

لو أخذنا الجزء «قد بدت ... الانحدار»، لكان التصوير بلا غاية ما خلا التصوير. ولكن لو أخذنا هذا الجزء، مضافاً إليه ما سبقه وما تلاه، أي مقدّمته ونهايته، لَتبيّن أنّه، على الرغم من أنّه ما من شيء يمنع من الأخذ به بحرفيّته المباشرة كصورة طبيعيّة، إلّا أنّه، أيضاً، ما من شيء يمنعنا من أن نعتبره سخرية: فالكاميرا- لاحِظ صيغة الجمع العاميّة «كاميرايات» التي تتحوّل تهكّماً في مقامٍ من اللغة الفصحى - التي التقطت هذا المشهد، قد التقطته بالصدفة! وما كان ينبغي أن يكون هو المشهد المستهدَف، بات مستبدَلاً بالتركيز على المقدّم. إنّ المشهد الخلّاب «الخلفيّ» جعل المقدَّم هو المتقدّم. وهذا عائد إلى الارتجال، أي إلى اللاخبرة واللاجدّيّة واللاتصويب على ما ينبغي أن يُصوَّب عليه. هذا التباس. ولكنّه من جهة ثانية تعريفٌ بكاراكاس وجبلها. أ

أ وفي هذا:

وإن لم تكن الولايات المتحدة ممثلة فيه شخصياً فإن شبحها المخيم من واشنطن وبغداد أضفى طابعاً سوريالياً إلى حد ما على التصريحات الواجبة عن الوحدة والصادرة عن رؤساء الدول والحكومات التي تدعي دعم جهود الأمم المتحدة «لضمان الشرعية

---

(1) موريس لوموان (Maurice Lemoine): انقلاب مجهض في فنزويلا (الشعب ينقذ شافيز)، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2002.

الدولية والمسؤولية الجماعية». لكن ألم يتم، في الوقت نفسه، الاستهزاء بشكل فظ بهذه «الشرعية الدولية» في العراق على يد بعض المشاركين، وفي مقدهم السيد توني بلير والسيد خوسيه ماريا أزنار يدعمهما معظم المشاركين الآخرين الذين اصطفوا لأخذ «الصورة العائلية» أمام مبنى الأكروبول؟[1]

ما ورد بين مزدوجين يشير غاية الكاتب في إلزام قارئه بالتهكّم. فالشرعيةّ الدوليةّ التي تكرّرَ ذكرُها بين المزدوجين مرّتين، دليلٌ على قلب صورتها، ولقد ذكر الكاتبُ نفسُه كلمة «استهزاء» قبلها. لذلك فالصورة العائليةّ أمام المبنى تلقّحت من هذا القبيل، وهي من باب المظاهر. والاصطفاف يشير إلى مدى سطحيةّ المتصوّرين وتحجيمهم في صورة جامدة، والرياء للتقرّب من رئيس الوزراء. في نهاية الأمر، كلّ قارئ سيتصوّر البسمات المصطنعة في الصورة، أو قد يتصوّر وزراء بلاده مصطفّين، فيعكس نظرتَه إليهم نحو الصورة-الأصل. [

]وحتّى لو ظننتَ أنّ التصوير العلميّ- لا الجماليّ- الذي تحدّث عنه ريتشاردزهو بعيدٌ من الالتباس، فقد تكون على خطأ! فلقد أشار في أحد السطور إلى هندسية بانت صعبة جداً بالنسبة إلى كثيرين، حيث لاشيء أكثر من الفيزياء في فكر السطر على المركز *(Physics in the thought of the [line])*[2].

---

(1) برنار كاسّين (Bernard Cassen): الاتّحاد الأوروبيّ مريض النزعة الأطلسيّة، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2003.

(2) Richards, Ibid., p.141.

الحدودي في جنوب غرب بولونيا تفصل بين رجال الجمارك البولونيين وزملائهم الأوكرانيين مسافة ثلاثمئة متر، ولاجتيازها بدون سيارة يتطلب الأمر عبور ممر وسط سياج مشبك في خط مستقيم .تحت سماء مكشوفة(1)

لماذا هذه الصعوبة وهذا الالتباس ؟ لأنّ هذه الهندسة قد تكون غير دقيقة، أو في غير مكانها. فالدقّة الرقمية (300)، ووحدة القياس (متر)، والنِسَب (بين+وسط+تحت)، هي رياضيّاتٌ مباشرة، ولكنّ مثل هذا التصوير يحتاج الفيزياءَ أكثر من الرياضيّات، كالسرعة مثلاً، أي مَسَدَّ غيابِ عنصر الزمن الذي كان عليه أن يكون قاِسمَ عنصر المسافة، خصوصاً أنّ الكاتب شارفَ على إتمام الفيزياء بما أنّه وصف الخطَّ بالمستقيم (*Mouvement uniforme*≈)، والسماءَ بالمكشوفة، ما يجعل معادلةَ السرعة المستقيمة ممكنةَ التنفيذ، والقوى المقاِومةَ شيئاً لا يُذكر (*Forces résistantes négligeables*)؛ فلولا هذا الوصف لَما كان عنصرُ السرعة ممكنَ الإتمام. ومع ذلك لم يتمّمه. مع أنّ هذا الوصف موضوعيّ، إلّا أنّه قد لا يهمّ القارئ المهتمّ بالجمالية فيتركه وشأنه، وقد لا يهمّ القارئ المهتمّ بالعلم – وإن استلذّ بقراءته لاهتمامه بهذا الشأن– لأنّ عناصر العلم فيه غير مكتملة.[

---

(1) غي–بيار شوماتّ (Guy-Pierre Chomette): على التخوم الشرقيّة للاتّحاد الاوروبيّ، العالم الدبلوماسيّ، 3/ 2003.

18. التشخيص والتجسيم في التجريد

في ربط الكاتبِ المحسوسَ (جـدران) بالمجرّد (ألـوان الحرب=تجريد اللون) كان هنا بالذات تشخيصٌ (ارتدت). هذه هي طريقة الربط المخصوصة هنا؛ فعند إمبسون يمكن أن يتمّ ربطُ [الأزواج (محسوس-مجرّد)] بطرائق متنوّعة[1]:

فقد خلّفوا لدى الرأي العام في بلدانهم صورة كريهة عن النادي الذي يؤلفونه وهو مكوّن من أثرياء متعجرفين، يحتجزون أنفسهم على متن مركب سياحي فاخر وراء جدران ارتدت ألوان الحرب، على غرار أي مترف من زمن مضى، مقطوعين عن الشعب الغاضب وتحرسهم شرطة في حال استنفار حربي لم تتردد في قتل أحد المتظاهرين الشبان، كارلو جيولياني، 23 عاماً...[2]

اللافت أنّ الألوان التي تلتبس باعتبارها مجرّدةً (اللون كجوهر) أو محسوسة (إسقاط اللون ملموساً أو نافراً على لوحة)، قد حسمَ الكاتبُ اعتبارَها مجرّدةً بسبب اقترانها بالحرب، ما جعلها أنواعاً من المفهوم المجرّد.

المشكلة هنا هي في اختلاط التشخيص على الحواسّ: فهل يستتبع حاسّةَ البصر (ألوان)، أو اللمس (وراء جدران)، أو السمع

---

(1) Cf. Empson, Ibid., p.126.

(2) اناسيو رامونه (Ignacio Ramonet): رؤساء مطاردون، العالم الدبلوماسيّ، 8/ 2001.

(دويّ الحرب) ؟ وهل يسمح الانفعالُ الشعوريّ إزاء الحرب بفصلٍ حاسّيّة عن أخرى، أي بحكمٍ سليم على المشهد؟ لقد ذاب المحسوس في المجرّد، كما ذابت الحواسُّ بعضُها في بعض. فقد لا يكون بمقدور واحِدنا الفصلُ بين [المواضيع] في ذهنه، وكأنّه أمام تقنيّة الحركة الرومنطيقية [...] وهي تذوب في ذهنك، كما هي الحال مع الحلم في الغالب، في صورةٍ حسّيّة مباشرة ظاهريّاً، وإنّما لا يمكن أن تقترن بأيٍّ من الحواسّ[1].

غالباً ما لا يكون من داعٍ للتشخيص متى كان المعنى الحسّيّ هو المعنيّ، ونحن فقط نستخدمه للتعبير عن مشاعر إزاءَ أيّما نتحدّث بشأنه. إلّا أنّ التشخيص أحياناً يسمح لنا بأن نقول بوضوحٍ ما كان يمكن أن يكون صعباً إلى حدٍّ بعيد قولُه بدونه[2]. كيف سمح لنا التشخيص بوضوح القول؟ صحيحٌ أنّه على الأقلّ ثمّة التباساتٌ ثلاثة في ما خصّ موضوع الحرب المذكورة، إلّا أنّ الكاتب، لولا الصورة، لكان عليه أن يذكر هذه الثلاثةَ بشكلٍ صريح. الالتباس هو في الثلاثيّة، إلّا أنّ الاتّجاهات الثلاثة قد كُشفت.]

إن بناء أوروبا لم يكن في يوم شأن الأوروبيين وحسب. فمن المؤكد أن الفكرة خرجت من صفوف نخبهم، من مفكرين وزعماء يعملون عبر شبكات منظمة، لهدف طوباوي وكمثال سياسي وضعوا نصب أعينهم تحقيقه. لكن تجسيد هذه الفكرة منذ العام 1958 باسم

(1) Empson, Ibid., p.176.

(2) Richards, Ibid., p.200.

مجموعة اقتصادية أوروبية تحوّل في العام 1993 إلى الاتحاد الأوروبي، قد تمت صياغته على أساس ميزان القوى الناشئ من الحرب العالمية الثانية. فالأمر، وأبعد من نشاط الآباء المؤسسين (ويجب ألّا تحصر التسمية بمونه وشومان وحدهما)، يعود إلى رغبة الولايات المتحدة أكثر منه إلى رغبة شعوب أوروبا الذين التزموا أساساً «اتحاداً يزداد توثقاً باطراد» بحسب الصيغة التي وردت في المعاهدات المتتالية، من معاهدة روما (1957) إلى معاهدة نيس (2000). ففي أفضل الأحوال ظلت الشعوب في صفوف المشاهد وحتى هذه السنوات الأخيرة (ولا تزال)... لم تكن في أي شكل فاعلة في اندماجها الخاص في مجموعة سوف تتشكل، بعد انعقاد المجلس الأوروبي في كوبنهاغن في 12 و13 كانون الأول/ ديسمبر عام 2002، من 25 دولة تضم ما يزيد على 450 مليون نسمة.

طبعاً إن التطلع إلى هذا «الاتحاد الذي يزداد توثقاً باطراد» لم ينشأ في دوائر وزارة الخارجية في واشنطن في الأربعينات من القرن الماضي. ودونما توغل في الماضي يمكن إيجاد آثار له في عصر النهضة في وثيقة حملت اسم «تراكتاتوس» كتبها في العام 1464 (بعد 11 عاماً على سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك) ملك بوهيميا «بوديبراد»[1].

إعبارة «تجسيد الفكرة» وضّحت تعريفَ نشوء أصل الاتّحاد

---

(1) برنار كاسّان (Bernard Cassen): أوروبا الأقلّ أوروبيّة، العالم الدبلوماسيّ، 1/ 2003.

الأوروبيّ. فالفكرةُ عملٌ ذهنيّ، وتجسيدُها هو تجسيد العمل الذهنيّ. هنا تجسيم. وهو طريقة أخرى من طرائق ربط المجرّد بالمحسوس. وهو يحاول أكثر من التشخيص أن يوضّح التباسَ اللامحسوس لأنّه يجعله محسوساً بامتياز، فتمْكن معاينته.[

19. [التلاغي والوهم النفسيّ وعدم الحسم]

[إنّ عنْونة مقالة

«اسرائيل ضد اسرائيل»(1)

يجعلها ذات عنوان ملتبس ينسحب التباسُه على المقالة بكاملها، أقلّه كحُكمٍ أوّليّ. مع أنّه عنوانٌ مثير أي إنّه قد يشدّ القارئ إلى استكشاف معنى هذا التضادّ الملتبس وأبعاده، إلّا أنّ التضادّ الملتبس بحدّ ذاته، والذي مُنتهاه فراغٌ بدون جدوى على الصعيد الحسابيّ (س – س =صفر)، أو بالرياضيّات التحليلية حيث السهمُ الموجَّه صفر (Vecteur nul) هو ناتجُ سهمين متضادّين متقابلين، قد يجعل القارئ يُسقط المقالة بأكملها. هذا من وحي الالتباس ذي النمط السادس الذي يَظهر متى لا يقول القول شيئاً بالحشو التكراريّ، بالتناقض، أو بأقوالٍ غير مناسبة، بحيث إنّ القارئ يكون مُلزَماً بأن يبتدع أقوالاً على هواه وهي تكون عُرضةً لأن يتصارع واحدُها مع الآخر(2).

---

(1) تراجع دومينيك فيدال (Dominique Vidal): العالم الدبلوماسيّ، 1/ 2002.

(2) Empson, Ibid., p.176.

القارئ، أمام هذين الاتجاهين، وقبل قراءة المقالة لاستكشاف حقيقةِ مَن مِن الاتّجاهين المتصارعين هو على حقّ أو إذا كان أصلاً على حقّ، وكذلك قبْل أن يكتشف اتّجاهاً جديداً محتمَلاً يبثّه الكاتب في خلاصةِ نصّه على سبيل المثال، بات بدوره فكراً متصارعاً. [في هذا النموذج:

الملان المكتسب المنتشر (طفل الكربون): سجلت حالة واحدة في المكسيك طفل أبيض أصبح أسود بشكل منتشر[1]

نحن نواجه متناقضَي الأبيض والأسود. ولكم كان هذان اللونان رمزَي الضدّين المتصارعين دوماً، حتّى وإنْ كان الضدّان المتصارعان ليسا بِلَونين. فإنّ الزوج الفكريّ المتضادّ «أبيض/ أسود» قد يجعل القارئ يتوه عن تعريفه اللونيّن، ليدخل في تجاذباتٍ اجتماعيةٍ أو أخلاقيّة (غني/ فقير، شريف/ دنيء،...). فأزواج الفكرَ المتضادّة المجموعة في مثالٍ حلّلَه إمبسون، تضمّنت الموتَ والعمل الجنسيّ، زوجاً ينبغي أن يُنتج المزيد من الأمثلة: الألم واللذّة، المرأة كأمّ وزوجة في آن...[2]. ومع ذلك، هكذا متناقضات، عند إمبسون نفسه، هي متناقضات قابلة للذوبان *(Soluble contradictions)*، ويمكن أن يتمّ إشباعُها بشكلٍ آمن[3].

إنّ التصبّغ هو سبب ذلك. والصباغ هو نوعٌ من الخليط: لقد حُلَّت

---

(1) سعيد قبلان- باسل غويش: اضطرابات التصبّغ، العالم الدبلوماسيّ.

(2) Cf. Empson, Ibid., p.215.

(3) Ibid., p.196-197.

نوعاً ما قضيةُ التناقض، لأنّ في الخليط ذوبانَ اللونين؛ و لأنّ التركيبَ عينَه يتحدّث عن عمليّة تحوُّل (أصبح)، ما يعني أنّ هذا النقيض هو تحوُّلٌ طبيعيّ. لاحظ كيف أنّ الحالةَ الاستثنائيةَ غيرَ الطبيعية لحدَث التعريف عن التصبّغ (حالة واحدة)، هي في الواقع حالةٌ طبيعيةٌ غيرُ إرغامية (بشكل منتشر)؛ إنّك تسمع صدى عبارة «بشكل طبيعي» عندما تسمع عبارة «بشكل منتشر»، لحظةَ سماعِكَ عبارةَ «بشكل»، على أنّ الانتشار نفسه يعيدنا إلى الخليط، أي إلى ذوبان اللون في الآخَر. أيٌّ من اللونين يذوب في الآخر؟ ما عاد هذا مهمّاً سواء كان الأبيض يذوب في الأسود، أو الأسود يُذوب في الأبيض، لأنّ الانتشار يفقدُ كُلّاً منهما هويّته، أو هويةَ اللون-الأصل، مع أنّ اللون-الأصل هو الأبيض (طفل أبيض أصبح...) . لن يجد هذا الطفلُ بعد الآن مَن يدعوه بالأسود تهكُّماً، ولن يصادف مَن هم لا يُعجَبُون بالسود. ويمكن أن يحكي براحةٍ عن نفسه كإنسان أبيض، إذ سيكون حديثُه من الأساس مَحطّاً إصغاءٍ وتقدير وقبول، وليس محطّاً نبْذ ومقت.

عالج إمبسون في هذا المجال قضيةَ التضادّ مُسِن/ شابّ، مستخدماً إيّاهما لحلٍّ أو تليين صراعٍ ما، بحيث إنّ رجلاً مُسِناً لن يجد نفسه ملزَماً فجاةً بأن يتوقّع أنّ كلمةً عنيفة سوف تُسند إليه، وإنّما بات بإمكانه أن يحكي عن ذاته كشابّ. اللغة العربيّة لديها آلاف الكلمات لوصف أنواع الجمال المختلفة. العربيّة هي مثالٌ صارخ للذهن المدعوّ إلى استعمال كلمة تحضن ضدّها الخاصّ بها

(A word which covers its own opposite). ما أن تدرك أنّ أمرين اثنين هما ضدّان، فإنّك تدرك علاقةً تربطهما[1].

وإذا كان ثمّة ما يجب أن يربط الأبيض بالأسود، فهو إمّا الخليطُ الجامع بينهما أي الرماديّ، وإمّا الكلمةُ التي تغطّي ضدَّها الخاصّ، أي التي تعني الأبيض والأسود في آن، أي كلمة «جَون» في لغتنا العربية حصراً[2].

من جانب آخر، إنّ هذا الذوبان الذي خليطُه وانتشاره لا يُعرف بهما أيٌّ من اللونين هو الأصل، يحيل إلى ما أصلُه أسود وتحوّلَ إلى أبيض. هنا التباسٌ ذهنيٌّ وانفعاليّ، إذ انّ الذهن قد يحيد عن فكرة الطفل، ليحوّله إلى مايكل جاكسون مثلاً وهو الذي حوّل بشرته من سوداء إلى بيضاء.

سيرورة هذا التحوّل أبيض/ أسود-أسود/ أبيض، تجعلنا نتحوّل من الطفل إلى البالغ، من الطبيعيّ إلى المصطنَع المتكلّف، ومن التفكير في الطفل بعينه إلى التفكير فيه كمصير عندما يصبح بالغاً: كيف سينظر إليه الناس؟ ما موقفه؟ ... إنّ فكرةَ العمر، والانفعالَ بالتأثّر لحالة الطفل، هما رابطٌ ضمنيٌّ لصراعٍ ذهنيّ، أو صراعٌ ضمنيّ لرابطٍ ذهنيّ. يحكي لنا إمبسون حكايةً في هذا المقام: عندما رأى مصريٌّ بدائيٌّ طفلاً فكّر في ما فكّر للتوّ في رجلٍ مسِنّ، وكان عليه أن يتعلّم

(1) Cf. Ibid., p.194-195.

(2) محيط المحيط، مادّة «جان».

عدم القيام بذلك مع تحضُّر لغته [...] قد يكون التفكيرُ بحسب ترابط مع فكرة ما تنظر إلى الصغير والكبير بالطريقة عينها [...] أو سيكون من المهمّ التذكير بأنّ فكرة العمر في حدّ ذاتها تقريباً تثير الصراع في كلّ مَن يلجأ إلى استعمالها[1].]

[إننا نشهد في النموذج الآتي تضاداً ليس طرفاه حاضرين، بل هو ذو طرفٍ صريح واحد يستدعي له ذهنُ القارئ طرفاً مضمراً ضديّاً:

وكذلك فإن استخدام الأدوات التي تستعمل لمرة واحدة أمر هام، بعد انتهاء عطلة العيد وعودة الطلاب للمدارس يعودون للازدحام، ويكون بعضهم قد جلب معه جراثيم إما من مكان قضاء الإجازة وإمّا من الزوار الذين عايدوه، وتنتشر هذه الجراثيم، ويحدث الشيء نفسه بعد انتهاء الإجازات الصيفية. إن التهابات الأمعاء تكثر أيضاً في مثل هذه المناسبات، وعلينا أن نذكر أن الأطفال والمراهقين المدخنين تكون الحالة أسوأ لديهم[2]

وهو يجعل التعريفَ حول عدد استعمالات الأدوات ملتبساً؛ وباعتبار هكذا صراع، فإنّ متضاديّه سوف يقترحُ على الدوام واحدُهما الآخَر *(Its opposites will always suggest one another)* - يعطي إمبسون مثالاً عن دفع أحدِهم لله الشيءَ الأكثر قيمة، وهو بالنسبة إلى الله لاشيء، واللاشيء هو بالنسبة إلى الله هو الأكثر قيمة، حيث

---

(1) Empson, Ibid., p.194.

(2) عبدالمطلب بن أحمد السح: وهكذا يلتهب البلعوم!!، العالم الدبلوماسيّ.

إنّ الشخص بذلك يُظهر محبته وطفولته البريئة[1]. ففي النموذج أنّ الاستعمال الواحد للأدوات أمرٌ هامّ، إلّا أنّ الاستعمال الواحد لأداة ما، عموماً، هو أمرٌ يجعل الأداةَ لا قيمة لها. هكذا استدعى السياقُ المنطقَ، الأهميّةُ-اللاجدوى. هذا الأمر الضمنيّ الملتبس قد مهّد لاحتمالات الالتباس تركيبياً: بعض+أو=تناقض مع العدد «واحد» الذي دلّ على الدقّة. لقد حوّلَ الكاتبُ المقطعَ من دقّة لامتناهية عدداً وزماناً إلى التباسٍ خياريّ انتقائيّ. [

[في هذا النموذج:

1 ـ هل تمارس التمارين الرياضية بشكل نادر أو لا تمارسها أبداً؟

2 ـ هل أنت سمين بالنسبة لطولك وعمرك ؟

3 ـ هل تدخن ؟

4 ـ هل تتناول الكثير من الأطعمة المالحة ؟

5 ـ هل يحتوي طعامك على كمية كبيرة من الدسم أو الكوليسترول ؟

6 ـ هل تتناول المشروبات الكحولية ؟

7 ـ هل لديك ضغوط نفسية في العمل أو المنزل ؟

إذا أجبت بنعم عن أي من هذه الأسئلة، فمن الضروري أن تستشير الطبيب[2].

---

(1) Cf. Empson, Ibid., p.224.

(2) مازن اللجمي: ارتفاع ضغط الدم، العالم الدبلوماسيّ.

تجد نفسَك من جديد أمام إمبسون، وليس أمام الطبيب!: عوضاً عن قول تناقضٍ ما، غالباً ما يمكن طرح سؤالٍ جوابُهُ نعم أو لا. هذه الأداة هي على وجه الخصوص شائعة عندما يتبنّى الكاتب أسلوباً شعرياً، حتّى يقول أشياء ذات تعقيد منطقيّ أكبر ممّا تسمح به طريقتُهُ[1].

فهل هذه الأسئلة التي تُطرح على المريض، وتالياً يطرحها المريضُ على نفسه، تحلُّ مشكلةَ مرضه أو تزيد وضعَهُ تعقيداً، كالقلق الزائد الذي ما كان ليكون موجوداً لو لم يعرف الأعراض المحتملة أو لو لم يتعمّق في مخاطر حالته وأفعاله؟ هو بهذه الأسئلة يصحو، ولكنّ هذه الصحوة خوفٌ. ثمّ إنّ السؤال الدقيق قد لا يحظى بجوابٍ دقيق، خصوصاً أنّ المريض، في عمقِ نفسيّته، لا يريد أن يصل إلى خلاصة سلبيّة، وبالتالي هو يحاول أن يوارب في بعض الأسئلة التي لا جوابَ محسوساً لها (هل لديك ضغوط نفسيّة في العمل أو المنزل؟= ربّما في المنزل، أو العمل، أو كليهما، أو هي لا تدعو إلى ذكرها لقلّتها، أو تحتاج إلى وقتٍ شخصيّ للتقييم). ثمّ لماذا ثمّة تهاونٌ في سؤال، وقساوة في آخر؟ فيمكن أن تلاحظ كلمة «الكثير» في سياق السؤال عن الأطعمة المالحة، ما يمكن أن يكون جوابُهُ «لا»، مع أنّ المريض يتناول الأطعمة المالحة، وهذا خطرٌ أيضاً، وقد يؤدّي الجواب إلى التباس؛ في حين أنّ السؤال السادس يكتفي بذكر المشروبات الكحوليّة، ما يعني أنّ الإجابة ستكون «نعم» حتّى ولو تناول المريض كأساً واحدةً

(1) Empson, Ibid., p.182.

من الكحول، ما سيُسهم في إجاباته التي تُقلقه وتؤدّي به إلى استشارة طبيب، وهي بالأساس مبنيّة على جواب دقيق خاطئ لسؤال غير دقيق يجب تعديله.

المريض هنا، تحوّل من مريض الضغط إلى مريض القلق. والمتناقضات بالإجابات باتت تدلّ على عدم الرضا عن الحالة التي باتت تداخُلَ وهم وحقيقة. المريض الذي يقول هنا «نعم أو لا»، يكون في ذهنه «لا أو نعم»، إلّا أنّه في النهاية يقرّر، ليس لأنّه راضٍ ومقتنع بجوابه، ولكن لأنّ من الواجب عليه في النهاية أن يردّ جواباً! هذه قضيّة حلّلناها على غير ما يحلّلها إمبسون في الشعر، ولكنّنا انطلقنا من المنطلقات عينها، وبدلاً من توظيفها جمالياً، وظّفناها منطقياً. وبذلك وظّفنا أيضاً مقولة إمبسون في سياق الكلام على الالتباس ذي النوع السابع: الآن متضادٌ فرويديٌ يدلّ أقلّه على عدم الرضا. فكرةٌ ما تريده، تشمل الفكرة بأنّك لم تحصل عليه، وهذا بدوره يشمل المتضادّ الذي حدّده سياقُك– الذي هو ما لديك، ولا يمكنك تفاديه [...] فكرةٌ ما تريده، تشمل الفكرة بأنّ عليك ألّا تأخذ بها، وهذا بدوره يشمل المتضادّ الذي حدّده سياقك– أنّك تريد شيئاً مختلفاً في جزء آخَر من ذهنك. بطبيعة الحال، يحتاج الصراع ليس إلى أن يُعبَّر عنه جهراً كتناقض، ولكنْ على الأرجح أنّ نظريّات الجمالية هذه، وهي التي تنظر إلى الشعر كحلٍّ لصراع ما، سوف تجد إيضاحاتها أوّلاً وآخراً في الحقل المحدود الذي يحضنه النوع السابع[1].

(1) Ibid., p.193.

ثمّ إنّ السؤال الأوّل ملتبس لجهة النقيضة؛ بالتعميم، إنّ مسألة ممارسة التمارين الرياضية بشكلٍ نادر، أو عدمَ ممارستها أبداً، ممكن. لكنْ أن يتطلّع مريضٌ ما إلى إجابة مُلحّة، فذاك أمرٌ ليس بسهل، هو ملتبس؛ فِلمَ التخيير فقط بين الممارسة النادرة أو عدم ممارستها، لنقْلِ طابع المريض بالضغط؟ ثمّ إذا كان يمارس الرياضة نادراً أو لا يمارسها أبداً، أيعني ذلك أنّه مريض؟ صحيحٌ أنّ المريض لا يقدر على ممارستها بانتظام وقوّة، إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّ العكس صحيح، فربّما لا تكون الممارسة، بسبب كسلٍ أو جرحٍ أو الاهتمام بعملٍ أو واجب آخر. هذا يحدو بنا إلى وضع تأويلٍ مضاعف حولَ كلٍّ من المرض والرياضة بذاتهما، وفي علاقةٍ واحدهما بالآخر. الالتباس الثاني في هذا السؤال والذي يؤدّي إلى إجابة مغالطة، هو كلمة «تمارين». فثمّة رياضاتٌ لا تُنسب إليها تمارين، ولقد جعلَ الكاتبُ القارئَ يقرّر مرضَه بناءً على تسجيله في نادٍ رياضيّ، أو بناءً على التزامه بمدرّبٍ! بكلمة، على الكاتب أن يعلم أنّ المريض لا يحاسَب على مرضه بالاستناد إلى رياضته الملتزمة والمنتظمة، بل إلى الحركة بشكلٍ عامّ.

إنّ تعريف مرض الضغط أتى ليس من خلال جملٍ خبريّة مباشرة، بل من خلال جمع أجوبة «النعم»، إذاً عن طريق الأسئلة. وأيُّ لغط في الإجابة هو خطأٌ في التعريف الشخصيّ للمريض، بسبب الأسئلة الممهّدة لعناصر التعريف التي بأجوبة «نعم | لا» تصبح خبريّة (نعم أنا أمارس... لا أنا لا أتناول...) وإنْ لم يبدُ ذلك مشكلةً كأسئلة عامّة مقبولة.

يسمّي إمبسون بعض أمثلته- [...] سواء كنت حكيماً أو لا تحب، لأنّك لا يمكنك أن تحبّ إذا كنت حكيماً- تناقضاً لأنّ التعميم المضاف لإظهار قوّة النقيضة *(Antithesis)* تجعله خطأً. ثمّة اختلافات بشأن الخيارات البديلة *(Alternatives)*، بحيث إنّ النقيضة ليست الآن غير منطقية- إذا كان الرجل حكيماً عرفنا أنّه لا يحبّ، لكن إذا لم يحبّ فليس ما ذُكر عمّا إذا كان حكيماً أو لا- [...] يُظهر التعميمُ أنّ الأمرين سيّان، ولكنْ لمّا كانا موضوعين كخيارين، فإنّنا ملزَمون بأن نرى أنّ هناك شكّاً نوعاً ما بشأن المسألة، وأن نعمل على تأويل مضاعَف *(Double interpretation)* حول كلٍّ من [الحبّ والحكمة][1]]

20. [الحلول-المعضلات]

لقد استطاعت أحلام العلماء التي نظنها قد بلغت حدّاً من الشطط غير المفهوم، على الأقلّ في الوقت الحالي أن تهز قناعات وعقائد الناس.

فمنذ بدء الدراسات الجينية عام 1970، والتعمق في وضع الخريطة الوراثية، توالت النظريات الحديثة وظهرت حقائق علمية أُقرت بشكل ثابت في القرن الحادي والعشرين منها:

1 - أن جميع الأمراض ذات منشأ جيني .

2 - أن الأمراض المعقدة هي نتيجة لتفاعل العديد من الجينات مع الوسط المحيط.

---

(1) Ibid., p.179-180.

فلا يكفي أن تكون مدخناً لتصاب بسرطان الرئة، بل يجب أن يتشارك ذلك مع حملك للمورثة الورمية المسؤولة عن إحداث السرطان . فبعد أن تم الكشف عن الخريطة الوراثية، وُجد أنه من المناسب البدء بالخطوة التالية لمعرفة سبب تعبير الجينات عن نفسها بأشكال مختلفة، فتحديد المورثات المسؤولة عن بعض الأمراض يفسر ما يجري ولا يفسر لماذا جرى؟

-من هنا بدأ التحدي الذي رُصد لتحقيقه من قبل المركز الوطني الأمريكي N.I.H ما يقارب 26.4 بليون دولار كما بدأت النظريات الحديثة بالتفاعل معطية آمالاً جديدة في المعالجة الجينية خاصة بعد ظهور نظريات بُدء بالتحقق منها عملياً"[1]

ا في هذا النصّ، كيف يضع الكاتبُ الأحلامَ بمواجهة القناعات، الشططَ بمواجهة الحقائق، غيرَ المفهوم بمواجهة الشكل الثابت؟ فعلاً، في الكلام نفسه هناك التباس (أحلام+شطط+غير مفهوم+تهزّ)، وفي صياغة الجملتين المترابطتين عن طريق التفسير (فاء «منذ»...)، أي ما كان ينبغي كدليل أن يلائمَ النتيجة السابقة المؤكَّدة بالتحقيق (لقد استطاعت)، التباسٌ بالتناقض، ما جعلَ الناتجَ هو التباس الالتباس.

وبعد أن حاول الكاتبُ استكمال التفسير بالتوضيح (منها:...) عبرَ الترقيم (1-2...)، كان الفشلُ ذريعاً من قَبْلِ قراءة ذلك كلّه، إذ متى كان التفسير مبنياً على تناقض ملتبس، كان التوضيح، الذي هو

---

(1) رحاب الصوّاف: الآمال المستقبليّة لطبّ الألفيّة الثالثة، العالم الدبلوماسيّ.

الدرجةُ العليا للنمط التفسيريّ، هو الاستغراق في التباس الالتباس هذا. بهذه الطريقة فهمنا إلى حدٍّ بعيد كيف أنّك عندما تحاول الفصل بين المعضلات الكلامية إذا كان لك خاطرٌ في ذلك، فإنّما في فصلكَ بينها في أيّة نقطة مخصوصة قد تكون أثرتَ معضلاتٍ أكثر ممّا كنت تبتغي حلّها. وتكون قد دخلت في التباس الالتباس (Ambiguity *of ambiguity*)[1]. على أيّ حال، يعود إمبسون ليخفّف من وطأة المعضلة، حيث إنّ كثيراً من التفسيرات قد يكون غيرَ صائبٍ برهانياً، ومع ذلك يكون مناسباً لغايته، والعكس بالعكس[2]. فما كانت تلك الغاية؟ إيهام الناس بفكرة وهّاجة، حتّى يتمّ إقناعهم بأنّهم من هؤلاء الناس (تعميم) الذين هُزّت قناعاتُهم. عليه، فإنّ التناقض الأصل يكون قد حُلّ بمتناقضاتٍ لا حصرَ لها (*Resolved into an indefinite number of contradictions*) [...] وبما أنّه من شأن القارئ أن يستخرج المعاني التي تخدمه، ويتجاهل المعاني التي يظنّها بلهاء، يمكن القول إنّ التناقض هو سلاحٌ أدبيّ ذو قوّة[3].

كيفَ تُحلّ المعضلة؟

إنّ إعادة ترتيب نبضات الجسم (*Reordering of organism impulses*) بتقليصِ تداخلات واحدها بالآخر إلى الحدّ الأدنى، قد تكون الاتّجاه الأكثر نجاحاً الذي قد يتّخذه هذا التوجّه. إعادة-ترتيب

(1) Cf. Empson, Ibid., p.6.

(2) Ibid., p.253.

(3) Ibid., p.197.

كهذه قد تكون اكتمالاً ذاتياً جزئياً، موقتاً ومشروطاً[...] وباكتمالٍ ذاتيّ كهذا، فخارطة الإنسان العليا قد تؤثّر في اتّحاد الخارجيّ بالداخلي»[1].

بإعادة القراءة تكون إعادة الترتيب. لقد ذكرَ الكاتبُ الخريطةَ (الخريطة الوراثيّة)، وهذه نقطةٌ مشهودٌ لها عنده؛ فهو عارفٌ بالتنظيم، وبأنّ معلوماته صحيحة، غير أنّ صياغته غير جديرة بمنطق الخريطة، أي بالتجزيء بدلاً من التداخل، أو بالتتابع بدلاً من التشتّت. لهذا، علينا القيام بتعديلٍ بسيط هو استبدال أداة التفسير «الفاء» بأداة التعارض «لكن» (لكن منذ بدء الدراسات...)، وهكذا يتحوّل التفسير إلى برهان، وتصبح الأداة مؤهّلةً لاحتضان التعارض الذي يصبح مشروعاً، لا التباساً. وما يلي من توضيحات يصبح بدوره منطقياً مقبولاً.

وساعتئذٍ، أيضاً، تنجح النبرة التأكيدية (لقد=تحقيق+بشكل ثابت=عبارة تأكيديّة+جميع الأمراض=دلالة التوكيد المعنويّ على شاكلة اسم «انّ»+يجب=إيعاز للمخاطَب) في تثبيت المعنى الذي سوف يقال له بالتالي «إقناعيّ» بدلاً من أن يقال عنه «ملتبس».

إلّا أنّ الكاتب أعادَ التناقض في التفسير (فبعد...) والاستنتاج معاً (من هنا)، في علاقتهما بما سبق (حقائق علميّة أُقرّت/ نظرياً بُدئ بالتحقّق منها علمياً؛ الأمراض المعقّدة هي نتيجة لتفاعل...=إظهار السبب/ يفسّر ما يجري ولا يفسّر لماذا جرى=تعذُّر إظهار السبب)، وهذا أمرٌ خطير لناحية المعنى، كما يزعزع النبرة التأكيديّة التي عادت

---

(1) Richards, Ibid., p.286-287.

مهتزّة (آمال+لا يفسّر). وإذا كانت هذه المقالة العلميّة خالية من الشعور – سواء تناسباً مع إبلاغيتّها، أو مع أسلوب الكاتب نفسه– فإنّ ثلاثاً من وظائف المعنى التي قال بها ريتشاردز قد سقطت، وبالتالي انهارت المقالة كليّاً. فعلينا مع ريتشاردز العثور [...] على الإخفاق في هذا الجزء أو ذاك من هذه الوظائف *(Functions)*. أحياناً الأربعُ تُخفق معاً. القارئ يحرّف المعنى، يشوّش الشعور، يُخطئ النبرة، ويستخفّ بالنيّة، وغالباً ما يوُرث الانهيارُ الجزئيّ لإحدى هذه الوظائف *(Partial collapse of one function)* انحرافاً في الثلاث الأُخَر [(1)].]

21. [المرُسَلة]

كيف جرى تقسيم السلطنة العثمانية؟[(2)]

أبدو عنوان هذه المقالة بلا مُرسَلة، وصفياً توضيحياً (الخريطة+كيف)، ولكنّ الحُكم على نوع النصّ انطلاقاً من نوع عنوانه هو أمرٌ فيه لغط. فالمرسلة هي الحرّيّة (التحرّر من الهيمنة الخارجيّة...) والجهاد (تكرار لفظيّ). وما يدعّم محتوى هذه المرسلة هو أنّ الحريّة كان مصدرها الدولة العثمانيّة، وهي التي أساساً عُرِفت بانتدابها وهيمنتها؛ وأنّ الجهاد لم يكن في دولة إسلاميّة طُبعت فيها هذه الخاصّية. إنّ الدول إذاً تَجهد لتَصنع لنفسها عكسَ ما صنعته

(1) Ibid., p.183.

(2) هنري لورنس (Henry Laurens): كيف جرى تقسيم السلطنة العثمانيّة؟، العالم الدبلوماسيّ.

لسواها، أو تتبنّى طابعاً قد لا يكون بالأساس طابعَها. وذلك كلّه في سبيل الحرّية؛ كلّ أمرٍ محلَّلٌ للحرّية:

كان العثمانيون مع دخولهم الحرب في تشرين الثاني/ نوفمبر 1914 يطمحون إلى التحرر من الهيمنة الخارجية والقضاء على النزعات الاستقلالية المحلية. وابتداء من 1915 تعرضت النخب السياسية العربية للقمع (شنق ونفي إلى الأناضول) وستلقى شعوب بأكملها اصناف العذاب (مسيحيو جبل لبنان الذين قضوا في المجاعة والأرمن الذين لقوا مصيراً أسود إضافة إلى المسيحيين في الأناضول الذين أصابهم النفي والتصفية). وفي محاولتهم لزعزعة الامبراطوريتين الاستعماريتين الفرنسية والبريطانية دعت اسطنبول إلى الجهاد المقدس. التزم البريطانيون أولاً معركة دفاعية بالقرب من قناة السويس بينما بدأ الجيش الانكليزي ـ الهندي غزو العراق بصعوبة من جهة البصرة [2] .

لكن الجهاد كان يتهدد افريقيا الشمالية الفرنسية (وقسم من افريقيا السوداء) والهند البريطانية. هكذا وجد الفرنسيون والانكليز أنفسهم في موقع دفاعي وهم يبحثون عن صيغة قانونية جديدة من شأنها إعادة سيطرتهم الماضية. فتطلعوا بداية الأمر إلى الحفاظ على امبراطورية عثمانية مركزية تكون في واقع الحال نوعا من المحمية.

يتبنّى ريتشاردز موضوع الحرّية عينه ليتحدّث عن سؤال المرسلة

(Message question)[1] في غير نصّ. وهكذا لقد بثّ لنا الكاتبُ ذهنيةً جديدة تُعرّف بالعثمانيّين أو الأتراك. هذه المرسلة تُناقض التعريف الشائع حولَ هذا الشعب. هذه أهميّتها.

من جهة مقابلة، إنّ ما وضعه الكاتب بين قوسين، يعيد إلى القارئ الذهنيةَ الأساس: فحتّى في تطبيق الحريّة وأساليبها ضدّ الاستعمار، هذه الشعوب تتصرّف كمستعمرين. المرسلة المقابلة هي مرسلة ضمنيّة: تصفية وتجويع ونفي=مصير أسود للآخرين. لا مصيرَ أبيضَ إذاً لهؤلاء الشعوب إلّا بتسويد مصائر آخرين.

حين قال ريتشاردز إنّ أحد النماذج يبدو له متقطّعَ الأوصال لا بل لا يصل إلى نقطة معيّنة *(Pointless)*[2]، فهذا لا ينطبق على نموذجنا بكامله. وبدلاً من القول إنّ النموذج لا يصل إلى نقطة معيّنة- لأنّه بالحقيقة يصل-، نقول إنّه يصل إلى نقطتين متكاملتين متقابلتين. لكنّ هذا التكامل، بما أنّه محيرٌ لاتّخاذ نظرة نهائيّة حول هذه الشعوب (أهي إيجابيّة أم سلبيّة)، فنصبح أمام التباس. هذا الالتباس هو في الواقع التباسٌ شعوريٌّ أكثر ممّا هو التباسٌ موضوعاتيّ.[

(1) Cf. Richards, Ibid., p.36.

(2) Cf. Ibid., p.87.

22. [ضرورةُ الحُكم-الأنا النهائيّ بعد أحكام جزئيّة إيجابية وسلبية، وجرأةُ مصطلحاته]

[لا يمكن لنصٍّ في النقد الجديد أن ينجوَ من الحُكم! أن تناقِشَ [النصّ] والطرائق التي بها يمكن أن تَتمَّ مقاربتُه، تقديرُه، والحُكمُ عليه، فذاك هو بالطبع، غايتُهُ الأُوْلى [1]. والحكم يأتي مباشراً في نهاية الأمر، وهو لا يحتمل المواربة، إيجاباً أو سلباً، في مناحي النصّ كافّةً: التركيب، الأصوات، التأثير، الفكر، وأيُّ لغطٍ في أيٍّ منها هو التباس. فريتشاردز يتحدّث عن تقفية فقيرة، وتركيب ضعيف، وتأثيرات مرحليّة مثيرة للدهشة، والتباسات فكريّة فشلت في إقامة التواصل مع القارئ... [2]

لذلك كان يجب عرضُ النصّ بأكمله، لأنّ أحكاماً جزئيّة- بمعنى الأقسام والمناحي- يجب أن تَعبرَ به. بكلمة، على النصّ في النهاية أن يقال عنه: جيّد أو سيّئ. فعندما نكون قد حلّلنا، كليّاً، معضلةَ التواصل، عندما تكون قد تكوّنت لدينا، بشكلٍ كامل، الخبرةُ، الشرطُ الذهنيّ المناسب للنصّ، كان لا يزال أمامنا أن نحكم عليه [...] مَسعانا الأُوْلى ينبغي أن يكون الاستحصال على الشرط الذهنيّ المناسب، وبعدَها، نرى ماذا سيحصل. في حال لم نتمكّن بعدها من أن نقرّر ما إذا كان جيّداً أو سيّئاً، يصبح من الريبة بمكان، الظنّ ما إذا كانت أيّةُ مبادئ،

---

(1) Ibid., p.11.

(2) Cf. Ibid., p.36,43,44.,

مهما كانت مصقولة ومتقنة، سوف تساعدنا أكثر من ذلك. فبدون القدرة على الاستحصال على الخبرة *(Capacity to get the experience)*، لن تساعدنا على الإطلاق[1].

في نصّ «ارتفاع ضغط الدم»[2] - عذراً من القارئ، إذ نورد النصّ بكامله، لأنّ من وراء ذلك نيةّ هذه المرّة هي بأيدينا نحن القرّاء... :

يسير الدم عبر الجسم داخل الشرايين، ناقلاً الأكسيجين إلى الأنسجة والأعضاء المختلفة ثم يعود؛ بعد أن تستخدم الأنسجة والأعضاء الأكسيجين، نحو القلب عن طريق الأوردة يقوم القلب عندئذ بضخ الدم نحو الرئتين، حيث يعاد تحميله بالأكسيجين ثم يعود إلى القلب ليضخه داخل الشرايين مجدداً ضغط الدم هو القوة التي يطبقها الدم على جدران الشرايين أثناء جريانه عبر الجسم وهو ما يقوم طبيبك بقياسه أثناء الفحص .

يحافظ الجسم على قيم ضغط الدم عن طريق تفاعلات معقدة بين القلب والأوعية الدموية (الأوردة والشرايين) والجهاز العصبي والكليتين ومجموعة من الهرمونات، كرد فعل على محرضات مختلفة

تؤدي أسباب كثيرة إلى ارتفاع ضغط الدم، عندما تكون نائماً،

---

(1) Ibid., p.11.

(2) مازن اللجمي: ارتفاع ضغط الدم، العالم الدبلوماسيّ.(هذه المقالة نظراً إلى طولها، تَبرزُ فيها أخطاء الإملاء والتركيب والنحو وعلامات الوقف والترقيم...، وبالتالي هي تُبيّن الوجهة النقديّة لإحدى أهمّ غايات هذا الكتاب، المذكورة سابقاً).

يكون ضغط الدم لديك منخفضاً لأن جسمك يحتاج إلى كمية أقل من الأكسيجين أثناء الراحة من ناحية أخرى، عندما تقوم بمجهود عضلي يزداد طلب الجسم للأكسيجين، ويرتفع ضغط الدم لديك

من الطبيعي جداً أن يرتفع ضغط الدم لديك وينخفض أثناء النهار، بحسب حاجات الجسم تذكر أن ارتفاع الضغط المرضي هو بقاء قيم الضغط أعلى من الطبيعي بشكل مستمر

هناك عوامل خطورة عديدة تساعد على ظهور ارتفاع ضغط الدم المرضي لديك بعض من هذه العوامل، مثل زيادة الوزن والحمية الغذائية ونظام الحياة يمكن السيطرة عليها كما يتوجب عليك إزالة البعض الآخر نهائياً من حياتك، مثل المشروبات الكحولية والتدخين أما باقي العوامل، مثل التقدم في العمر والوراثة والجنس والانتماء العرقي، فمن غير الممكن تبديلها

ينتج ارتفاع ضغط الدم عن زيادة كمية الدم التي يضخها القلب وعن ارتفاع مقاومة الشرايين لجريان الدم عبرها

تذكر أنه كلما ازداد ارتفاع ضغط الدم، ازداد إجهاد الشرايين والقلب هذا التزايد في الاجهاد يعني أنه يتوجب على القلب القيام بعمل إضافي طوال الوقت، وتكون النتيجة توسع القلب وتراجع قدرته على ضخ الدم عبر الجسم

من الممكن أن يكون المرء مصاباً بارتفاع ضغط الدم دون أن يعلم ذلك أنّ الكثير من المرضى لا يشكون من أية أعراض، أي أنهم «غير عرضيين» لذلك، فمن الضروري جداً أن تكون هناك مراقبة

منتظمة للضغط من قبل طبيبك، وأن تتبع تعليماته إن ارتفاع الضغط الغير معالج يمكن أن يؤدي إلى مضاعفات جدية

قياس ضغط الدم

يقاس ضغط الدم بالميلليميتر زئبق (ملم ز) بواسطة جهاز خاص. يتألف جهاز قياس ضغط الدم من كُمٍ قابل للنفخ ومن ساعة قياس الضغط. يتم التعبير عن الرقمين الذين يعطيان ضغط الدم بنسبة، مثل 120\80 ملم ز، مثلاً الرقم الأول هو الضغط الانقباضي (عندما ينقبض القلب ليدفع الدم عبر الشرايين)، أما الرقم الثاني فهو الضغط الانبساطي (عندما يتمدد القلب ويمتلئ استعداداً للانقباض التالي).

أجهزة قياس الضغط للمحترفين:

عندما يتم قياس ضغط الدم في عيادة الطبيب، يلف الكم حول الذراع وينفخ بالهواء حتى يتم قطع جريان الدم بشكل موقت، بعد ذلك يتم خفض الضغط ضمن الكم ليعود الدم إلى الجريان، يقوم الشخص الذي يقيس ضغط الدم باستعمال سماعة للإصغاء إلى الأصوات التي يصدرها الدم أثناء جريانه عبر الشرايين، ويحدد الضغط الانقباضي والانبساطي بمراقبة الأرقام التي تبدأ وتنتهي عندها الأصوات.

أجهزة قياس الضغط المنزلية:

أدى الاهتمام المتزايد بضغط الدم إلى ظهور أجهزة قياس خاصة بالاستعمال المنزلي. هناك أنواع مختلفة من هذه الأجهزة، تعمل كلها بشكل إليكتروني.

رغم أن أكثر الناس يستعملون هذه الأجهزة، فإن البعض يستصعب ذلك أما إذا كنت مصاباً بارتفاع ضغط الدم، فمن الضروري أن تراقبه بشكل دوري عند الطبيب.

تقييم شدة ارتفاع ضغط الدم

تدل الأرقام (الضغط الانقباضي والانبساطي) على شدة ارتفاع أو انخفاض ضغط الدم لديك إذا كنت تشكو من ارتفاع ضغط الدم. يستعين الطبيب بالأرقام لتقييم شدة المرض. يمكن استعمال الجدول الموجود في الأسفل (المأخوذ عن دراسـات اللجنة الوطنية في الولايات المتحدة الأمريكية) كدليل للتقييم.

تصنيف ارتفاع ضغط الدم عند الراشدين فوق 18 عاماً

نوع ارتفاع الضغط	الضغط الانقباضي (مم ز)	الضغط الانبساطي (مم ز)
طبيعي	130 >	85 >
طبيعي مرتفع	139 – 130	89 – 85
ارتفاع ضغط:		
درجة 1 – خفيف	159 – 140	99 – 90
درجة 2 - متوسط	179 – 160	109 – 100
درجة 3 – شديد	209 – 180	119 – 110
درجة 4 – شديد جداً	210 <	120 <

تذكر إذا كنت مصاباً بارتفاع ضغط الدم (كائنةً ما تكون شدته) أنه قابل للعلاج باتباع برنامج حياة خاص وباستعمال العلاج الدوائي، كما أنه من المهم جداً اتباع تعليمات الطبيب بشكل دقيق.

أنواع ارتفاع ضغط الدم

إضافة إلى تصنيف ارتفاع ضغط الدم حسب الأرقام، هناك تصنيف آخر حسب السبب

ارتفاع ضغط الدم البدئي:

معظم المرضى المصابين بارتفاع ضغط الدم لديهم هذا النوع منه، الذي هو مجهول السبب، وهو يسمى أيضاً ارتفاع الضغط الأساسي أو المجهول السبب، ويعتقد أن عوامل متعددة تساعد في تطوره غير أن السبب المباشر غير قابل للتحديد عند مريض معين.

ارتفاع ضغط الدم الثانوي:

يسمى ارتفاع ضغط الدم ثانوياً عندما يكون من الممكن تحديد سبب مباشر له وأكثر أسبابه شيوعاً هي أمراض الكليتين أو الأمراض الأخرى التي قد تؤثر على وظيفتهما. هناك أمراض أخرى قد تؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم الثانوي إذا تم علاج المرض المسبب بشكل تام، فإن ارتفاع ضغط الدم يمكن أن يشفى كما أن هناك بعض الأدوية التي يمكن أن تؤثر سلباً على ضغط الدم، مؤدية إلى ارتفاع ثانوي فيه.

ارتفاع ضغط الدم الوعائي الكلوي:

هو نوع نادر، ينتج عن تضيق أحد أو كلى الشريانين اللذين يغذيان الكليتين (الشرايين الكلوية).

مضاعفات ارتفاع ضغط الدم

إذا كان لديك شك بأنك مصاب بارتفاع ضغط الدم، فمن الضروري أن تراجع الطبيب. عندما يتم تشخيص المرض، يبدأ العلاج لكن تذكر أنه يتوجب عليك رؤية طبيبك بشكل منتظم للمتابعة ولإخباره بأية أعراض إضافية تشعر بها.

يمكن لارتفاع ضغط الدم غير المعالج أن يتسبب بمضاعفات جدية فالأشخاص المصابون معرضون لخطر حدوث احتشاءات في عضلة القلب وللحوادث الوعائية الدماغية (الفالج)، كما أن ارتفاع الضغط يزيد من احتمال الإصابة بأمراض قلبية أخرى وبأمراض الأوعية الدموية والكليتين والدماغ غير أن العلاج الجاد يمكن أن يقي من مثل هذه المضاعفات الخطيرة.

من المعرض للإصابة؟

إذا كنت مصاباً بارتفاع ضغط الدم فأنت لست الوحيد إنه من أكثر الأمراض شيوعاً بين الناس.

قد يتطور ارتفاع ضغط الدم الخفيف غير المعالج ليصبح شديداً، مما قد يعرض الحياة للخطر عن طريق حدوث احتشاءات عضلة

القلب أو الحوادث الوعائية الدماغية أو أمراض الكليتين، لهذا السبب يتوجب عليك مراجعة الطبيب بشكل منتظم.

رغم أن البعض معرض أكثر من غيره للإصابة بهذا المرض، فإننا جميعاً معرضون بدرجات مختلفة. مع كل ما ينتج عن ذلك من مضاعفات يمكن للمريض أن يكون ذكراً أو أنثى، شاباً أو كهلاً، نشيطاً أو قليل الحركة، سميناً أو نحيفاً، من دون فرق بين الانتماءات العنصرية أو الطائفية قد تكون حياته مليئةً بالضغوط النفسية الشديدة أو مريحة جداً، وقد يكون أو لا يكون هناك من الأقارب من أصيب سابقاً بارتفاع ضغط الدم أو الأمراض القلبية الأخرى. قد يكون المريض تحت العلاج أصلاً لإصابته بالداء السكري أو القلب أو ورم خبيث أو أية آفة مزمنة أخرى ببساطة، كائناً من تكون، أنت معرض للإصابة بارتفاع ضغط الدم.

هل ينطبق هذا عليك ؟

هل تعتقد أن ضغط الدم قد يكون مرتفعاً لديك دون أن تذكر ذلك لطبيبك ؟ أنظر إلى الأسئلة التالية :

ما يتعلق بسوابقك المرضية:

1 - هل استخدمت في السابق أدوية لارتفاع ضغط الدم بشكل خفيف ؟

2 - هل هناك قصة عائلية لارتفاع ضغط الدم أو الأمراض القلبية لدى أقاربك ؟

ما يتعلق بنوعية حياتك:

1 - هل تمارس التمارين الرياضية بشكل نادر أو لا تمارسها أبداً ؟

2 - هل أنت سمين بالنسبة إلى طولك وعمرك ؟

3 - هل تدخن ؟

4 - هل تتناول الكثير من الأطعمة المالحة ؟

5 - هل يحتوي طعامك على كمية كبيرة من الدسم أو الكوليسترول ؟

6 - هل تتناول المشروبات الكحولية ؟

7 - هل لديك ضغوط نفسية في العمل أو المنزل ؟

إذا أجبت بنعم عن أي من هذه الأسئلة، فمن الضروري أن تستشير الطبيب.

العلاج موجود

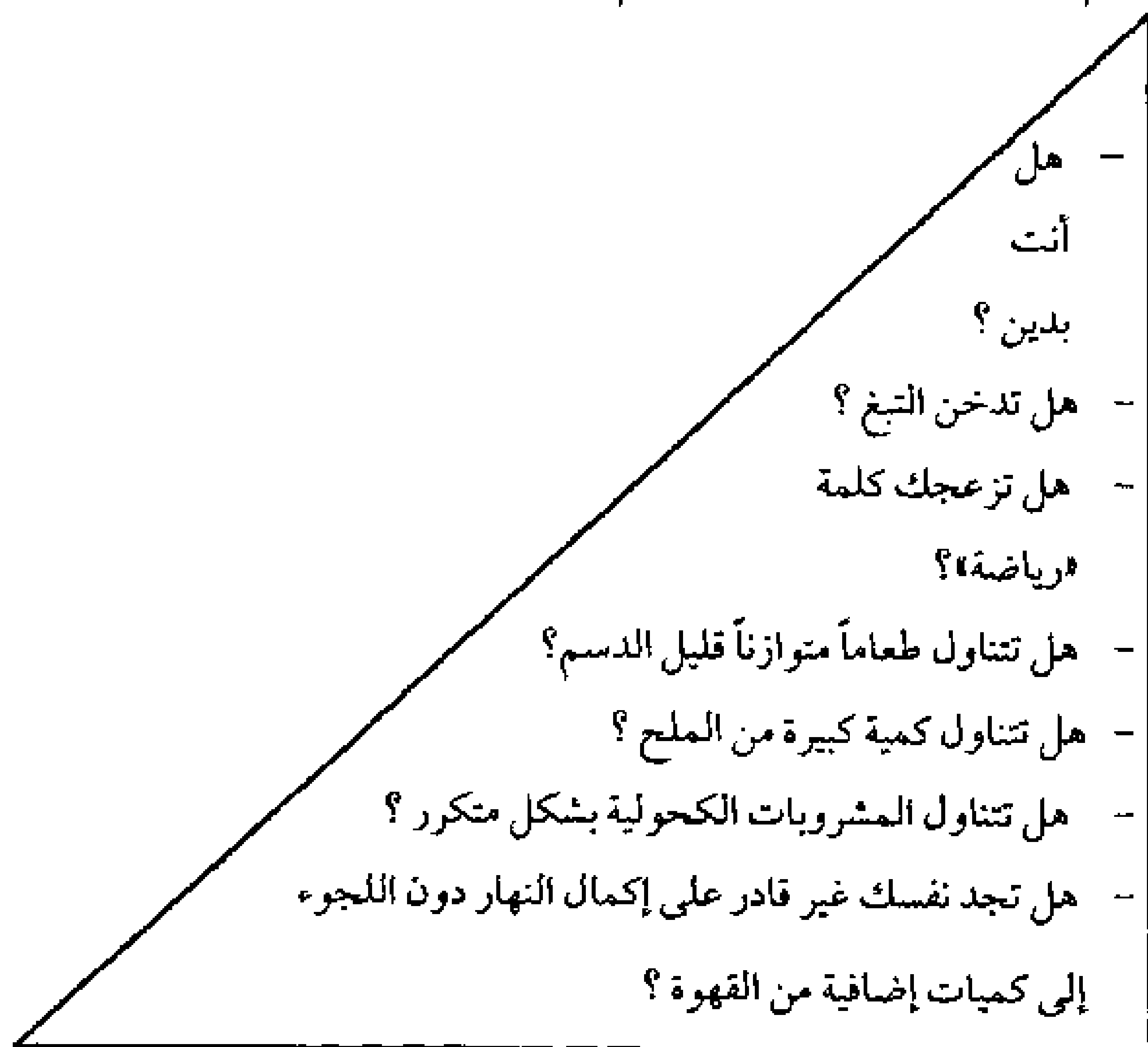
رغم أنك تعتقد أنه خبر سيئ أن تكون مصاباً بارتفاع ضغط الدم، فإن هناك أخباراً جيدة. إن العلاج الجيد موجود؛ الهدف من العلاج هو إعادة ضغط الدم إلى قيمه الطبيعية؛ بشكل دائم الالتزام بالخطة العلاجية ومراجعة الطبيب أمور أساسية.

من الضروري تبديل نظام الحياة (مثل التغذية الصحية والحفاظ على وزن طبيعي والتوقف عن التدخين) لضبط ضغط الدم كما قد

تضطر لتناول بعض الأدوية الخافضة للضغط للسيطرة عليه، وعليك تناول الدواء كما وصفه الطبيب تماماً.

تبديل نظام الحياة

إذا اكتشفت أنت أو طبيبك أنك مصاب بارتفاع ضغط الدم، فهناك خطوات فعالة عليك اتخاذها للسيطرة على الوضع أول ما يتوجب القيام به هو التأكد من سلامة نظام حياتك



سوف يطلب الطبيب منك أن تغير بعضاً من عادات حياتك اليومية، وذلك بحسب وضعك الأولي. سيكون ذلك لمصلحتك بالطبع. قد

يكون من الصعب في البداية إجراء التعديلات الصحية اللازمة، لكنك سوف تشعر سريعاً بأنك أفضل حالاً وسوف تتساءل لماذا لم تقم بذلك من قبل والأفضل من كل هذا، هو أن ضغط الدم سوف ينخفض عند عدد كبير من المرضى. في بعض الحالات، يلجأ الطبيب إلى وصف بعض الأدوية، منذ البداية أو بعد بضعة أسابيع من تغيير نظام الحياة. إذا أثبتت التغييرات فائدتها، أي إن ضغط الدم لديك قد انخفض، يتوجب عليك عندئذ متابعتها ومراقبة ضغطك بشكل منتظم.

إليك فيما يلي بعض من العوامل التي قد تساعد على ارتفاع ضغط الدم لديك، يمكنك القضاء على بعضها ويستحيل ذلك مع بعضها الآخر:

البدانة:

الأشخاص البدينون هم الذين لديهم زيادة وزن قدرها 30 % عن الوزن المثالي النظري بالنسبة إلى الطول والعمر، وهو أمر ضار بالصحة. الحفاظ على وزن مثالي يخفف من احتمالات الإصابة بارتفاع ضغط الدم. يمكنك ذلك بتناول طعام صحي وممارسة التمارين الرياضية. قد تعتقد أن ذلك صعب المنال، لكنه ممكن. ناقش مع طبيبك برنامجاً لتخفيض الوزن إن مجرد تخفيف الوزن، قد يساعد أحياناً على خفض ضغط الدم.

التدخين:

أهم أهداف معالجة ارتفاع ضغط الدم هو الوقاية من احتشاء عضلة القلب والحوادث الوعائية الدماغية. ويضعف التدخين من التأثير الوقائي للأدوية، لذلك فمن الضروري وقف التدخين إذا كان لديك ارتفاع في ضغط الدم، وذلك باللجوء إلى أحد البرامج المخصصة لمساعدتك على ذلك.

الغذاء:

إن الأشخاص الذين يأكلون بشكل سيئ أو سريع قد لا يحصلون على كمية كافية من المواد الضرورية مثل الكالسيوم والبوتاسيوم والماغنيزيوم، ذلك أن النسب الصحيحة من هذه المواد أساسي للصحة كما أن المشروبات الكحولية تساعد على ارتفاع ضغط الدم، وكذلك استهلاك كميات كبيرة من الدسم. كذلك يؤدي استهلاك الملح (الصوديوم) بكميات كبيرة إلى احتباس الماء، مما يزيد في ارتفاع ضغط الدم.

العمر:

كلما تقدم الإنسان في العمر، ازدادت احتمالات إصابته بارتفاع ضغط الدم.

الوراثة:

إذا كان والداك أو إخوتك مصابين بارتفاع ضغط الدم، فهناك احتمال كبير أن تصاب به أيضاً لذلك فمن الأهمية بمكان أن يسألك

الطبيب عن القصة العائلية أثناء الفحص. إذا كنت تجهل ما إذا كان أعضاء العائلة مصابين بهذا المرض، فعليك بالسؤال. من المهم جداً معرفة ما إذا كان أحد أفراد العائلة المقربين مصاباً بارتفاع شديد في ضغط الدم أو أن أحدهم قد توفي قبل سن 55 سنة نتيجة آفة قلبية.

العرق:

بعض الاختلافات العرقية المشتركة تساعد على ظهور ارتفاع ضغط الدم. وعلى سبيل المثال، يصاب الزنوج الأمريكيون بهذا المرض شباباً، ويكون أكثر خطورة لديهم. بالتالي، فإن مضاعفات أكثر جدية، مثل احتشاء عضلة القلب والحوادث الوعائية الدماغية، يمكن أن تكثر عند المرضى المتمين إلى جماعات عرقية معينة.

الجنس:

لا توجد حتى الآن أية دلائل سريرية مطلقة على وجود فروق بين النساء والرجال فيما يتعلق بالإصابة بهذا المرض. يمكن لحبوب منع الحمل وللحمل نفسه أن تكون سبباً في ظهور ارتفاع ضغط الدم أحياناً، لذلك وجب التنبه لها بشكل خاص عند النساء المصابات بالمرض مسبقاً

التوتر النفسي:

هناك علاقة مثبتة بين الضغط النفسي في أماكن العمل وارتفاع ضغط الدم. هذا يشجعك على محاولة التخفيف من الضغط النفسي

في حياتك، غير أن دور طرق الاسترخاء في معالجة هذا المرض غير مثبتة. إذا كانت لديك أسئلة حول هذا الموضوع، اطرحها على طبيبك.

الرياضة:

أظهرت الدراسات أن التمرين الرياضي المنتظم يساعد على ضبط ضغط الدم. إن غياب التمرن الرياضي هو عامل خطورة أساسي في ظهور أمراض القلب، بخاصة لدى المصابين بارتفاع ضغط الدم ليس عليك أن تركض في سباق الماراتون أو أن تقضي معظم نهارك في صالات الرياضة لتحصل على الفائدة المرجوة، ذلك إن التمرين المتوسط كاف، مارس الرياضة التي تمتعك، وثابر عليها.

العلاج الدوائي

قد لا يكون تبديل نظام الحياة كافياً لضبط ارتفاع ضغط الدم عند بعض الأشخاص غير أن هناك ما يمكن تقديمه لهم أيضاً، فقد أدت البحوث الطبية الجدية إلى إيجاد عدد كبير من الأدوية الفعالة لخفض ضغط الدم.

كما أنه لا يوجد شخصان متماثلان تماماً، فإن هناك أدوية للضغط تناسب كل مريض بشكل مختلف. إن الطبيب يصف أدوية تختلف حسب حالتك الصحية.

تصنف أدوية الضغط ضمن العائلات التالية:

المدرات.

حاصرات بيتا.

حاصرات ألفا.

حاصرات أقنية الكالسيوم.

مثبطات خميرة تحول الأنجيوتنسين.

مضادات الأنجيوتنسين 2.

ناقش هذه الأنواع المختلفة مع طبيب.

بدأت المشكلة الأولى في أنّ عنوانه بدَهيّ. فلو أردنا أن نبحث في كتب الطبّ، أو الصفحات الأخيرة من الصحف، أو المواضيع الجانبيّة من الدوريّات، أو لو أردنا وضعَ كلمة-مفتاح «ارتفاع ضغط الدم» في الشبكة العنكبوتيّة، لَما استطعنا إحصاءَ عدد المقالات بهذا الخصوص، وربّما اتّخذت العنوانَ نفسَه بحرفيّته. العنوان شائع ومألوف. وهذا أوّلُ التباس، لأنّ العنوان لهذا النصّ ولغيره من النصوص.

وإذْ للأحكام، يُطلق ريتشاردز ألفاظاً من مثل «يعجبني» أو «أنا لا أوافق»[1]، ويصل به الأمرُ إلى القول إنّه لو لم يكن كسولاً إلى حدٍّ كبير، لَرمى الكتاب في الزاوية، أو القول غيرَ مرّة عن نصٍّ ما أو عن جزء منه إنّه قمامة[2]؛ فنحن نقول إنّه يجب رميُ هذا النصّ ليس لأنّه غير مفيد في ذاته أو لأنّه سيّئ في ذاته، بل لأنّه من الممكن الاستغناء عنه، وتعريبهُ مضيعةٌ للوقت!

(1) Cf. Richards, Ibid., p.68,25,110…

(2) Cf. Ibid., p.157,165…

العناوين الجزئيّة مألوفة، وطريقةُ تقديمها لغوياً مألوفةٌ أيضاً، والكلامُ عليها كان بسيطاً لا سبيلَ فيه إلى التشويق. فما يُنقذ موضوعاً مألوفاً من السقوط هو أن يكون أسلوبُه غير مألوف. القضيةّ هنا تتعدّى مسألةَ أن تكون المعلوماتُ صحيحة أو غير صحيحة. فليس هذا هو المهمّ لأنّه يمكن التأكّد من صدقيّتها، بمجرّد النقر على الشبكة العنكبوتيّة، لتجريَ المقارَبةُ الدلاليّة فتثبت معلومةٌ مشتركة، وتسقط معلومةٌ نافرة أو يوضَع حولها علامةُ استفهام إلى حين التأكّد من ثباتها. هذا النوع من النصوص عند ريتشاردز من الصعب نقلُ حُكمٍ عليه. التوصيل ممتاز، والخبرة مألوفة لمعظم الناس[1].

بيدَ أنّ ما أعجبني في النصّ هو فقرة «تبديل نظام الحياة»، وهي الفقرة اللافتة لأهميّتها وأسلوبها التساؤليّ، والحُكمُ عليها يأتي من حكم المريض عليها، لأنّ الأسئلة مطلوبة من مريض، أي من «خبير في المرض» باستطاعته ليس فقط أن يجيب، بل أن يُطلق حكماً عمّا إذا كانت الأسئلةُ في حدّ ذاتها مقنعةً أو غير مقنعة، عميقةً أو سطحيةّ، كافية أو غير كافية، تحتاج إلى تصويب أو إلى تعديل...

ولكنّ الفقرة التي تبدو لافتة مضموناً، تبدو لافتةً أيضاً شكلياً بمعنى الإخراج الطباعيّ: فالسطر لا يكتمل، ما هو لافتٌ للعين في مقالة سطورها مكتملة؛ وترى السطرَ بدءاً من السؤال الأوّل يتوسّع شيئاً فشيئاً وكأنّك أمام مثلّث ذي زاوية قائمة، ونقاطُ علامات الاستفهام في

(1) Cf. Ibid., p.115.

خواتيم الأسطر إذا ما تمّ تمريرُ سطرٍ يَعبرُها لَقامت مقامَ وتر المثلّث *(Hypotenuse)* – أنظر الرسم المحيط أعلاه.

أمّا الجدول البيانيّ فمن الطبيعيّ أن يلفت النظر، إلّا أنّنا لا نظنّ أنّ فيه جديداً، كما أنّ بعض الاختزالات اللفظيّة فيه *(Abreviations)* قد لا يفهمها قارئٌ مريض، ولم يجرِ شرحُ أصولها قبلَ الترميز إليها؛ فهل من الضروريّ أن يكونَ قارئُ نصٍّ طبّيٍّ ذي موضوعٍ شائع، طبيباً، أو كان على النصّ، كما العنوان والعناوين الفرعيّة البسيطة، أن يكون موجّهاً إلى عامّة الجمهور ؟!

خلاصة

قد تكون هذه أوّل مرّة يَتمّ فيها جمعُ نظريّات النقد الجديد وتنظيمُها (New Criticism). ومع أنّ الاختيار لم يكن مفروضاً في مقدّمةٍ أو صلب موضوع أو خاتمة، باعتبارنا أنّ كلّاً من تلك الأقسام هو جسم للموضوع، فإنّنا لاحظنا أنّ جزءاً كبيراً من الاختيارات الملائمة للنقاط تركَزَ في المقدّمات، وهذه ميزة نُطلقها على مدوّنة «العالم الدبلوماسيّ»، حيث انّ الاستقراء يَخلص إلى أنّ النقطة العليا للمقالات تتركّز في مقدّمتها، كالصورة، أو الشعور والفكر، أي في طرح قضيّتها وإشكاليّتها ما دامت في الغالب ذات طابع إبلاغيّ. في مقابل النقطة العليا-الجزء، لاحظنا أنّ النقطة العليا كانت في النصّ بكامله، إمّا لشدّة تماسكه، وإمّا لشدّة غموضه، ما استدعى ذِكره بكلّيّته، كما في نقطة المعتقدات، حيث إنّ المعتقَد قد يؤخذ مجتزَأً في ما عدا ذلك.

إذاً في هذا القسم من الدراسة، لأوّل مرّةٍ يَتمّ تقسيم نظريّات النقد الجديد في تبويبٍ جديد. وغالباً ما نجهد في كلٍّ من نقاط التبويب إلى إبراز الصراع التنظيريّ التطبيقيّ: فمنَظِّرٌ يشدّ صوب اللاالتباس،

وآخرُ يشدّ صوب الالتباس؛ وفي جميع الأحوال تبدو النقاط المتفاوتة والمتغلغلة هنا وهناك في صلب التنظير أو التطبيق النقديّ للنقّاد، غيرَ متدرّجة وإن بدت مقسَّمة. هذا ما جعلَنا، بعد القراءة الشموليّة، نعمل على إدراج التدريج كالآتي: فأوّلاً النقل، ما دام النصّ العربيّ ذا أصلٍ فرنسيّ أو انكليزيّ في مدوَّنة «Le Monde Diplomatique»؛ والقاموس، تبعاً لذلك، لا بدّ من أن نحتاج بعضاً من خصائصه عربيّاً أو أجنبيّاً. وإذا كان المعنى القاموسيّ ثابتاً فيه، أو متحرّكاً ولكنْ فيه، أي ثابتاً لا محالة فيه، فالجوّ النصّيّ يؤثّر في حياكة المعنى... هذا يستدعي قضيّة الصدق/ اللاصدق، ولكنّ الصدقَ يتأثّر بزمنِ النصّ، ونبرتِه، والنبرةَ تتأثّر بنيّة الكاتب التي يكتشفها القارئ، والتي هي أصلاً تتولّد من أنواعٍ إسقاطيّة. ثمّ يعود الميزان بين الفكر والشعور ليحاول إعادة التوازن، في صراع مع تشتّت الفكر أو استئثار الشعور الانفعاليّ بكشف المعنى. تبقى تلك محاوَلةً، فيتدخّل الشكلُ التركيبيّ ليحسّن المنطق، فيهوي في تركيب الكاتب غير المتوازن، فيحاول أن يحوّله إلى صوتٍ فيؤخذ بمغالطات، يحوّله إلى صورة فتارةً تنجح وطوراً تبتعد عن الحقيقة، بأنواعٍ أهمُّها التشخيص والتجسيم تحديداً، وذلك كلّه يوصل إلى التلاغي، لكنْ يحاول حلَّ الحلول، والاكتفاءَ بالمرسلة أقلّه، حتّى يتبيّن أنّ النصّ يصل إلى نقطة معينة، أو إلى نقطةٍ... لينتزع بها حُكماً إيجابيّاً أو سلبيّاً، ولكنْ: ليكُن حُكمٌ أيُّ حُكم!

هذا الحُكم على المضمون أو على الجماليّة قد يأتي متسرّعاً، إذ

هو نفسه قد يصير مستحسَناً، وهذه هي مسألة الزمن في التذوّق الأدبيّ. وبين القراءة الأولى والقراءات اللاحقة هوّةٌ تذوُّقيّة، ولكنّ القراءات الممكنة جميعاً تأتي في قراءة واحدة، هي القراءة النقديّة المطبوعة، في حكمٍ واحد، يصير بدوره عرضةً للنقد المتغيّر، عن طريق القارئ نفسه؛ لذلك ضمن الحكم الذي كان يُفترض أن يكون واحداً، قد تجد متناقضات عائدة إلى التبدّل الذوقيّ للقارئ، أو إلى المغالطات العائدة للكاتب داخل محتوى النصّ نفسه. القارئ الجديد يأخذ بقراءاتِ سواه من القرّاء، ويعرض كلّاً منها في حواشي قراءته. لذلك، في انتظاري الزمنيّ بين القراءة الأولى والحكم، اعتبرتُ كلَّ إعادة قراءة هي قراءة جديدة، فكنتُ بنفسي القارئ-القرّاء=القارئ1 في زمن1+ق2 ز2 + ق3 ز3 ... ؛ وكما حكم القارئ الجديد هو مجموعة أحكام القرّاء الذي هو واحدٌ منهم، هكذا كان حكمي مجموعةَ أحكامي المتعاقبة... فكانت أهمّيّة قراءتي بتعدّد قراءات القارئ، بدلاً من أن تكون بتعدّد القرّاء.

وإذا كان الذوقيّ انطباعيّاً، فلم يكن ذاك الانطباعيُّ في النقد الجديد إلّا ما بعدَ الموضوعيّ التقنيّ، بما أنّ الشكل=المحتوى في هذه المدرسة، ما عنى أنّ المحتوى، وإن كان انطباعيّاً، إلّا أنّه من مصدريّة الحكم على التقنيّة الشكليّة. ومن أهمّ صفات الموضوعيّة الجديدة أنّ القراءة النقديّة تطال الجيّد والسيّئ، فلا تضرب الكاتب فقط، ولا ترفعه فقط، أي إنّها، على مبالغتها، لا تكون قد بالغت! فرُبَّ مبالغةٍ هي

حقيقة...

من وجهة نظر أخرى، ثمّة إشكاليّة في أنّ الناقد الجديد هو نفسه التباسيٌّ، بحيث إنّ ما لا يعجبه من نصٍّ ما، قد يكون هو ما لا يفهمه منه! أَفيكون الحُكمُ إذاً صادقاً حينذاك؟ على الجهد ألّا يكون آنيّاً، ولهذا استغرقنا وقتاً لإنجاز العمل حتّى بعد إتمامه. فالصدق ليس مرتبطاً بالمحتوى بقدر ما هو مرتبط بالحكم. وإذا كان اللاصدق في كليهما، كان الالتباس في أوجِه كما حصل مراراً معنا.

خاتمة

في كلٍّ من المباحث الثلاثة حُكمٌ. إذاً، أخيراً... أوَتسألون إذاً ما الذي جمع هذه المباحث الثلاثة؟ فالفعل الحُكميّ في ملفوظ أوستن هو وجهٌ آخر لحُكم النقد الجديد. إلّا أنّه في حالة أفعال الكلام، هو نوعٌ من الأنواع، وبالتالي هو خيار؛ في حين أنّه في النقد الجديد قدَر! أمّا الحكم عند فان دايك فهو حكمٌ ضمنيٌّ نابع من نوع العالم النَصّيّ.

نيّة النقد الجديد مغالِطة، وتعديليّة، وهي تارةً مقصيّة، وطوراً جزءٌ من المعنى العاطفيّ، إلّا أنّها في الغالب تكون مرتبطة بتاريخيّة النصّ. وهي لدى أفعال الكلام كامنةٌ ضروريّة لانكشاف القصديّة.

أمّا بالنسبة إلى حَوسبة النصّ، فذلك يمكن اختباره في معايير العوالم، أو في الإخفاقات، أو في تشكُّل القراءة المغلَقة. وفي تلك الثلاثة، يمكن تدريب البرمجيّة الحاسوبيّة على اقتفاء المقدّمة المقبولة، أو الخاتمة المتمّمة العناصر، أو الجسم النَصّيّ القابل للتماسك، كتمهيد لاختبار مدى تَقبُّليّة التعريف.

وفي هذا الجزء الأخير من الدراسة، ساعدَت النقاط على جعل

كلٍّ منها عنصراً من عناصر التسلسليّة البرمجيّة القادرة على ربط النقطة بالمجال الملائم.

وفي أقسام هذا المؤلَّف جميعها، اقترحنا حَوسبةَ الخلاصة الخطابيّة للتعريف، ولقد صرّحنا شخصيّاً عن ذلك في مؤتمرٍ لمختبر «LILAS» أُقيم في مركز علوم اللغة والتواصل حول اللسانيّات العربيّة والتقنيّات والتعليم؛ فمن مقاربةٍ لتحليل التعريف بمنطقٍ يتراوح بين البنية التحتيّة للخطاب وبنيته التأويليّة الرياضيّة الثنائيّة، بغاية التوصّل إلى جعله وظيفةً رقميّة، أتمَمنا تسويةَ المنطق من خلال اتّجاهاتٍ منطقيّةٍ ثلاثة: فبعدَ أن جاء المنطقُ الأوّل من خلال ربط التعريف بأسلوبٍ جديد من التفكير، بعيداً من تسطيحيّة النماذج التعريفيّة، حيث تجزيءُ النصّ إلى ثلاثة أقسام هي المقدّمة وجسم الموضوع والخاتمة ما هو إلّا فرزٌ، والفرزُ نوعٌ من أنواع المنطق، ضمنَ فرز التعريف بحسب اتّجاه النصّ، علميّاً أو أيديولوجيّاً، ما يحوّلُه تَلفُّظاً، سلسلةً خطابيّة، جاء المنطقُ الثاني الذي هو اشتقاقُ النصّ من حساب العلاقة الجدليّة بين التفاضل والتكامل، حيثُ أصلُ النصّ باتَ منطقَ الإتيان به من بنيته الدفينة الكامنة خلفَ إثباته حروفاً على صفحة القول؛ المنطق الثالث يبيّن برمجةَ التعريف آليّاً انطلاقاً من معايير تحليليّة مجرَّدة. ومن الترميز الموسوم بالعلاقة الجدليّة بين الصحّ والخطأ، وهو في منطق جورج بُول (Boole) معادلٌ للرمزين الرقميّين « 1-0»، بات بالإمكان، بناءً على مجموعةٍ من المعطيات التي درسناها من صلب الخطاب، إدخالُ هذه المعطيات بجدليّة الإيجاب والسلب عن طريقِ نفيِ المُعطى أو تحديدِ ضدّه، وبرمجتُها حتّى يَخرجَ الحاسوبُ بخطابٍ

«منعوت» ثنائيّاً: تعريف «ملائم/ لاملائم، مترابط/ مُبعثر، متماسك/ لامتماسك، ناجز/ مُعلّق، ناجح/ مُخفق، صادق/ كاذب، واضح/ ملتبس، موضوعيّ/ مُغالِط، مؤسّساتيّ/ خام، سعيد/ حزين ...»

هذه المجموعة العامّة الكبرى من الثنائيّات، يمكن، في خطوةٍ موازية، أن تنبنيَ على أساس فرزٍ من جديد، يُحتِّمُ أن يكون التعريفُ «منعوتاً بكذا»، وفقاً لمعطياتٍ تُجمعُ في مجموعاتٍ دُونيّة (Sous-ensembles)، ويُعالجُها البرنامجُ الحاسوبيّ على أساس إيجابيّة المعطيات المجموعة الملائمة أو على أساس سلبٍ لهذا الجمع، بالعودة إلى معادلتَي دُو مُورغان (De Morgan) اللتين تُقيّمان الجدليّةَ بين الجمع $\wedge$ والتخيير $\vee$ والسلب $\overline{F}$ (AND, OR, NOT): فإمّا أنّ المعطيات «A,B,...» موجودة في التعريف فيكون «منعوتاً بكذا- عنوان المجموعة»، أو لا تكون موجودة فيكون «منعوتاً بعكس كذا» $\overline{(A \vee B)} \leftrightarrow (\overline{A}) \wedge (\overline{B})$ ،$\overline{(A \wedge B)} \leftrightarrow (\overline{A}) \vee (\overline{B})$، فيَدخلُ التعريفُ على أنّه خطاب (Input)، ويَخرج مُحوسَباً على هيئةِ بوّابةٍ لترميزٍ منطقيّ (Output).

د. أديب سيف

أستاذ في الجامعة اللبنانيّة- كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة- الفرع الثاني-قسم اللغة العربيّة وآدابها؛ العمادة-ماستر ومركز علوم اللغة والتواصل

فهرس المصادر والمراجع

مصادر المقالات (تمّت زيارة المواقع الالكترونية عام 2012)

اسماعيل، محمد طاهر: داء لايم، العالم الدبلوماسيّ، ؟

ايفانجيليستي، فاليريو: غريزة الموت، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2003.

بلّ، نيكولا: اوروبا تنظّم العمالة السرّيّة، العالم الدبلوماسيّ، 4/ 2003.

بنتلي، توم: براغماتيّة طوني بلير، العالم الدبلوماسيّ، 2/ 2003.

بيزاني، فرنسيس: عقيدة عسكريّة اميركيّة(حرب الشبكات ضدّ عدوّ منتشر)، العالم الدبلوماسيّ، 6/ 2002.

تسهيامبي، موابيلا: من الخلاص المنتظر إلى ضفاف العولمة، العالم الدبلوماسيّ، 7/ 2002.

تشانغ، ها-جون: من نظام الحماية إلى التبادل التجاريّ الحرّ، العالم الدبلوماسيّ، 6/ 2003.

جاسم، صهيب: الأدويـة المغشوشة تغرق العالم..!!، العالم الدبلوماسيّ، 19/ 02/ 2002.

دلفي، كريستين: هل هي حرب من اجل النساء؟، العالم الدبلوماسيّ، 3/ 2002.

دولا غورس، بول-ماري: منطق الحرب في الشرق الاوسط، العالم الدبلوماسيّ، 9/ 2001.

رامونه، انياسيو: -أزمة مطلقة في انكلترا، العالم الدبلوماسيّ، 4/ 2001.

- الأخ الأكبر، العالم الدبلوماسيّ، 6/ 2001.
- بلاد القبائل، العالم الدبلوماسيّ، 7/ 2001.
- رؤساء مطاردون، العالم الدبلوماسيّ، 8/ 2001.
- وداعاً للحرّيّات، العالم الدبلوماسيّ، 1/ 2002.
- تحيا البرازيل!، العالم الدبلوماسيّ، 1/ 2003.
- الحرب المستمرّة، العالم الدبلوماسيّ، 3/ 2003.
- الامبرياليّة الجديدة، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2003.

روي، أوليفييه: وهم العودة إلى الجذور (الإسلام الحرفيّ)، العالم الدبلوماسيّ، 4/ 2002.

السح، عبدالمطلب بن أحمد: وهكذا يلتهب البلعوم!!، http://www.arabjomed.com/index.php?option=com_content&view=article&id=65:2010-13-20-01-06-39&catid=55:medical-news-jordan&Itemid=68.

شومات، غي-بيار: على التخوم الشرقيّة للاتّحاد الأوروبيّ، العالم الدبلوماسيّ، 3/ 2003.

الصوّاف، رحاب: الآمال المستقبليّة لطبّ الألفيّة الثالثة، العالم الدبلوماسيّ.

غريش، آلان: - الرأي العام في السعوديّة (البدايات)، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2002.

- «الوجه الحقيقي» لأيهود باراك، العالم الدبلوماسيّ، 7/ 2002.

- «حرب التحرير»: جرائم وأكاذيب، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2003.

- هل من مسألة شيعيّة في السعوديّة؟، العالم الدبلوماسيّ، 6/ 2003.

فيدال، دومينيك: إسرائيل ضدّ إسرائيل، العالم الدبلوماسيّ، 1/ 2002.

قبلان، سعيد - غويش، باسل: اضطرابات التصبّغ، http://www.ktaby.com/book-onebook-3712.html

قبلان، يونس: الداء السكّري: http://ejabh.m5zn.com/arabic_article_2103.html

القره، ناهل فؤاد: - جفاف العين، العالم الدبلوماسيّ، ؟

- ما يجب أن تعرفه عن الحول، العالم الدبلوماسيّ؟

كاسّان، برنار: - أوروبا الأقلّ أوروبيّة، العالم الدبلوماسيّ، 1/ 2003.

- الاتّحاد الأوروبيّ مريض النزعة الأطلسيّة، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2003.

كالفون، بيار: ما عاد الله ارجنتينيّاً، العالم الدبلوماسيّ، 2/ 2002.

كامو، جان-إيف: من الفاشيّة إلى القوميّة-الشعبيّة (تطوّر اليمين المتطرّف في أوروبا)، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2002.

كلار، مايكل ت.: مرتكزات الاستراتيجيا الأميركيّة الثلاثة، العالم الدبلوماسيّ، 7/ 2001.

كليرمون، فريدريك: الاستدانة عقيدة القوة العظمى في العالم، العالم الدبلوماسيّ، 4/ 2003.

لا كاتب: الاستنساخ وزراعة الأعضاء، http://www.ktaby.com/book-onebook-3327.html

لا كاتب: الإكليلي مرض الشرايين، العالم الدبلوماسيّ؟

لا كاتب: ماذا يعني الالتهاب الرئوي الغامض؟، العالم الدبلوماسيّ؟

لا كاتب: ما هي فوائد الثوم؟ ، http://www.souqaldoha.com/vb/t8213.htm

اللجمي، مازن: ارتفاع ضغط الدم، العالم الدبلوماسيّ؟

لورنس، هنري: الخريطة (كيف جرى تقسيم السلطنة العثمانيّة)، العالم الدبلوماسيّ، 4/ 2003.

Henry Laurens: Les ravages d'une guerre arbitraire(Comment l'Empire ottoman fut dépecé), Le Monde Diplomatique.

لوقا، فادي: ما يجب أن تعرفه من أجل أنف مريح، العالم الدبلوماسيّ، ؟

لوموان، موريس: انقلاب مجهض في فنزويلا (الشعب ينقذ شافيز)، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2002.

مارواني، مارغرت: الفقر وفرص العمل الصعبة، العالم الدبلوماسيّ، 6/ 2003.

ماسيا، غوستاف: نادي الأغنياء الثمانية عرضة للانتقاد، العالم الدبلوماسيّ، 5/ 2003.

نسيب، سليم: سعياً للتخلّص من العالم العربيّ، العالم الدبلوماسيّ، 3/ 2003.

الوتار، نبيل نذير: وذمات الأجفان، العالم الدبلوماسيّ، ؟

ورده، إبراهيم: المبادىء الدينيّة أمام تحدّي العولمة (الإسلام والمال)، العالم الدبلوماسيّ، 9/ 2001.

[المصدران العربيّان].

أرسطوطاليس: الخطابة (الترجمة العربيّة القديمة)، تح عبد الرحمن بدوي، الكويت-بيروت، وكالة المطبوعات-دار القلم، 1979.

البستاني، بطرس: محيط المحيط (قاموس مطوّل للّغة العربيّة)، بيروت، مكتبة لبنان، 1977.

مصادر تحليل الخطاب الأجنبيّة

Austin, J. L.: Quand dire c'est faire,Trad. Gilles Lane, Paris, éd. Seuil,1970.

Empson, William: Seven types of Ambiguity, London, Chatto and Windus, 3rd ed.,1949.

Ransom, John Crowe: Criticism as pure speculation (The intent of the critic), ed. Donald A. Stauffer, Princeton,Princeton UP, 1941;Critical Theory Since Plato, New York, Ed. Hazard Adams-Harcourt, Brace, Jovanovich,1971.

Richards, I. A.: Practical Criticism (A study of literary Judgement), London, Kegan Paul & Trench & Trubner, Edinburgh Press,1930,2nd ed.

Searle, John: -Langage, Conscience, Rationalité: Une philosophie naturelle (Entretien avec John Searle), Paris, Le Débat, Mars-Avril 2000.

- Les actes de langage (Essai de philosophie du langage), éd. Hermann-Editeurs des Sciences et des Arts, Coll. Savoir-Lettres, Préface Oswald Ducrot, 1996.

Searle, John R. & Vanderveken, Daniel: Logic, Thought and Action, Canada, University of Quebec, ed. D. Vanderveken-Springer, 2005.

Smith, Barry: John Searle (From speech acts to social reality), Cambridge University Press, 2003.

Van Dijk, Teun A.: -Analyzing discourse (Text and Talk), Episodes as units of discourse analysis, Ed. Deborah Tannen, University of Amsterdam, Georgetown University Press.

- Discourse and Context (A sociocognitive approach), New York,Cambridge University Press, 2008.

- Relevance in text and context (Discussion of Joscph E. Grimes' Preprint «Context structure patterns»), Universiteit van Amsterdam.

- Text and Context (Explorations in the semantics and pragmatics of discourse), Ed. R. H. Robins-G.N. Leech, University of London-University of Lancaster, University of Amsterdam, Longman Linguistics Library, 1977.

Wimsatt, W. K. & Beardsley, Monroe : -The Affective Fallacy, The Verbal Icon (Studies in the Meaning of Poetry), Lexington,University of Kentucky Press, 1954

- The Intentional fallacy, The Verbal Icon (Studies in the Meaning of Poetry), Lexington, University of Kentucky Press, 1954.

المراجع المساعدة

بن سالم، فاتن: القياس المغالطيّ في خطاب البخلاء، فصول (مجلّة النقد الأدبيّ)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، شتاء/ ربيع 2010، عدد 77، ملفّ العدد «تحليل الخطاب: رهانات وآفاق».

Jung, C. G.: -L'Ame et le Soi(Renaissance et individuation), Trad. Maillard & Bourneuf, Paris, éd. Albin Michel, 1990.

- L'Homme à la decouverte de son âme (Structure et fonctionnement de l'inconscient), préface Roland Cahen, Paris, éd. Albin Michel, 1987.

http://fr.wikipedia.org/wiki/Ontologie.

المحتويات

من كتب المؤلّف المنشورة

وظائف العناصر الاسميّة (من الدلالة النَحويّة إلى الدلالة العمَليّة)، دار العلم للملايين، 2006 .

المُلاءمات النقديّة (من عالَم الدلالة إلى مَعالم التأويل)، دار العلم للملايين، 2006 .

الذات بين الجَدّ والمرآة (فلسفات نفسيّة)، دار العلم للملايين، 2007.

سيمياء العدد والقلق والأكاديميّ (موضوعيّة النقد الوفيّ)، دار العلم للملايين، 2014.



كثيرون عالجوا قضيّة التعريف؛ فإلى أيّ مدى يمكن معالجته من غير أدواته؟ وكثيرون انشغلوا بتوهّج مصطلح «تحليل الخطاب» في عالمنا الحديث؛ فإلى أيّ مدى ما زال هذا الاتّجاه قابلاً للتحديث؟ ربّما ينبغي، لأجل ذلك، مقارَبة القضيّتين عن طريق توحيد مشروعيهما، ومقارَبتهما بتقنيّات من خارج ميدانيهما الضيّقين، باعتبار أنّ الخطاب مجموعةُ تَلفُّظات يمكن تحويلُها تعريفاتٍ قابلة للتحليل: من هنا رمى الكتاب إلى تحليل الخطاب من منظورٍ جديد، هو ربطه بفلسفة اللغة، لإعادة ربطها بمدرسة النقد الجديد، ثمّ ربط الناتج القِيميّ بتحليلٍ كمّيّ دقيق، وذلك بطريقةٍ استقرائيّة ربطت النظريّات مباشرةً بالمُدوَّنة التطبيقيّة التي استندت إلى مقالات علميّة وإيديولوجيّة، حيث التلفّظات يعتريها الالتباس بسبب مغالطاتٍ في التعبير أو في تماسك المحتوى: فإنّ قرارَ متابعةِ قراءةِ نصٍّ ما، يرتبط بحُسن صَوغ المقدّمة المُمهِّدة، أو بصدقيّة الرأي في الخاتمة، أو بإقصاء المغالطات من أيّ نوع كانت في جسم الموضوع. وبالتقنيّات التحليليّة التي اعتمدها المؤلّف، والتي بربطها بإشاراتٍ رياضيّاتيّة ولغويّة، تُدخل التعريفَ السياقيّ إلى علوم المنطق، جعلَ النصّ الأصليّ نصّاً مُشتقّاً، في حين أنّه اعتبر النصَّ التحليليَّ هو النصّ الأصليّ في مساحةِ نواياه اللامتناهية، على سبيل التماثل مع التفاضل والتكامل في الرياضيّات، وعلى عكس المفهوم التحليليّ الشائع.

هذا العمل مهّدَ لحَوسبته، حيث المقالة تكون مدخلاً لمَخرج هو الخطاب المحلَّل، الذي يتحوّل من جديد إلى مدخلِ مخرجُه الناتجُ الآليّ لبَرمَجيّةٍ تُتيحُ نعتَ الخُطاب بكلمةٍ من بين أزواجٍ كلاميّة تُماثل منطقَ الحَوسبةِ الثنائيّ.

(المؤلف)

الدكتور أديب سيف

- من مواليد بيروت عام 1975، تابع دراسته الثانويّة حائزاً شهادة الرياضيّات، وربط في [illegible] العالي بين اختصاصات العلوم الطبيعيّة والهندسة وإدارة الأعمال واللغة العربيّة وآ[illegible]
- طليع أقسام اللغة العربيّة وآدابها في فروع الجامعة اللبنانيّة الخمسة عام [illegible] القصوى في شهادة دكتوراه دولة من الجامعة اللبنانيّة-كلّيّة الآداب والعلوم [illegible]
- أستاذ تحليل الخطاب وعلوم الألسنيّة ولغة النصّ والدلالة (الصُوريّة [illegible] الجامعة اللبنانيّة-كلّيّة الآداب والعلوم الانسانيّة: العمادة؛ والفرع الثاني؛ ومر[illegible] وقد درّس نحو أربعين مادّةً مختلفة (في المستويات اللغويّة والعلوم اللغو[illegible] الحديثة والأدب والحضارة والنقد والمصطلحات) منذ دخوله ميدان التعليم [illegible]
- مُنسّق اللغة العربيّة وآدابها للماستر في الجامعة اللبنانيّة-كلّيّة الآداب والع[illegible]
- رئيس قسم اللغة العربيّة في مركز علوم اللغة والتواصل في الجامعة اللبن[illegible] الانسانيّة

